إرفين د. يالوم

أمّي ومعنى الحياة

حكايات في العلاج النفسي

ترجمة: خالد الجبيلي





ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية - ناشرون

أمّي ومعنى الحياة

حكايات في العلاج النفسي

ابن النديم للنشر والتوزيع   دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

إرفين د. يالوم

أمّي ومعنى الحياة

حكايات في العلاج النفسي

ترجمة

خالد الجبيلي





العنوان الأصلي للكتاب

Momma and the Meaning of Life
Irvin D. Yalon

First published by Basic Books, A Member of the Perseus Books Group
Translation rights arranged by Sandra Dijkstra Literary Agency

أمّي ومعنى الحياة

إرفين د. يالوم

الطبعة الأولى، 2024
عدد الصفحات: 399
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي ISBN: 978-614-466-194-9
الإيداع القانوني: السداسي الأول/ 2024

ابن النديم للنشر والتوزيع
وهــــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلــــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
الإمارات العربية المتحدة - مركز الأعمال
مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة
خلوي: 28 28 69 3 961+
Email: rw.culture@yahoo.com
info@dar-rawafed.com
www.dar-rawafed.com

توزيع: دار الروافد الثقافية - ناشرون
هاتف: 37 04 74 1 961+
ص.ب. 113/6058
بيروت-لبنان

المحتويات

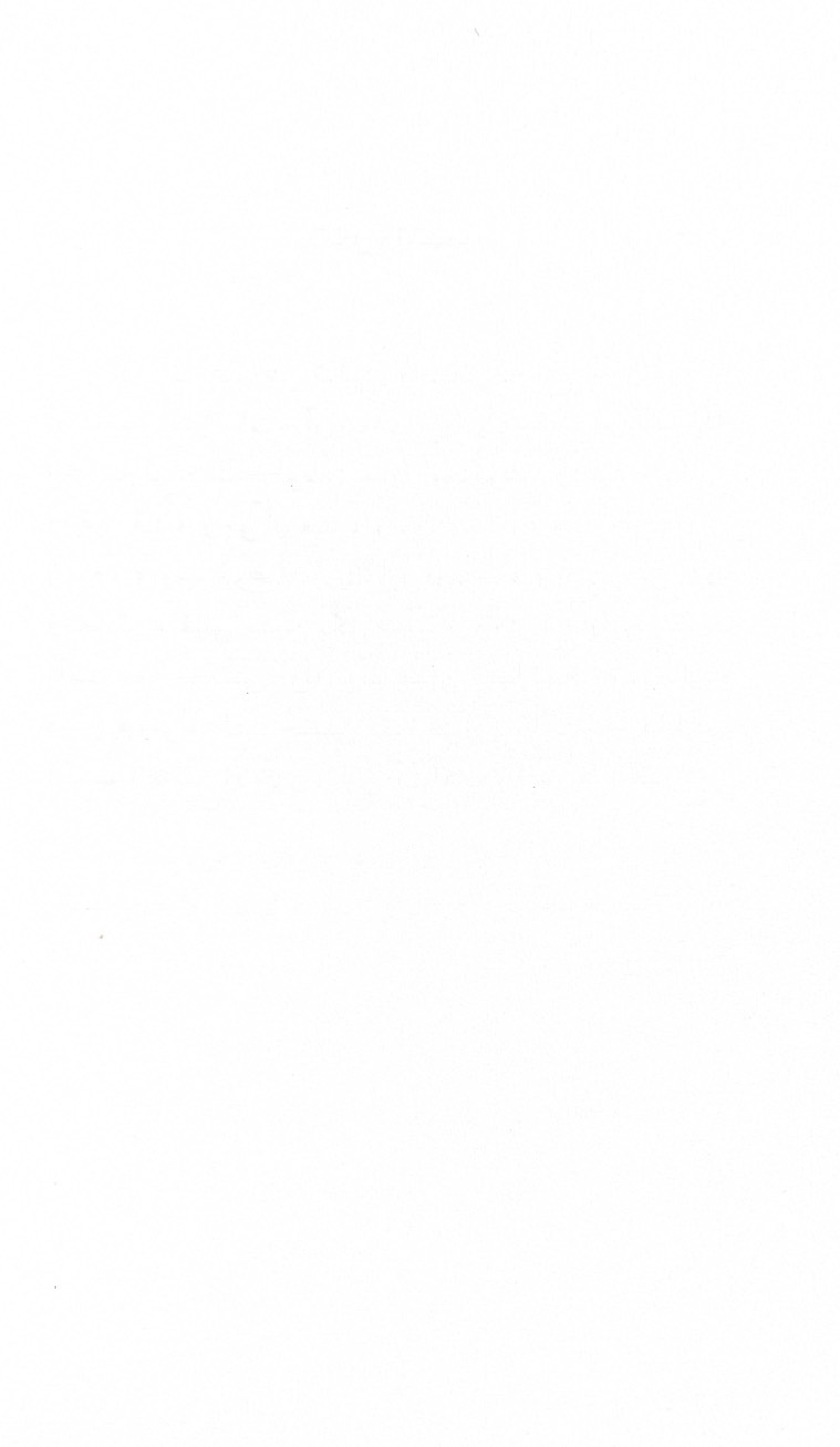
إلى سول سبيرو، الطبيب النفسيّ، والشاعر، والفنان مع عظيم الامتنان لأربعين عاماً من الصداقة - أربعون عاماً من تقاسم الحياة والكتب والعمل الإبداعي والشك اللامتناهي حول معنى كلّ شيء.

ملاحظة:

تستند الشخصيات والمواقف الواردة في الفصول 1 و2 و3 و4 («أمّي ومعنى الحياة» و«رحلات مع باولا» و«الراحة الجنوبية» و«سبعة دروس متقدّمة في علاج الحزن») تستند إلى أحداث حقيقية، لكنني غيّرتُ الأسماء والظروف والصفات. أما الفصل الثالث «الراحة الجنوبية» فإنه مبني على أحداث حقيقية، لكنني أجريت بعض التعديلات على تفاصيل الشخصيات وظروفها، في حين أن الفصلين الخامس والسادس («التعرية المزدوجة» و«لعنة القطة الهنغارية») فهما قصتان من محض الخيال، وأي تشابه مُدرك بين الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء أو أموات ليس إلّا من قبيل المصادفة.

شكر وتقدير

أوّد أن أعبّر عن شكري وامتناني لجميع الذين قرأوا، أو قدّموا اقتراحات، أو ساهموا بطريقة مفيدة في الصياغة النهائية لهذه المخطوطة: سارا ليبينكوت، وديفيد شبيغل، وديفيد فان، وجو آن ميلر، وموراي بيلمز، وآن أرفين، وبن يالوم، وبوب بيرغر، وريتشارد فوموسا، وأختي جين روز. وكعادتي، فإني مدين بكل محبة لزوجتي، مارلين يالوم، بأكثر مما يمكنني قوله. وأنا مدين أيضاً لمحررة أعمالي، فيبي هوس، التي حثتني بقوة في هذا الكتاب، كما في الكتب العديدة الأخرى، على أن أكتب بأفضل ما يمكنني.



1

أمّي ومعنى الحياة

الغسق. ربما كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة. أشكال وهيئات شريرة حول سريري: أجهزة مراقبة القلب، أسطوانات أكسجين، أكياس تغذية في الوريد، أنابيب بلاستيكية - أحشاء الموت. أغمضتُ جفنيَّ، وانزلقت في العتمة.

ثم قفزت من سريري، وغادرت غرفة المستشفى، لأجد نفسي في منتزه غلين إيكو للألعاب تغمره أشعة الشمس التي أمضيت فيه، في العقود الماضية، الكثير من أيام الأحد في فصل الصيف. تناهت إليَّ أصوات موسيقى الأراجيح ودوَّامة الخيل، وهبّت عليَّ رائحة الفشار المطلي بالكراميل الدبق والتفاح. اندفعت مباشرة، بدون تردد، إلى مقصورة » الدب القطبي كاسترد المجمّد» أو الرولر كوستر التي تعلو وتهبط، أو العجلة الدوارة (القلّابة) - ووقفت أمام شباك التذاكر لمقصورة «بيت الرعب». وبعد أن دفعت ثمن التذكرة، انتظرت حتى دارت العربة التالية حول الزاوية وتوقفت أمامي. بعد أن صعدت وجلست في العربة، وسحبتُ قضيب الأمان، ألقيت حولي نظرة أخيرة - رأيتها واقفة هناك، في وسط جمهرة من الناس الواقفين.

لوّحت لها بكلتا ذراعيَّ وصحت بصوت عالٍ سمعه جميع الواقفين، «ماما، ماما». في تلك اللحظة، ارتجّت العربة واندفعت إلى الأمام، وصفقت الأبواب المزدوجة التي فُتحت على مصراعيها لتكشف عن فجوة سوداء فاغرة فمها. ملتُ إلى الخلف بقدر ما أستطيع، وقبل أن يبتلعني الظلام، ناديت مرة أخرى: «ماما، ماما، ماذا يجب أن أفعل؟ ماذا أفعل؟»

حتى عندما رفعت رأسي عن الوسادة، وحاولت أن أنفض الحلم من رأسي، تخثّرت الكلمات في حلقي: «ماما، ماذا يجب أن أفعل؟ ماذا أفعل؟»

لكن أمي تثوي على عمق ستة أقدام تحت الأرض. ميتة، باردة مثل صخرة متجمّدة منذ عشر سنوات ترقد في تابوت من خشب الصنوبر في مقبرة «أناكوستيا» خارج واشنطن العاصمة. ما الذي تبقّى منها؟ لا شيء سوى عظام، كما أظن. لا شك أن الميكروبات قد نهشت كل قطعة من لحم جسدها. لعل خيوطاً رفيعة من شعرها الأشيب ما تزال هناك - ربما بعض الخطوط اللامعة من الغضاريف ما تزال ملتصقة بنهايات العظام الأكبر حجماً، عظم الفخذ والساق. ونعم، الخاتم. لا بد أن خاتم الزواج الفضي المزركش الرفيع الرخيص الذي كان أبي قد اشتراه لها من شارع هستر بعد وصولهما بفترة قصيرة إلى نيويورك من تلك القرية الروسية الصغيرة التي تبعد مسافة نصف العالم، يقبع في مكان ما بين تراب العظام.

نعم، ماتت أمّي منذ زمن بعيد. عشر سنوات. تعفّنت وتفسّخت، ولم يبق منها شيء سوى شعر وغضاريف وعظام، وخاتم زواج فضي مزركش، وما تزال صورتها ماثلة في ذكرياتي وأحلامي لا تبارحني أبداً.

لماذا ألوّح لأمّي في حلمي؟ لم أعد ألوّح لها منذ سنوات. كم سنة؟ ربما منذ عدة عقود. ربما حدث ذلك في عصر ذلك اليوم منذ أكثر من نصف قرن، عندما كنت في الثامنة من عمري عندما أخذتني إلى «سيلفان»، دار السينما التي تقيع في الحيّ الذي نسكن فيه، عند ناصية الشارع بالقرب من دكان أبي. ومع أنه كانت في الصالة مقاعد شاغرة كثيرة، فقد أصرّت أمّي على أن تجلس بجانب أحد الفتيان الزعران في الحيّ الذي يكبرني بسنة واحدة، مع أنه قال لها: «هذا المقعد محجوز يا سيدتي».

فردّت أمّي عليه بازدراء، وقالت: «نعم، نعم، محجوز»، وجلست، وأضافت بصوت سمعه الجميع: «إنه يحجز المقاعد، هذا الصبي المتعجرف».

حاولتُ أن أغوص وأختفي في حشيّة المقعد المخملية الحمراء الداكنة. ثم، في عتمة الصالة، استجمعت شجاعتي، والتفتُّ إلى الوراء ببطء. كان جالساً هناك بعد عدة صفوف في الخلف بجانب صديقه. لا بد أنهما كانا يحدّقان بي ويشيران إليّ، ثم هزّ أحدهما قبضته، وقال: «سنرى فيما بعد».

لقد أفسدت أمّي متعتي في الذهاب إلى سينما سيلفان التي أصبحت الآن أرضاً معادية. أصبحت خارج الحدود التي يمكنني أن أتجاوزها، على الأقل، أثناء النهار. وإذا أردت أن أتابع المسلسل الذي يُعرض كل يوم سبت - باك روجرز، الوطواط، الدبور الأخضر، الشبح - فقد أصبحت أذهب إلى السينما بعد أن يبدأ العرض، وأجلس عندما تُطفأ الأنوار، في أقرب مقعد لباب الخروج، وأغادر قبل أن تُضاء أنوار الصالة مرة أخرى. لم يكن هناك شيء في الحيّ الذي أعيش فيه أهم من أن أتجنب الكارثة الكبرى وهي أن تُضرب ضرباً مبرحاً، وأن تتلقى لكمة - ليس من الصعب تخيّلها: لكمة على الذقن، هذا كل شيء، أو أن تُضرب أو تُصفع أو تُركل، أو تُجرح - نفس الشيء. لكن أن تُضرب ضرباً مبرحاً - يا إلهي. أين ينتهي بك الأمر؟ ما الذي يبقى منك؟ إذ تصبح خارج اللعبة، وتلتصق بك طوال عمرك وصمة «أنك ضُربت ضرباً مبرحاً».

ألوّح بيدي لأمّي؟ لماذا ألوّح لها الآن مع أنني عشتُ معها، سنة بعد سنة، في حالة عداء دائم؟ فقد كانت امرأة مغرورة، مسيطرة، طفيلية، مرتابة، حقودة، معتّدة برأيها، وجاهلة إلى درجة كبيرة (لكنها ذكية - حتى لو لم يكن بإمكاني رؤية ذلك). لا أذكر أبداً، ولا مرة واحدة، أنني شاركتها لحظة دافئة واحدة، ولم أفتخر بها قط، ولم أشعر بالسعادة لأنها أمّي. فلسانها ينفث سمّاً وكلّ كلمة تقولها عن الآخرين مليئة بالغلّ والحقد - ماعدا أبي وأختي.

كنت أحبّ عمتي هانا، أخت أبي: حلاوتها، رقتها، دفئها الدائم، والنقانق المشوية الملفوفة في شرائح بولونيا المقرمشة التي تصنعها، وفطائرها التي لا تضاهى (ضاعت وصفتها إلى الأبد، لأن ابنها رفض أن يرسلها لي - لكن هذه قصة أخرى). والأهم من كل ذلك، كنت أحبّ عمتي هانا، خصوصاً، أيام الأحد. ففي ذلك اليوم، تغلق محل البقالية التي تملكه، القريب من ساحة نايفي في واشنطن العاصمة، وتضع لي ألعاباً على آلة الكرة والدبابيس وتدعني ألعب فيها عدة ساعات. ولم تعترض قط لأنني كنت أضع حشوات صغيرة من الورق تحت الأرجل الأمامية للآلة حتى تهبط الكرات ببطء وأفوز. كان حبي لعمتي هانا يُفقد صواب أمّي فتهاجم شقيقة زوجها بحقد وغلّ شديدين. كانت أمّي تعيّر عمتي هانا وتقول إنها فقيرة وكسولة لا تحبّ أن تعمل في متجرها، وأن زوجها أحمق يعوزها الكبرياء، وتقبل كل شيء جاهز ورخيص على الفور.

كان كلام أمّي بغيضاً، تتكلّم الإنكليزية بنبرة ثقيلة تتخللها عبارات وكلمات من اللغة الإيدشية. لم تحضر قط اليوم المخصص لاجتماع أولياء الطلاب أو اجتماعات رابطة الآباء والمعلمين في مدرستي. وأحمد الله على ذلك، لأنني كنت أنكمش خوفاً من فكرة أن يعرف أصدقائي أنها أمّي. وكنت أتشاجر معها وأتحدّاها، وأصرخ في وجهها، وأتحاشاها، وخلال فترة مراهقتي، لم أعد أكلّمها.

كان أكبر لغز في طفولتي هو كيف كان أبي يتحمّلها؟

أتذكّر اللحظات الرائعة عندما كنّا نلعب الشطرنج أنا وأبي صباح أيام الأحد، وكان يدندن ويترنم بسعادة وهو يستمع إلى أسطوانات الموسيقى الروسية أو اليهودية، يتمايل رأسه يمنة ويسرة مع اللحن، لكن سرعان ما يتشظّى هواء الصباح ويتناثر بصوت أمّي الحاد وهي تصرخ من الطابق العلوي: «جيفالت,جيفالت، كفى .فاي إز مير، كفى موسيقى، كفى ضوضاء». ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة، ينهض أبي ويوقف الفونوغراف، ثم نعود نلعب الشطرنج بصمت. كم مرة صلّيت في نفسي وقلت: أرجوك يا أبي، أرجوك، هذه المرة فقط، اضربها الضربة القاضية.

إذاً، لماذا ألوّح لها؟ ولماذا أسألها، وقد أصبحت في نهاية حياتي، «ماما، ماذا أفعل؟» هل يمكن ذلك - وكانت الإمكانية تذهلني - فقد أمضيت حياتي كلّها مع هذه المرأة البائسة على أنها جمهوري الوحيد؟ بذلت كل ما في وسعي طوال حياتي لأن أهرب وأبتعد عن ماضيَّ - عن تلك القرية اليهودية الصغيرة، وأرخص مكان على ظهر السفينة، والغيتو، والتاليت والتراتيل، وعن قماش الغبردين الأسود، ومتجر البقالة. كنت أسعى طوال حياتي لأن أتحرر وأنمو. هل هذا يعني أنني لم أتمكن من الخلاص من ماضيَّ ولا من أمّي؟

كم كنت أحسد أصدقائي الذين لديهم أمهات جميلات، كريمات، داعمات. وكم كان غريباً أنهم لم يلتصقوا كثيراً بأمهاتهم، ولم يكونوا يتصلون بهن بالهاتف، ولا يزورونهن

كثيراً، ولا يحلمون بهن، وحتى لم يكونوا يفكّرون بهن كثيراً. أما أنا فقد كان عليَّ أن أطهّر عقلي من أمّي مرات عديدة كلّ يوم، وحتى الآن، بعد مضي عشر سنوات على وفاتها، أمدّ يدي لا شعورياً إلى جهاز الهاتف لأتصلّ بها.

يمكنني أن أفهم كلّ ذلك من الناحية الفكرية. فقد ألقيتُ محاضرات عديدة حول هذه الظاهرة، وشرحتُ لمرضاي أن الأطفال الذين تعرّضوا للقسوة يجدون في غالب الأحيان صعوبة في أن ينفصلوا عن أسرهم المفككة، أما الأبناء الذين تلقوا محبة كبيرة ومعاملة جيدة من أبويهم، فإنهم يبتعدون عن والديهم بسهولة أكبر، ويشعرون بصراع أقل بكثير. في جميع الأحوال، أليست هذه هي مهمة الوالد الجيد، أن يمكّن أطفاله من مغادرة البيت بسلام؟

إني أتفّهم ذلك جيداً، لكنه لا يروقني كثيراً. فأنا لا أحبّ أن تزورني أمّي كل يوم، وأكره أنها حشرت نفسها في ثنايا عقلي حتى لم أعد أستطيع أن أتخلّص منها. والأهم من كلّ ذلك، فإنني أكره أن أشعر في نهاية حياتي بأن عليَّ أن أسألها: «ماما، ماذا يجب أن أفعل؟»

أتذكّر الكرسي المحشو كثيراً في دار المسنين في واشنطن العاصمة الذي يسدّ جزءاً من مدخل شقتها، تحيط به طاولات مكدّسة بنسخة واحدة على الأقل، وأحياناً أكثر من نسخة من جميع الكتب التي كتبتها. أكوام من أكثر من اثني عشر كتاباً بالإضافة إلى أكثر من عشرين كتاباً مترجماً إلى

لغات أجنبية، تتأرجح بشكل خطير. وفي كثير من الأحيان، أتخيّل أن كلّ ما يتطلبه الأمر هزّة أرضية قوية لتدفنها حتى أنفها تحت كتب ابنها الوحيد.

كنت كلما زرتها، وجدتها جالسة في هذا الكرسي وقد وضعت في حضنها كتابين أو ثلاثة كتب من كتبي. تزنها بيدها، وتشمّها وتداعبها بأصابعها - تفعل كلّ ذلك لكنها لا تقرأها لأنها فقدت بصرها. لكن حتى قبل أن تفقد بصرها، لم يكن بوسعها أن تقرأها وتفهمها: فقد انحصر كلّ تعليمها باللغة الإنكليزية على دروس الحصول على الجنسية الأمريكية.

أنا كاتب، ولا تستطيع أمّي أن تقرأ. وعلى الرغم من ذلك، فإني ألجأ إليها لكي أعرف ما معنى العمل الذي أنجزته في حياتي. كيف يمكن أن يُقاس؟ برائحة كتبي، بثقلها؟ بتصميم الغلاف، بملمس غلافها الناعم؟ لكنها لم تكن تعرف كلّ ذلك البحث المضني، ومصادر الإلهام، والبحث الدقيق الذي كنت أجريه لأجد الفكرة الصحيحة، والجملة الأنيقة المراوغة.

معنى الحياة؟ معنى حياتي. أن تحتوي الكتب المكدّسة التي تتأرجح فوق طاولة أمّي على إجابات منمقة عن هذه الأسئلة. كتبتُ: «إننا مخلوقات تبحث عن معنى، وعلينا أن نواجه المصاعب التي أُلقينا في أتونها في كون يخلو جوهره من أي معنى». ومن أجل تجنب العدمية، شرحت أننا يجب أن نشرع في عمل مزدوج. الأول، أن نستنبط أو نكتشف

مشروعاً ذا معنى للحياة متيناً يجعلنا نعيش هذه الحياة. ثم، يجب أن نحاول أن ننسى عملنا الذي ابتكرناه ونقنع أنفسنا بأننا لم نخترع مشروع معنى الحياة، وإنما اكتشفناه - وأن له وجوداً مستقلاً «هناك».

ومع أنني أتظاهر بقبول حلّ جميع الأشخاص من دون أن أطلق عليهم أحكاماً، فإني أقسّمهم سراً إلى طبقات وفئات من نحاس وفضة وذهب. إذ توجّه بعض الأشخاص طوال حياتهم رؤية انتصار انتقامي، بينما يلوذ البعض إلى اليأس، لا يحلمون إلّا بالسلام والاستقلال والتحرر من الألم، ويكرّس البعض الآخر حياتهم لتحقيق النجاح والرخاء والقوة والحقيقة، ويبحث آخرون عن السمو الذاتي ويشغلون أنفسهم في قضية أو في كائن آخر - محبوب أو جوهر إلهي، ويجد آخرون معنى وجودهم في حياة من الخدمة، أو في تحقيق ذواتهم، أو في تعبير إبداعي.

يقول نيتشة: نحتاج إلى الفن لكي لا تهلكنا الحقيقة. لذلك، فإني أعتبر أن الإبداع هو المسار الذهبي الذي حوّل حياتي كلّها، وكلّ تجاربي، وكلّ تصوراتي، إلى كومة من السماد الذي يشتعل في داخلي والذي أحاول أن أصمم منه، بين الحين والآخر، شيئاً جديداً وجميلاً.

لكن حلمي يقول لي غير ذلك، فهو يؤكد على أنني كرست حياتي لتحقيق هدف آخر تماماً، وهو أن أحظى بموافقة أمّي التي ماتت منذ سنوات.

ينطوي هذا الحلم الاتهامي على قوة: قوة كبيرة يصعب تجاهلها، قوة مزعجة جداً لا يمكن نسيانها. لكن الأحلام، كما تعلّمت، ليست غامضة أو مليئة بالألغاز، وليست ثابتة لا تتغير. في معظم أيام حياتي، كنت أعرف كيف أتعامل مع الأحلام، وتعلّمت كيف أروّض أحلامي وأفككها ثم أعيدها وأجمعها معاً. تعلّمت كيف أستخرج أسرار الأحلام.

وهكذا تركتُ رأسي يسقط على وسادتي، وغفوت، أعيد شريط الحلم إلى تلك العربة في «بيت الرعب».

توقفت العربة برجّة قوية جعلتني أرتطم بحاجز الحماية. وبعد لحظة، سارت في الاتجاه المعاكس، وتراجعت ببطء عبر الأبواب التي فُتحت وخرجتُ مرة أخرى إلى ضوء شمس منتزه غلين إيكو.

«ماما، ماما»، رحت أناديها وألوّح لها بكلتا ذراعيَّ، «ماذا يجب أن أفعل؟»

سمعتني. رأيتها تشّق طريقها بين جمع الناس، تدفعهم يميناً ويساراً. «أويفين، يا له من سؤال»، قالت وفتحت حاجز الحماية وساعدتني على الخروج من العربة.

نظرت إليها. كانت تبدو في الخمسين أو الستين من عمرها، قوية وممتلئة الجسم، تحمل بسهولة حقيبة تسوّق منتفخة، مطرزة لها مقبض خشبي. إنها بشعة لكنها لا تعرف ذلك، وتمشي وهي ترفع ذقنها كما لو كانت جميلة. لاحظت طيات اللحم المألوفة التي تتدلّى من أعلى ذراعها، وجوربها

المجمّع والمعقود فوق ركبتيها. قبلّتني قبلة كبيرة ندية. متظاهرة بأنها تحبني.

«لقد أبليتَ بلاء حسناً. من يستطيع أن يطلب أكثر من ذلك؟ كل هذه الكتب. جعلتني فخورة بك. كم أتمنى لو كان أبوك هنا ليراها».

«ماذا تقصدين أنني أبليتُ بلاء حسناً يا أمّي؟ كيف عرفتِ ذلك وأنت تستطيعين قراءة أي شيء مما كتبته؟ - أقصد بصرك».

«أعرف ما أعرفه. انظر إلى هذه الكتب»، وفتحتْ حقيبة التسوّق وأخرجتْ كتابين من كتبي، وبدأت تلمسهما وتداعبهما برقة، وأضافت، «كتب كبيرة. كتب جميلة».

انزعجتُ من تعاملها مع كتبي بهذه الطريقة، وقلت: «إن ما يوجد في هذه الكتب هو المهم. ربما تحتوي على هراء فقط».

«أويفين، لا تقل ناريشكيت - أشياء سخيفة. إنها كتب جميلة».

«ماما، إنك تحملين حقيبة الكتب هذه طوال الوقت، حتى في منتزه غلين إيكو؟ إنك تصنعين منها ضريحاً. ألا تظنين...»

«جميع الناس يعرفون من أنت. العالم كلّه يعرفك. قالت لي مصفّفة شعري إن ابنتها تدرس كتبك في الجامعة».

«مصفّفة شعرك؟ هكذا إذاً، الاختبار النهائي؟»

«الجميع. أقول للجميع. لماذا لا أقول لهم؟»

«ماما، ألا يوجد لديك شيء أفضل تفعلينه؟ لماذا لا تمضين يوم الأحد مع صديقاتك: هانا، غيرتي، لوبا، دوروثي، سام، أخوك سيمون؟ ماذا تفعلين هنا في منتزه غلين إيكو؟»

«إنك تخجل من وجودي هنا؟ كنتَ تخجل مني دائماً. أين يجب أن أكون؟»

«أقصد إننا كبرنا كلانا. فقد تجاوزت ستين سنة من عمري. ربما حان الوقت لأن تكون لكلّ واحد منا أحلامه».

«إنك تخجل مني دائماً».

«لم أقل ذلك. إنك لا تصغين إلى ما أقوله».

«كنتَ تفكّر دائماً أنني غبية. تظن دائماً إنني لا أفهم شيئاً».

«لم أقل ذلك. كنت أقول دائماً إنك لا تعرفين كلّ شيء. الطريقة التي أنتِ... الطريقة التي أنتِ..»

«الطريقة التي أنا ماذا؟ قلّ. لقد بدأتَ - قلها - أعرف ما الذي ستقوله».

«ما الذي سأقوله؟»

«لا يا أويفين، قلها أنت. لأنني إذا قلتها لك، فإنك ستغيّر ما سأقوله».

«الطريقة التي لا تنصتين فيها إليَّ. الطريقة التي تتحدثين فيها عن أشياء لا تعرفين عنها شيئاً».

«أنصتُ لك؟ أنا لا أنصتُ لك؟ قل لي يا أويفين، هل تنصت أنت لي؟ هل تعرف عني شيئاً؟»

«أنتِ محقّة يا أمي. لم يكن أحدنا ينصت للآخر».

«ليس أنا يا أويفين. كنت أنصتُ جيداً. كنت أنصتُ إلى الصمت كلّ ليلة عندما أعود إلى البيت من المتجر ولم تكن تبالي بأن تغادر غرفتك وتصعد إلى الطابق العلوي. حتى أنك لم تكن تقول لي مرحباً، ولم تكن تسألني إن كان اليوم الذي أمضيته شاقاً. كيف يمكنني أن أنصت إليك وأنت لا تكلّمني؟»

«كان هناك شيء يوقفني. كان هناك جدار بيننا».

«جدار؟ جميل أن تقول ذلك لأمك. جدار. أنا التي أقمت هذا الجدار؟»

«لم أقل ذلك. قلت فقط إنه كان هناك جدار. أعرف أنني كنت أبتعد عنك. لماذا؟ كيف يمكنني أن أتذكّر؟ كان ذلك منذ خمسين سنة يا أمّي، لكن كلّ ما كنتِ تقولينه لي كان، كما كنت أشعر، نوعاً من التوبيخ».

«ماذا؟»

«أقصد الانتقاد. كان عليَّ أن أبتعد عن انتقاداتك. في تلك السنوات كنت أمرّ في أوضاع سيئة، ولم أكن بحاجة إلى سماع مزيد من الانتقاد».

«ما هي تلك الأوضاع السيئة؟ طوال تلك السنوات - كنا نعمل أنا وأبوك في المتجر لكي تدرس حتى منتصف الليل. وكم مرة تلفنت لي لأحضر لك شيئاً معي؟ أقلام رصاص أو أوراق. هل تتذكّر آل؟ الذي كان يعمل في متجر بيع الخمور، الذي جُرح وجهه أثناء عملية سرقة؟»

«طبعاً أتذكّر آل يا أمّي. الندبة التي كانت تمتد حتى أسفل مقدمة أنفه».

«حسناً، كان آل يجيب على الهاتف ويصيح دائماً عبر المتجر المزدحم: «إنه الملك. الملك يتصل. دعي الملك يذهب ويشتري أقلام الرصاص بنفسه. بإمكان الملك أن يتحرك قليلاً. كان آل يغار منك لأن والديه لم يعطيانه شيئاً. لم أهتم بما كان يقوله قط. لكنه كان على صواب. فقد كنت أعاملك مثل ملك. ففي أي وقت كنت تتصل، في الليل أم في النهار، كنت أترك أباك وحده في المحل الذي كان يعج بالزبائن، وأركض إلى مخزن «فايف آند دايم» الذي يملكه مينش. كنتَ تحتاج أيضاً إلى طوابع ودفاتر وحبر. ثم أقلام حبر. كانت ثيابك كلها ملطخة بالحبر. مثل ملك. لم أكن أنتقدك».

ماما، إننا نتحدّث الآن، وهذا شيء جيد. دعينا لا يتّهم أحدنا الآخر. دعينا نفهم. دعينا نقول فقط إنك كنت تنتقدينني بشدة. أعرف أنك كنت تقولين أشياء جيدة عني للآخرين، تتباهين بي. لكنك لم تقولي لي ذلك في وجهي قط».

«لم يكن التكلّم معك سهلاً في ذلك الوقت يا أويفين. ليس معي فقط، وإنما مع الجميع. كنت تعرف كل شيء. تقرأ كل شيء. ربما كان الآخرون يخافون منك قليلاً. وربما أنا أيضاً. من يعرف؟ لكن دعني أقول لك شيئاً يا أويفين، شيئاً أعرفه أكثر منك. أولاً، لم تقل عني شيئاً لطيفاً قط. كنتُ أعتني بالبيت. أعدّ لك الطعام. عشرون سنة وأنت تتناول الطعام الذي أعدّه. أعرف أنك كنت تحبّه كثيراً. كيف عرفت ذلك؟ لأنك كنت تأكل ولا تترك شيئاً في الصحون والقدور دائماً. لكنك لم تقل لي ذلك قط طوال حياتك: ولا مرة واحدة في حياتك. هه؟ مرة واحدة في حياتك؟»

خجلاً، لم يكن بوسعي إلّا أن أحني رأسي.

«ثانياً، أعرف أنك لم تقل شيئاً لطيفاً وراء ظهري - على الأقل، كنت تعرف يا أويفين، أنني كنت أتباهى وأتفاخر بك أمام الآخرين من وراء ظهرك، لكنّي كنت أعرف أنك كنت تخجل مني. تخجل مني - أمامي ووراء ظهري. تخجل من لغتي الإنكليزية، من لكنتي، من كل شيء لا أعرفه، ومن الأشياء التي كنتُ ألفظها خطأً. كنت أسمع كيف كنت تسخر مني أنت وأصدقاؤك - جولي وشيلي وجيري. كنت أسمع كل شيء. هه؟»

أحنيتُ رأسي أكثر، وقلت: «لم يكن يفوتكِ شيء يا أمّي».

«كيف يمكنني أن أعرف ماذا يوجد في كتبك؟ لو

أتيحت لي الفرصة، لو تمكنت من الذهاب إلى المدرسة، ماذا كان بإمكاني أن أفعله برأسي، في حقيبتي المدرسية. ففي قريتي الصغيرة في روسيا، لم يكن بإمكاني أن أذهب إلى المدرسة - لأنها كانت مخصصة للصبية فقط».

«أعرف يا أمّي، أعرف. أعرف أنك كنتِ ستفعلين كما فعلت أنا في المدرسة لو أتيحت لك الفرصة».

«عندما نزلتُ من القارب مع أمي وأبي، لم أكن قد تجاوزت العشرين من عمري. كان عليَّ أن أعمل في مصنع خياطة لمدة ستة أيام في الأسبوع، اثنتا عشرة ساعة في اليوم، من الساعة السابعة صباحاً حتى السابعة مساءً، وأحياناً حتى الثامنة. وقبل ساعتين من بدء عملي، في الساعة الخامسة صباحاً، كان عليَّ أن أوصل أبي إلى كشك الصحف بالقرب من محطة مترو الأنفاق، وأساعده في فكّ رزم الصحف. لم يساعده إخوتي قط. فقد كان سايمون يذهب إلى مدرسة المحاسبة، ويقود هايمي سيارة أجرة - لم يعد إلى البيت قط، ولم يرسل نقوداً طوال حياته. ثم تزوجت أباك وانتقلنا إلى واشنطن، وحتى تقدمت في السن، ظللت أعمل معه جنباً إلى جنب في الدكان كل يوم لمدة اثنتي عشرة ساعة، بالإضافة إلى تنظيف البيت والطهي. ثم أنجبتُ جين التي لم تسبب لي مشكلة لدقيقة واحدة، ثم أنجبتك. لم تكن سهلاً، ومع ذلك لم أتوقف عن العمل قط. كنت تراني. إنك تعرف ذلك. كنت تسمعني وأنا أصعد وأهبط الدرج. هل أكذب؟»

«أعرف يا أمي».

«وطوال تلك السنوات، طوال حياتهما، كنت أدعم بوبا وزيدا. لم يكن لديهما شيء - سوى البنسات القليلة التي كان أبي يجمعها من كشك الصحف، ثم فتحنا له متجراً لبيع الحلوى، لكنه لم يستطع أن يعمل - لأنه كان على الرجال أن يصلّوا. هل تتذكّر زيدا؟»

أومأتُ برأسي، وقلت: «ذكريات باهتة يا أمي». لابد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري... بناية سكنية تفوح منها رائحة كريهة في حيّ البرونكس... يرمون فتات الخبز وكرات من القصدير من الطابق الخامس إلى الدجاج في الفناء الخلفي... وكان جدّي، يرتدي ثياباً سوداء طوال الوقت، قبّعة (يرملك) طويلة سوداء، لحية بيضاء شعثاء تتناثر عليها بقع من الصلصة، وقد ربط ذراعيه وجبينه بحبال سوداء، يدمدم صلوات وأدعية. لم يكن بوسعنا أن نتحدث معاً - لأنه لم يكن يتكلم إلّا اللغة اليديشية - لكنه كان يقرصني من خدي بقوة. وكان الجميع - بوبا وزيدا والعمة لينا - يعملن، يركضن صعوداً وهبوطاً على الدرج طوال اليوم، من البيت إلى الدكان، يفرغن البضائع ويصففنها على الرفوف، ويطهين، وينتفن ريش الدجاج، وينزعن قشور السمك، وينفضن الغبار. أما زيدا فلم يكن يحرك ساكناً. كان يجلس ويقرأ كأنه ملك.

وتابعت أمي قائلة: «كنت أستقلّ القطار كلّ شهر إلى

نيويورك لأجلب لهم الطعام والنقود، وعندما دخلت بوبا دار رعاية المسنين، كنت أدفع رسوم إقامتها وأزورها كلّ أسبوعين - هل تذكر عندما كنت آخذك معي بالقطار في بعض الأحيان. من كان يساعد في الأسرة؟ لا أحد. كان عمك سيمون يأتي كلّ بضعة أشهر، ويجلب لها زجاجة «سِفن أب»، وفي زيارتي التالية كان كلّ ما أسمعه منها زجاجة السفن أب الرائعة التي جلبها خالك سيمون. حتى عندما فقدت بصرها، كانت تستلقي وبيدها زجاجة «السِفن أب» الفارغة. لم أكن أساعد بوبا فقط، وإنما ساعدتُ كلّ أفراد الأسرة الآخرين - إخوتي سيمون وهايمي، وأختي لينا، والعمة هانا، وعمك آبي، القرن الأخضر، الذي أحضرته من روسيا - كنت أُعيل الجميع، الأسرة كلها، من دكان البقالة الصغير الوسخ (*schmutzig*). لم يساعدني أحد، ولم يشكرني أحد قط».

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وقلتُ لها: «شكراً يا أمي. أشكرك على كل شيء».

لم يكن ذلك صعباً. لماذا استغرق ذلك مني خمسين سنة؟ أمسكت ذراعها، ربما لأول مرة. الجزء اللحمي فوق مرفقها. كان ناعماً ودافئاً مثل عجينة حلوى كيتشل الدافئة قبل أن تُخبز مباشرة، وقلت: «أتذكّر أنك كنت تحكين لي ولجين عن زجاجة السفن أب التي كان خالي سيمون يجلبها. لا بد أن ذلك كان شيئاً صعباً».

«صعباً؟ تقول لي. كانت تشرب أحياناً السفن أب التي يجلبها لها مع قطعة حلوى الكيتشل التي أجلبها لها - تعرف كم يستغرق صنع حلوى الكيتشل - وكان كلّ ما تتحدّث عنه هو زجاجة السِفن أب».

«ماما، من الجيد أن نتحدّث. هذه أول مرة نتحدّث فيها. ربما كنت أريد أن أتحدّث إليك دائماً، لذلك، فإنك لا تبرحين تفكيري وأحلامي. لعل الأمر سيكون مختلفاً الآن».

«كيف؟»

«حسناً، أن أكون أنا ذاتي أكثر - أن أعيش من أجل الأهداف والقضايا التي أحبّها».

«تريد أن تتخلّص مني؟»

«لا، ليس بهذه الطريقة، ليس بطريقة سيئة. أريد نفس الشيء لك أيضاً. أريد أن ترتاحي».

«أرتاح؟ هل رأيتني أرتاح يوماً؟ كان أبوك يأخذ قيلولة كل يوم. هل رأيتني آخذ قيلولة في حياتك؟»

«إن ما أقصده هو أن يكون لك هدفك في الحياة - وليس هذه»، قلت لها وأشرت إلى حقيبة التسوق التي تضعها في حضنها، «لا أن تكون كتبي هي هدفك، وأن يكون لي هدفي في الحياة أنا أيضاً».

فأجابتني، وقد نقلت حقيبة التسوق إلى يدها الأخرى

بعيداً عني، وقالت: «لكنني قلت لك قبل الآن، هذه ليست كتبك وحدك، إنها كتبي أيضاً».

عندما شعرت أن ذراعها التي كنت ما أزال أمسكها أصبحت باردة فجأة، تركتها. ومضت تقول: «ماذا تقصد. تقصد أنه يجب أن يكون لي هدفي أنا؟ هذه الكتب هي هدفي. لقد عملت من أجلك ومن أجلها. عملتُ طوال حياتي من أجل هذه الكتب - كتبي»، ومدّت يدها إلى الحقيبة وأخرجت كتابين آخرين. خشيت أن ترفعهما وتريهما للناس الذين تحلّقوا حولنا الآن.

«لكنك لم تفهمي قصدي يا أمي. يجب أن ينفصل أحدنا عن الآخر - ألّا يقيّد أحدنا الآخر. هذا ما أقصده: أن يكون المرء منفرداً. هذا ما أكتب عنه دائماً في هذه الكتب. هكذا أريد أن يكون أبنائي - جميع الأبناء - بلا قيود».

«تقصد أن يكونوا بلا ريش؟»

«لا، لا، أقصد أن يكون المرء بلا قيود - أي أن يكون حراً أو أن يتحرر من القيود. ربما لم أستطع أن أوصل لك الفكرة يا أمي، ربما يمكنني أن أوصلها لك بطريقة أخرى. دعيني أصيغها على هذا النحو: أن يكون كلّ شخص في العالم منفرداً. أعرف إنه أمر عسير، لكن هكذا ينبغي أن يكون الأمر، ويجب أن نواجه ذلك. أريد أن تكون لديَّ أفكاري الخاصة بي، وأحلامي الخاصة بي، ويجب أن تكون

لديك أفكارك وأحلامك الخاصة بك أيضاً. ماما، أريدك أن تخرجي من أحلامي».

عندما تجهّم وجهها، وابتعدت عني، سارعتُ وأضفت، «لا لأنني لا أحبك، وإنما لأنني أريد الأشياء الجيدة لنا جميعاً - لي ولك أيضاً. يجب أن تكون لديك أحلامك في الحياة. لا بد أنك تستطيعين أن تفهمي ذلك».

«أويفين، ما تزال تظن أنني لا أفهم شيئاً، وأنك تفهم كل شيء. لكنّي أنظر أنا أيضاً إلى الحياة. وإلى الموت. أنا أفهم الموت - أكثر مما تفهمه أنت. ثق بي. وأنا أفهم أن أكون منفردة - أكثر مما تفهمه أنت».

«لكنك لا تواجهين ذلك وحدك يا أمي. فلا تزالين ترافقينني. لا تتركينني وحدي أبداً. لا تزالين تخطرين في بالي، في أحلامي».

«لا، يا بني».

«يا بني». لم أسمع هذه الكلمة منذ خمسين سنة، نسيت أنها كانت تقولها لي كثيراً هي وأبي.

ومضت تقول: «ليس كما تفكّر يا بني. هناك أشياء لا تفهمها، أشياء قلبتها رأساً على عقب. إنك تذكر ذلك الحلم، الحلم الذي كنت تراني فيه وأنا واقفة في وسط حشد من الناس، أنظر إليك وأنت في تلك العربة تلوّح لي بيدك، تناديني وتسألني ماذا يجب أن تفعل في الحياة؟»

«نعم، طبعاً أتذكّر حلمي يا أمّي. فمن ذلك المكان بدأ كلّ هذا».

«حلمك؟ هذا ما أريد أن أقوله لك. هذا هو خطأك يا أويفين - أنك تظن إنني كنت في حلمك. لم يكن ذلك الحلم حلمك يا بني. وإنما حلمي أنا. فللأمهات أحلامهن أيضاً».

2

رحلات مع باولا

عندما كنت طالباً في كلية الطب، تعلّمت الفن الجميل المتمثّل في النظر والإنصات واللمس. كنت أنظر إلى الحلوق القرمزية، وطبلات الأذن المتورمة، والجداول الشريانية الملتّفة في شبكية العين؛ وأنصت إلى دمدمة النفخات التاجية، وقرقرة الأمعاء، وأصوات الجهاز التنفسي المتنافرة؛ وأتحسس حواف الطحال والكبد الزلقة، وانشداد أكياس المبيض، والصلابة الرخامية لسرطان البروستاتا.

أدرس أشياء عن المرضى وأحصل على معلومات منهم - نعم، هذه هي مهمة كلية الطب. أما التعلّم من المرضى - جاء هذا الجانب من تعليمي العالي في وقت لاحق - ربما بدأ مع أستاذي جون وايتهورن الذي كان يردد غالباً: «أنصت إلى مرضاك، ودعهم يعلمونك. فلكي تصبح حكيماً، يجب أن تظل طالباً». كان يعني أكثر بكثير من الحقيقة المعروفة بأن الطبيب الذي يستمع جيداً، يتعلّم أكثر عن المريض. كان يقصد حرفياً أننا يجب أن ندع مرضانا يعلموننا.

كان جون وايتهورن، شخصاً رسمياً، لطيفاً، مجاملاً،

يحفّ رأسه اللامع هلال من الشعر الرمادي، رئيساً متميزاً لقسم الطب النفسي في جامعة جونز هوبكنز طوال ثلاثين عاماً، يضع نظارات ذات إطار ذهبي، لا توجد لديه قسمات زائدة - فلا توجد في وجهه تجعيدة واحدة، أو في البدلة البنية اللون التي يرتديها طوال أيام السنة (لا بد أن لديه بدلتين أو ثلاث بدلات متطابقة)، ولا يقول تعابير زائدة لا حاجة لها: فعندما يلقي محاضرته، تتحرك شفتاه، أما الأشياء الأخرى - اليدان والخدان والحاجبان - فتظل ثابتة لا تتحرك.

خلال السنة الثالثة من دراستي كطبيب مقيم في قسم الطب النفسي، كنت أُجري أنا وخمسة من زملائي في الفصل جولات على المرضى مع الدكتور وايتهورن بعد ظهر كل يوم خميس. وقبل بدء الجولة، كنا نتناول طعام الغداء في مكتبه الذي تكسوه ألواح من خشب البلوط. كان الطعام بسيطاً لا يتغيّر - سندويشات تونة ولحوم باردة وكعكة سلطعون تشيزابيك باي باردة، تليها سلطة فواكه وفطيرة جوز مسطحة - لكنها كانت تقدَّم بأناقة جنوبية: مفرش من الكتان، وصوانٍ فضية براقة، وأدوات مائدة خزفية. وكان الحديث الذي يدور على الغداء طويلاً وممتعاً. ومع أنه كان علينا جميعاً أن نعود لزيارة المرضى، لم يكن بإمكاننا أن نحث الدكتور وايتهورن ونستعجله. فخلال هاتين الساعتين، كانت تتاح لنا الفرصة لنطرح على أستاذنا أسئلة عن أي شيء: أذكر أنني سألته ذات مرة عن أشياء مثل نشأة البارانويا

(الذُهان الكِبريائي)، وعن مسؤولية الطبيب تجاه الانتحار، وعدم التوافق بين التغيير العلاجي والحتمية. ومع أنه كان يجيب إجابات كاملة، فقد كان من الواضح أنه يفضّل أن نتحدّث عن موضوعات أخرى مثل، دقة رماة الأقواس الفرس، وجودة الرخام اليوناني مقارنة بالرخام الإسباني، والأخطاء الفادحة التي ارتكبت في معركة غيتيسبيرغ، والجدول الدوري الذي أُدخلت عليه تحسينات (فقد درس في الأصل الكيمياء).

بعد الغداء، يبدأ الدكتور وايتهورن إجراء مقابلات في مكتبه مع أربعة أو خمسة مرضى ونراقبه بصمت. لم يكن من الممكن توقع الفترة التي تدوم فيها كلّ مقابلة مع المرضى، فقد يستمر بعضها خمس عشرة دقيقة، لكن العديد منها يستمر ساعتين أو ثلاث ساعات. أذكر بوضوح أشهر الصيف، المكتب البارد، المعتم، المظلات المخططة ذات اللون البرتقالي والأخضر التي تحجب أشعة شمس بالتيمور الحادة، وقد التفّت نباتات ماغنوليا متسلقة حول أعمدة المظلات وتتدلى أزهارها الصوفية الناعمة خارج النافذة. ومن النافذة التي في زاوية المكتب، كنت أرى حافة ملعب التنس المخصص للهيئة التدريسية. كم كنت أتوق لأن ألعب في ذلك الملعب في تلك الأيام، أحلم بالكرات وهي تتطاير بينما الظلال تستطيل في الملعب. وعندما يبتلع الغروب آخر خيوط أشعة الشمس، أتخلّى عن تلك الأحلام والآمال وأعود أوجّه انتباهي إلى ملاحظات الدكتور وايتهورن.

كانت وتيرة الدكتور وايتهورن بطيئة. كان لديه متسع من الوقت. ولم يكن يهتم بشيء أكثر من مهنة المريض وحرفته. ففي أسبوع، تراه يشجع مزارعاً من جنوب أميركا على أن يتحدّث لمدة ساعة كاملة عن أشجار البن؛ وفي الأسبوع التالي، قد يكون المريض أستاذ تاريخ يناقشه عن أسباب هزيمة الأسطول الإسباني. قد تظن أن هدفه الأول أن يفهم العلاقة بين الارتفاع عن سطح الأرض ونوعية حبة البن، أو الدوافع السياسية وراء هزيمة الأسطول الإسباني في القرن السادس عشر. كان ينتقل بمهارة للتحدث عن مجالات شخصية أكثر حتى أنني كنت أفاجأ دائماً عندما يبدأ مريض مستريب، مصاب بالبارانويا، يتحدّث فجأة وبصراحة تامة عن نفسه وعن عالمه الذهاني.

عندما يدع المريض يعلّمه، يصبح الدكتور وايتهورن على صلة وثيقة بشخصية مريضه، لا بمرضه. كان أسلوبه هذا يعزز دائماً احترام المريض لذاته، واستعداده للبوح والكشف عن ذاته.

قد يقول قائل إنه معالج ماكر، لكنه لم يكن كذلك. فلم تكن هناك ازدواجية لأن الدكتور وايتهورن كان يريد حقاً أن يتعلّم. كان جامعاً للمعلومات، وتمكّن بهذه الطريقة أن يجمع طوال تلك السنوات كنزاً مذهلاً من المعلومات الواقعية. وكان يقول دائماً: «أنت تربح ومرضاك يربحون إذا تركتهم يطلعونك على حياتهم واهتماماتهم، إذا تعرّفت على حياتهم، فإنك لن تثقّف نفسك فقط، وإنما ستتعلّم في النهاية كل ما تحتاج إلى معرفته عن مرضهم».

بعد خمسة عشر عاماً، في أوائل سبعينيات القرن العشرين، توفي الدكتور وايتهورن، وأصبحتُ أستاذ الطب النفسي، دخلت حياتي امرأة اسمها باولا مصابة بسرطان ثدي متقدّم لأواصل عملية تعليمي. ومع أنني لم أكن أعرف ذلك حينذاك، ومع أنها لم تقرّ بذلك قط، أعتقد أنها أخذت على عاتقها منذ البداية، عملية تعليمي.

اتصلت باولا لتحدّد موعداً بعد أن سمعت من إخصائي اجتماعي في عيادة الأورام أنني أسعى إلى إنشاء مجموعة علاج جماعي لمرضى مصابين بمرض عضال. وعندما دخلت إلى مكتبي لأول مرة، فُتنتُ بمظهرها على الفور: كبرياؤها، ابتسامتها المشرقة، شعرها الأبيض القصير، وشيء لا يمكنني إلّا أن أسميه بريق كما لو أنه ينبعث من عينيها الحكيمتين الزرقاوين بكثافة.

لفتت انتباهي من كلماتها الأولى. قالت: «اسمي باولا ويست، مصابة بسرطان عضال، لكنني لست مريضة سرطان». وبالفعل، في رحلاتي معها لسنوات عديدة، لم أعتبر أنها مريضة قط. ووصفت تاريخها الطبي بدقة واقتضاب: سرطان ثدي كُشف منذ خمس سنوات. استئصال جراحي لذلك الثدي، ثم إصابتها بالسرطان في الثدي الآخر، وقد استؤصل ذلك الثدي أيضاً، ثم جاء دور العلاج الكيميائي ببطانته المروعة المألوفة: غثيان، وقيء، وفقدان الشعر بالكامل. ثم العلاج الإشعاعي، الحد الأقصى المسموح به، لكن لم يتمكن شيء من إبطاء انتشار السرطان في جمجمتها وعمودها

الفقري وحول عينيها. كان سرطان باولا يحتاج إلى أن يتغذّى، ومع أن الجراحين ألقوا له قرابين يتغذّى عليها - ثدييها، والغدد الليمفاوية، والمبيضين، والغدد الكظرية - فقد ظلّ شرهاً لا يشبع.

عندما تخيّلت جسد باولا عارياً، رأيت صدراً تتقاطع فيه الندوب، بدون ثديين أو لحم أو عضلة، مثل ألواح خشبية لسفينة غارقة محطمة، يقبع تحت صدرها، بطن مثخن بالندوب من كثرة العمليات الجراحية، يدعم كلّ ذلك ردفان ازدادا امتلاء من الهرمونات المنشطة. باختصار، امرأة في الخامسة والخمسين من عمرها بدون ثديين، وغدة كظرية، ومبايض، ورحم، وأنا متأكد، من الرغبة الجنسية.

كنت استمتع دائماً برؤية نسوة ذوات أجساد مكتنزة ورشيقة، وأثداء ممتلئة، وشهوانية. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتابني شعور غريب عندما رأيت باولا لأول مرة: رأيتها جميلة وأُغرمت بها.

بقينا نلتقي كلّ أسبوع لعدة أشهر في ترتيب تعاقدي غير منتظم. «علاج نفسي»، قد يقول أحد المراقبين، لأنني سجلت اسمها في دفتر مواعيدي العلاجية، وكانت تجلس على كرسي المريض لمدة خمسين دقيقة. إلّا أن أدوارنا لم تكن واضحة دائماً. فلم تُثر مثلاً مسألة الأجر قط، ومنذ البداية، كنت أعرف أن هذا ليس عقداً مهنياً عادياً، وكنت أجد نفسي متردداً في ذكر موضوع النقود في وجودها - لأن

ذلك سيكون شيئاً مبتذلاً. لم أذكر النقود فقط، وإنما الأمور الأخرى كالشهوانية، أو التكيف الزواجي، أو العلاقات الاجتماعية.

الحياة، الموت، الروحانية، السلام، السُمُوّ: كانت تلك الموضوعات التي كنا نناقشها والتي كانت اهتمامات باولا الوحيدة. وغالباً ما كنا نتحدّث عن الموت. كنا نلتقي كلّ أسبوع، نحن الأربعة، لا الاثنان، في مكتبي - أنا وباولا وموتها وموتي، وأصبحت محظية الموت لديَّ: فقد عرّفتني عليه، وعلمتني كيف أفكر فيه، وحتى كيف أقيم صداقة معه. وبدأت أفهم أن للموت تأثيراً ضاغطاً سيئاً. ومع أنه كان من الممكن إيجاد شيء من البهجة فيه، لم يكن الموت شراً وحشياً يجرّنا إلى مكان فظيع لا يمكن تصوره. وتعلّمت أن أزيل الوهم عن الموت، وأجرّده من الأسطورة، وبدأت أراه على حقيقته - حدثٌ، جزءٌ من الحياة، نهاية احتمالات أخرى - وكانت باولا تقول: «إنه حدث محايد، تعلّمنا أن نلوّنه بالخوف».

كانت باولا تأتي إلى مكتبي كل أسبوع، ترتسم على محياها الابتسامة العريضة التي أعشقها، وتمدّ يدها إلى داخل حقيبتها الكبيرة المصنوعة من القش، وتأخذ دفتر يومياتها وتضعه على حجرها، وتشاطرني أفكارها وأحلامها في الأسبوع الماضي. كنت أنصت لها باهتمام شديد، وأحاول أن أجيبها على النحو الملائم. وكلما أبديت شكوكي حول ما إذا كنت أفيدها وأساعدها، كانت تبدو مرتبكة،

وبعد لحظة صمت، تبتسم كما لو أنها تريد أن تطمئنني، وتعود إلى دفتر ملاحظاتها.

استعرضنا معاً مواجهتها الكاملة مع السرطان: الصدمة الأولى وعدم التصديق، تشويه جسدها، قبولها التدريجي، اعتيادها على قول: «أنا مصابة بالسرطان». ووصفت رعاية زوجها المحبّة ورعاية الأصدقاء المقربين لها. واستطعت أن أفهم بسهولة أن من الصعب ألّا تحبَّ باولا. (بالطبع لم أصرّح لها عن إعجابي بها إلّا بعد فترة طويلة، في وقت لم تصدّقني).

ثم وصفت لي الأيام الفظيعة عندما أصيبت مرة أخرى بالسرطان. قالت إن تلك المرحلة هي الجُلجُلة في حياتها، وأن محطات الصليب هي التجارب التي مرّ عبرها جميع المرضى الذين يعانون من عودة المرض: غرف العلاج بالأشعة، مقل العيون المعدنية المعلقة في الأعلى، والفنيين المحايدين، والأصدقاء القلقين، والأطباء المتعجرفين، والأهم من كل ذلك، صمت السرّية الذي يصمّ الآذان في كل مكان. بكت عندما حكت لي عندما اتصل بها طبيبها الجراح، صديق لها منذ عشرين عاماً، وأبلغتها ممرضته أنه لن تكون هناك مواعيد أخرى لها لأنه لم يعد لدى الطبيب ما يقدّمه لها. «ماذا جرى للأطباء؟ لماذا لا يفهمون أهمية الوجود؟ » سألتني، «لماذا لا يفهمون أنهم عندما لا يعود لديهم شيء يقدّمونه للمريض هي اللحظة التي يكون فيها المريض في أمسّ الحاجة إليهم؟»

تعلّمت من باولا أن الرعب الذي ينتاب المرء عندما يعرف أنه مصاب بمرض مميت يزداد كثيراً بسبب ابتعاد الآخرين عنه. إذ تتفاقم عزلة المريض نتيجة أداء الآخرين الأحمق الذين يحاولون إخفاء اقتراب الموت، لكن الموت لا يمكن إخفاؤه لأن مظاهره واضحة للعيان: إذ تتحدث الممرضات بهمس، ويوجّه الأطباء الذين يتفقدون مرضاهم انتباههم غالباً إلى الأجزاء الخطأ في جسم المريض، ويدخل طلاب الطب على رؤوس أصابعهم إلى غرفة المستشفى، ويبتسم أفراد الأسرة بشجاعة، ويحاول الزائرون أن يبدو أنهم مبتهجون. أخبرتني مريضة مصابة بالسرطان ذات مرة أنها تعرف أن الموت قريب عندما يبدأ طبيبها الذي كان ينهي فحصه لها بتَربِيتَة مازحة على ظهرها، يُنهي فحصه لها بأن يصافحها.

يخشى المرء العزلة التامة أكثر مما يخشى الموت نفسه. إننا نحاول أن نعيش الحياة مع شخص آخر، لكن كلّ واحد منا سيموت وحده - لا يستطيع أحد أن يموت موتنا معنا، أو بالنيابة عنا. إن محاولة درء الموت من قبل الأحياء يشي بالهجران النهائي التام. وعلّمتني باولا أن عزلة الشخص المحتضر تتم بطريقتين: إذ يبتعد المريض عن الأحياء لأنه لا يريد أن يجرّ أسرته أو أصدقاءه إلى الرعب الذي يتملكه من خلال الكشف عن مخاوفها أو أفكارها المروّعة؛ ويبتعد الأصدقاء لأنهم يشعرون بالعجز والحرج، ولا يعرفون ما الذي يجب أن يقولوه أو يفعلوه، ولا يرغبون في الاقتراب كثيراً من المريض لكي لا يروا مشهداً أولياً لموتهم هم.

لكن عزلة باولا وصلت إلى ذروتها الآن. وعلى الرغم من أن الآخرين تخلّوا عن باولا، فقد قررت أنني لم ولن أتخلّى عنها. كانت سعيدة جداً لأنها وجدتني. كيف كان بإمكاني أن أعرف حينذاك أنه سيأتي وقت تعتبرني قدّيسها الذي لن يتخلّى عنها.

لم تجد الكلمات المناسبة لتصف مرارة عزلتها، وهي الفترة التي تشير إليها غالباً باسم «الحديقة الجثسيمانية». وفي أحد الأيام، أحضرت لي لوحة رسمتها ابنتها تصوّر فيها عدة أشخاص يرجمون قديسة، امرأة وحيدة ضئيلة الجسم جاثية، لا تستطيع ذراعاها الضعيفتين أن تحميها من وابل الأحجار التي تنهال عليها. لا تزال اللوحة معلّقة في مكتبي، وكلما رأيتها تذكّرت باولا وهي تقول: «أنا هي تلك المرأة، عاجزة عن صدّ أي هجوم عليَّ».

كان القس الأسقفي البروتستانتي هو الشخص الذي ساعدها على إيجاد طريقها للخروج من الحديقة الجثسيمانية، والذي كان يعرف جيداً عبارة نيتشه في كتابه نقيض المسيح، «من يوجد لديه سبب يعيش من أجله، يستطيع أن يتحمّل أي شيء»، وقد عبّر القسّ عن معاناتها عندما قال لها: «إن السرطان الذي أصابك هو رسالتك المقدّسة. ألمك هو رسالتك المقدّسة».

هذه العبارة - هذه «الإضاءة الإلهية» كما سمتّها باولا - غيّرت كلّ شيء. فعندما وصفت قبولها لرسالتها المقدّسة

وتفانيها لتخفيف معاناة الأشخاص المبتلين بالسرطان، بدأتُ أفهم الدور الذي عُهد إليّ: فهي لم تكن مشروعي، وإنما أنا كنت مشروعها، هدف رسالتها المقدسة. كان بإمكاني أن أساعد باولا، لكن ليس من خلال دعمها، أو التفسير لها، أو حتى الاهتمام بها. كان دوري يتمثّل في أن أدعها تعلّمني.

هل يمكن لشخص أيامه معدودة، يعشعش السرطان في جسده أن يعيش «فترة ذهبية» من حياته؟ لقد فعلت باولا ذلك. فهي التي علّمتني أن اعتناق الموت بصدق يمكّن المرء من أن يعيش الحياة بطريقة أكثر ثراءً وإرضاءً. كنت مرتاباً بذلك. كنت أظن أن حديثها عن «الفترة الذهبية» أمر مُبالغ فيه، غُلُوّ روحي نموذجي. «ذهبية؟ حقاً؟ هيا يا باولا، كيف يمكن أن يكون هناك شيء ذهبي يتعلق بالموت؟»

«إيرف»، قالت باولا توبخني، «هذا هو السؤال الخطأ! حاول أن تفهم أن الشيء الذهبي ليس الموت وإنما العيش حياة كاملة في مواجهة الموت. تذكّر الأشياء الحزينة والأشياء القيّمة والثمينة في الماضي: الربيع الماضي، وآخر طيران لزغب نبات الهندباء، وآخر تساقط لأزهار الوستاريا الحلوة».

قالت باولا: «إن الفترة الذهبية هي أيضاً فترة تحرر عظيم - الفترة التي تتيح لك الحرية لتقول لا لجميع الالتزامات التافهة، لتكرّس نفسك بالكامل لكلّ ما كنت تحبّه وتهتم به - وجود الأصدقاء، تغيّر الفصول، هدير أمواج

البحر». وكانت تنتقد بشدة إليزابيث كوبلر روس، كاهنة الموت العليا في الطب التي لم تتمكن من التعرّف على المرحلة الذهبية، واستنبطت منهجاً سريرياً سلبياً. فلم تتمكن «مراحل» احتضار كوبلر روس: الغضب، الإنكار، المساومة، الاكتئاب، القبول - من إثارة غضب باولا التي أصرّت، وأنا متيقن من أنها على صواب، على أن هذا التصنيف الصارم للاستجابات العاطفية يؤدي إلى تجريد المريض والطبيب من إنسانيتهما».

كانت الفترة الذهبية بالنسبة لباولا فترة استكشاف شخصية مكثّفة: فقد كانت تحلم بأنها تتجول في قاعات رحبة وتكتشف في منزلها غرفاً جديدة لم تُستخدم. وكانت فترة تحضير: فقد كانت تحلم بأنها تنظّف منزلها من القبو حتى العِلِّيّة، وتعيد ترتيب وتنظيم الأدراج والخزائن. كانت تهيئ زوجها بكل كفاءة وحبّ. وكانت تمر أوقات مثلاً، تشعر فيها أن لديها قوة كافية لتذهب وتتسوّق وتطهو الطعام، لكنها لم تكن تفعل ذلك عمداً حتى تدرّبه ليصبح قادراً على القيام بذلك بنفسه والاعتماد على نفسه. وقالت لي ذات يوم إنها فخورة جداً به لأنه أشار لأول مرة إلى تقاعدي «أنا» لا إلى تقاعدنا «نحن». في تلك الأوقات، كنت أجلس وأنظر إليها بعينين واسعتين غير مصدق ما تسمعه أذني. هل هي صادقة؟ هل توجد حقاً هذه الفضيلة خارج عالم ديكنز في بيغوتي، وليتل دوريت، وتوم بينش، وبوفينز؟ نادراً ما تُناقش نصوص دراسات علم النفس صفات الشخصية «الخيّرة» إلّا بوصفها

بأنها دفاع لمواجهة الدوافع الأكثر ظلمة. في البداية شككت في دوافعها وهي تسبر بعمق بشكل خفي بقدر الإمكان، العيوب والثغرات الكامنة في واجهة القداسة. عندما لم أجد شيئاً، خلصتُ في النهاية إلى أنه لم تكن هناك واجهة، وتخلّيت عن بحثي، وتركت نفسي أستمتع بنعمة باولا.

تعتقد باولا أن الاستعداد للموت شيء حيوي ويتطلب اهتماماً واضحاً. وعندما عرفت أن سرطانها قد انتشر إلى عمودها الفقري، أعدّت باولا ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً لموتها وكتبت له رسالة أبكتني. وفي فقرتها الأخيرة ذكّرته بأن رئتيّ الجنين البشري لا تتنفّسان، وعيناه لا تريان. لذلك، يجري تهيئة الجنين لوجود لم يكن بإمكانه أن يتخيّله. واقترحت باولا على ابنها: «ألسنا نحن أيضا، مهيئين لوجود خارج نطاق عقلنا، يتجاوز حتى أحلامنا؟»

طالما كانت المعتقدات الدينية تثير حيرتي ودهشتي. فمنذ أن تسعفني ذاكرتي، كنت أرى أن من البديهي أن النظم الدينية تتطور لتمنح الراحة وتهدّئ من مخاوف وقلق حالتنا البشرية. في أحد الأيام، عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري أعمل في محل بقالة أبي، حدّثت جندياً عاد لتوه من الجبهة الأوروبية في الحرب العالمية الثانية عن شكوكي حول وجود الله، ورداً على ذلك أعطاني صورة مجعّدة وباهتة للسيدة العذراء ويسوع المسيح كان يحملها معه طوال فترة احتلال النورماندي، وقال: «اقلبها واقرأ المكتوب على الجانب الآخر من الصورة. اقرأها بصوت عال».

قرأتُ: «لا يوجد ملحدون في الخنادق».

«صحيح! لا يوجد ملحدون في الخنادق»، كرر ذلك ببطء وهو يهزّ إصبعه عند كلّ كلمة. «إله مسيحي، إله يهودي، إله صيني، أي إله آخر - لكن أي إله، بحق الله، لا يمكنك الاستغناء عنه».

أُخذت كثيراً بتلك الصورة المجعّدة التي أعطاني إياها شخص غريب لا أعرفه، نجت من المعارك في نورماندي ومن يدري من كم معركة أخرى. قلت لنفسي ربما كانت فألاً حسناً. ربما وجدتني العناية الإلهية أخيرًا. حملت هذه الصورة في محفظتي لمدة سنتين، وكنت أُخرجها من حين لآخر وأتأملها. وفي أحد الأيام، سألت: «إذاً؟ ماذا لو كان صحيحاً أنه لا يوجد ملحدون في الخنادق؟ وإذا كان من شيء، فإن ذلك يدعم موقف المتشككين: بالطبع يزداد الإيمان عندما يكون الخوف كبيراً. هنا تكمن فكرة أن الخوف يوّلد الإيمان. إننا نحتاج إلى إله ونريده، لكن التمنّي لا يجعله كذلك. إن الإيمان، مهما كان شديداً، ومهما كان نقياً، ومهما كان مستنزفاً لطاقتنا، فإنه لا يقول شيئاً البتة عن حقيقة وجود الله. وفي اليوم التالي، عندما كنت في إحدى المكتبات، أخرجتُ الصورة من محفظتي - وكنت حريصاً عليها لأنها تستحق الاحترام - ودسستها بين صفحات كتاب عنوانه «راحة البال والطمأنينة»، حيث يمكن أن تجدها بين صفحاته روح مضطربة أخرى، وتستفيد منها أكثر مني.

ومع أن فكرة الموت كانت تملؤني بالخوف والرهبة منذ

زمن بعيد، فقد بدأت أفضّل الخوف الصرف على معتقد تكمن جاذبيته الرئيسية في سخافته الشديدة. فقد كنت أكره دائماً الكلام الحصين، «أظن لأنه سخيف». لكن بصفتي معالجاً نفسانياً، فإنني أحتفظ بهذه المشاعر لنفسي: لأنني أعرف أن الإيمان الديني مصدر قوي للراحة النفسية، ولا يمكنني أن أعبث بمعتقد ما إذا لم يكن لديَّ بديل أفضل.

قلما اضطرب إيماني باللا أدريّة. أوه، ربما مرات قليلة عندما كنت في المدرسة أثناء فترة صلاة الصبح، كنت أشعر بالغثيان عندما أرى جميع المعلمين وزملائي الطلاب، رؤوسهم محنيّة، يهمسون للأب الأعلى الموجود فوق السحب. وكنت أتساءل: هل فَقَد الجميع صوابهم، إلّا أنا؟ وكانت تظهر في الصحف صور فرانكلين ديلانو روزفلت المحبوب وهو يلقي موعظة في الكنيسة كلّ يوم أحد - لقد منحتني تلك الصور فرصة للتوقف وقلت في نفسي لابد أن آخذ معتقدات فرانكلين روزفلت على محمل الجد.

لكن ماذا عن آراء باولا؟ ماذا عن رسالتها إلى ابنها، عن إيمانها بهدف ينتظرنا لا يمكننا أن نتوقعه؟ كان فرويد سيُسعد كثيراً بالاستعارة التي استخدمتها باولا - وكنت أتفق معه دائماً من الناحية الدينية. فقد كان سيقول: «أمنيات، نقية وبسيطة». «إننا نتمنى أن نكون، إننا نخشى العدم، ونبتكر حكايات خرافية ممتعة تتحقق فيها جميع أمنياتنا. ينتظرنا هدف مجهول: الروح التي لا تفنى، السماء، الخلود، الله، الحياة من جديد - كلّها أوهام، كلّها أشياء من أجل قطع مرارة الفناء».

كانت باولا تستجيب دائماً برفق إلى شكوكي وتذكّرني برقة بأنه مع أنني أرى أن معتقداتها غير معقولة لا يمكن تصديقها، فلا يمكن دحضها وإنكارها. وعلى الرغم من شكوكي، كنت أحبّ الاستعارات التي تستخدمها باولا وأنصت إلى مواعظها بتسامح أكبر بكثير من أي موعظة سمعتها من أحد. ربما كانت مجرد مقايضة، أبادل ركناً صغيراً من شكوكي بلمسة دافئة مليئة بنعمة باولا. كنت أسمع نفسي أحياناً أردد عبارات صغيرة مثل: «من يعرف؟» «أين يكمن اليقين؟» «هل يمكننا أن نعرف حقاً؟» كنت أحسد ابنها. هل أدرك كم كان مباركاً؟ كم كنتُ أتوق لأن أكون ابن أم كهذه.

في ذلك الوقت تقريباً، حضرت صلاة جنازة والدة أحد أصدقائي حكى القس في موعظته قصة عزاء. فوصف مجموعة من الأشخاص واقفين على شاطئ يلوّحون بحزن يودّعون سفينة بدأت تبحر بعيداً، وتضاءل حجم السفينة حتى لم يعد يظهر منها إلّا طرف الصاري. وعندما اختفى الصاري أيضاً، همهم الواقفون وقالوا: «لقد ذهبت». وكانت في تلك اللحظة بالذات، وفي مكان بعيد، مجموعة أخرى من الأشخاص يمسحون بأعينهم أفقهم ورأوا طرف الصاري يظهر هناك، وصاحوا، «لقد وصلت».

«حكاية سخيفة»، ربما كنت أقول في الأيام قبل أن أعرف باولا. أما الآن، فقد بدأت أشعر بتعاطف أكبر. وعندما نظرت حولي إلى المعزّين الآخرين، شعرت لوهلة

أنني معهم، يربطنا الوهم معاً، ينظر كل واحد فينا بسعادة إلى صورة السفينة وهي تقترب من شواطئ حياة جديدة.

قبل باولا، لم يكن يوجد أحد أسرع مني في السخرية من المشاهد الطبيعية المتقشّرة في كاليفورنيا. كان أفق العصر الجديد يستمر إلى الأبد: أوراق التاروت، أي تشينغ، التدليك، التناسخ، الصوفية، الإرشاد والهداية، التنجيم، علم الأرقام، الوخز بالإبر، السينتولوجيا، علاج رولف الجماعي، التحكم بالتنفس، علاج الحياة الماضية. كنت أقول لنفسي إن البشر بحاجة إلى هذه المعتقدات المثيرة للشفقة منذ زمن بعيد. فهي تلبي لهم شوقاً عميقاً، وبعض الأشخاص أضعف من أن يقفوا بمفردهم. دعهم يستمعون إلى حكاياتهم الخيالية، الأطفال المساكين. أما الآن فقد أصبحت أعرب عن آرائي بلطف أكثر، وبدأت تأتي إلى شفتيَّ عبارات أكثر ليونة ولطفاً: «من يستطيع أن يعرف؟» و «ربما» و «الحياة معقدة لا يمكن معرفة كنهها».

بعد أن مضى على لقائي بباولا عدة أسابيع، بدأنا نضع خططاً ملموسة لتشكيل مجموعة من المرضى المحتضرين. فقد أصبحت هذه المجموعات حالياً شائعة وبدأ النقاش يدور حولها في المجلات وفي قنوات التلفزة كثيراً، لكن في عام 1973، لم تكن هناك سابقة: فقد كان يُمنع الحديث عن الموت مثل الحديث عن المواد الإباحية. لذلك كان علينا أن نرتجل كلّ خطوة على الطريق. كانت البداية عقبة كأداء. كيف يمكننا أن نبدأ مجموعة كهذه؟ كيف يمكننا أن نجمع أعضاء

المجموعة؟ من خلال إعلان في الصحف يقول: «مطلوب أشخاص يحتضرون؟»

لكن شبكة باولا المكونة من كنيستها وعيادات المستشفيات ومنظمات الرعاية المنزلية بدأت تجلب أعضاء محتملين للمجموعة. فقد أحالت وحدة غسيل الكلى في مستشفى ستانفورد أول شخص اسمه جيم في التاسعة عشرة من عمره، مصاب بمرض كلوي حاد. ومع أنه كان يعرف أن فترة حياته قصيرة، لم يبد اهتماماً كبيراً لتحسين معرفته بالموت. كان جيم يتحاشى النظر في عينيّ باولا أو في عينيَّ مباشرة، وكان يتجنب كذلك أي شكل من أشكال التواصل مع أي شخص آخر. وكان يقول: «أنا رجل لا مستقبل لي، فمن تريد أن أكون زوجاً أو صديقاً لها؟ لماذا أظلّ أواجه ألم الرفض؟ لقد تحدّثت بما يكفي، ورُفضتُ بما يكفي، وأشعر بأنني على ما يرام بدون أحد معي». رأيناه أنا وباولا مرتين فقط، ثم توقف عن الحضور في الجلسة الثالثة.

عرفنا أن جيم كان يتمتع بصحة جيدة، فقد وفر له غسيل الكلى أملاً كبيراً، وأجّل الموت طالما ترسخ في تفكيره الإنكار. لا، كنا بحاجة إلى الذين قدرهم محتوم، الذين يمضون فترة قصيرة بانتظار حكم الإعدام، الذين ليس لديهم أمل.

ثم جاء روب وسال. إلّا أنهما لم يستوفيا المؤهلات التي حددناها بدقة: فقد كان روب يرى أنه على وشك أن

يموت، وادّعى سال أنه تصالح مع مرضه ولم يعد بحاجة إلى مساعدتنا. عاش روب البالغ من العمر 27 عاماً ستة أشهر فقط من ورم خبيث في الدماغ. متأرجحاً بين الإنكار والقبول، كان يصرّ على القول: «سترونني بعد ستة أسابيع أجوب جبال الألب وحقيبتي على ظهري» (لا أظن أن روب المسكين قد سافر أبعد من شرق نيفادا طوال عمره)، ثم يلعن ساقيه المشلولتين لأنهما لا تمكنانه من الحصول على بوليصة تأمين على حياته: «يجب أن أعرف إن كانت المزايا والفوائد التي ستحصل عليها زوجتي وأولادي ستلغى إذا انتحرت».

ومع أننا كنا نعرف أن عدد المجموعة غير كاف، فقد بدأنا بأربعة أشخاص: باولا وسال وروب وأنا. وبما أن سال وباولا لم يكونا بحاجة إلى مساعدة، وأنا المعالج، أصبح روب سبب وجود المجموعة. لكن روب كان يرفض بعناد أن يمنحنا رضاء كثيراً، وحاولنا أن نمنحه الراحة والتوجيه مع احترام خياره للأفكار، لكن دعم الإنكار لم يكن محاولة غير مرضية ومزدوجة، خصوصاً عندما كنا نريد مساعدته على أن يتقبّل موته ويستفيد بأقصى ما يمكنه خلال الأيام المتبقية في حياته. وبعد شهرين، ازداد صداع روب حدة، وفي إحدى الليالي، مات بهدوء وسكينة وهو نائم. لا أظن أننا قدّمنا له أشياء مفيدة.

أما سال فقد استقبل الموت بطريقة مختلفة تماماً. فقد توسعت روحه عندما شارفت حياته على نهايتها. لقد غمر

موته الوشيك حياته بمعنى لم يعرفه من قبل قط. ورم نخاعي (نقوي) متعدد، وهو سرطان ينتشر في أنحاء الجسم ويسبب ألماً شديداً في العظام. هذا هو المرض الذي أصاب سال، وكُسرت عدة عظام في جسمه، وقد ضُمِّد بالجص من رقبته حتى فخذه. وكان أناس كثيرون يحبون سال، وكان يصعب تصديق أنه كان في الثلاثين من عمره. ومثل باولا، كان في حالة يأس شديد، ويرى أن السرطان الذي ينهش جسده رسالته المقدّسة. وقد وجّه هذا الاعتقاد كلّ ما فعله بعد ذلك في حياته، حتى موافقته على الانضمام إلى المجموعة: فقد شعر أنها قد تتيح له منتدى لمساعدة آخرين على إيجاد معنى سام في مرضهم.

وعلى الرغم من أن سال انضم إلى مجموعتنا منذ ستة أشهر، عندما كانت ما تزال صغيرة جداً فإنها لم تمنحه الجمهور الكافي، فقد وجد أماكن أخرى - خصوصاً المدارس الثانوية حيث بدأ يخاطب المراهقين المضطربين. كان صوته يدوي في القاعة: «هل تريدون أن تفسدوا أجسادكم بالمخدرات؟ هل تريدون أن تقتلوها بشرب الخمر والحشيش والكوكايين؟»، «هل تريدون أن تحطموا أجسامكم بصدمها بالسيارات؟ تقتلوها؟ تلقون بها من فوق جسر البوابة الذهبية؟ إنكم لا تريدونها؟ حسناً، إذاً، أعطوني أجسادكم، امنحوني إياها، فأنا في حاجة إليها. سآخذها أنا - فأنا أريد أن أعيش».

كان نداء غير عادي. كان جسدي كله يرتعش عندما

أسمعه وهو يتكلم. وكانت تعزز قوة إيصال رسالته القوة الخاصة التي نمنحها دائماً لكلمات شخص يقترب من الموت. كان الطلاب يستمعون إليه بصمت، يشعرون، كما أشعر أنا، بأنه صادق في كلامه، وأن ليس لديه وقت للعبث أو التظاهر أو الخوف من العواقب.

أتاح وصول إيفلين إلى المجموعة بعد شهر فرصة أخرى لسال لكي يعمل على رسالته. كانت في الثانية والستين من عمرها، يعتريها شعور بالمرارة، درجة إصابتها بسرطان الدم شديدة، جاءت إيفلين إلى المجموعة على كرسي متحرك وقد عُلِّق لها كيس لنقل الدم. كانت صريحة جداً حول مرضها، وكانت تعلم أنها ستموت قريباً. قالت: «أستطيع أن أقبل ذلك لأن الأمر لم يعد يهمني. لكن كلّ ما يهمني هو ابنتي. فهي تسمّم آخر أيام حياتي»، وراحت تشتم ابنتها إيفلين الاختصاصية في علم النفس السريري، ونعتتها بأنها «امرأة تحب الانتقام لا تعرف الحب». وقد دار بينهما جدال مرير وأحمق منذ بضعة أشهر عندما قامت ابنتها بإطعام قطتها التي تعتني بها طعاماً غير مناسب، ولم تعود إحداهما تكلّم الأخرى منذ ذلك الحين.

بعد أن استمع سال إليها، قال لها ببساطة ومحبّة: «اسمعي إلى ما سأقوله يا إيفلين. أنا سأموت قريباً أيضاً. ماذا يهم ما الذي تأكله قطتك؟ ماذا يهم من يستسلم أولاً؟ إنك تعرفين أنه لم يعد أمامك أيام كثيرة. لنكّف عن التظاهر. إن حبّ ابنتك أهم شيء في العالم بالنسبة لك. لا تموتي،

أرجوك لا تموتي من دون أن تقولي لها ذلك! لأن ذلك سيسمّم حياتها، ولن تشفى بعد ذلك أبداً، وستنقل السمّ إلى ابنتها. اكسري الحلقة. اكسري هذه الدائرة يا إيفلين».

نجحت مناشدته لإيفلين التي ماتت بعد بضعة أيام، وقد أخبرتنا الممرضات في المستشفى أنها، تأثراً بكلمات سال، صالحت ابنتها وذرفتا دموعاً كثيرة. كنت فخوراً جداً بسال، وكان هذا أول انتصار حققته المجموعة.

ثم انضم إلى المجموعة مريضان آخران، وبعد عدة أشهر اقتنعت أنا وباولا بأننا تعلّمنا ما يكفي لكي نبدأ العمل مع أعداد أكبر من المرضى. وبدأت تجمع مرضى بحماسة وجدية. وسرعان ما أسفرت اتصالاتها مع جمعية السرطان الأمريكية عن انضمام أعداد أخرى. وبعد أن قبلنا سبع مريضات أخريات، جميعهن مصابات بسرطان الثدي، افتتحنا مجموعتنا للعمل رسمياً.

وفي أول اجتماع جماعي مكتمل، فاجأتني باولا عندما بدأت الجلسة بقراءة قصة قديمة من قصص اليهود الحسيديين بصوت عالٍ:

دار حديث بين حاخام وبين الربّ حول الجنة والنار. «سأريك جهنم»، قال الربّ وقاد الحاخام إلى غرفة فيها مائدة مستديرة كبيرة، كان الجالسون حولها جائعين وبائسين. وفي وسط المائدة يوجد قِدر ضخم من الحساء تفوح منه رائحة لذيذة حتى سال لعاب الحاخام. كان كل شخص حول

المائدة يحمل ملعقة ذات مقبض طويل جداً. ومع أن الملاعق الطويلة كانت تصل إلى القِدر، كانت مقابضها أطول من أذرع الأشخاص الذين سيتناولون الحساء: وبما أنه لم يتمكن أحد منهم من أن يرفع الطعام إلى شفتيه، لم يستطع أحد أن يأكل. فرأى الحاخام أن معاناتهم فظيعة.

ثم قال له الربّ: «سأريك الجنة الآن»، ودخلا غرفة أخرى، تشبه الغرفة الأولى تماماً، فيها نفس المائدة المستديرة الكبيرة، ونفس قِدر الحساء. وكانت لدى الأشخاص، كما في الغرفة السابقة، نفس الملاعق ذات المقابض الطويلة - أما هنا فكان الجميع في صحة جيدة، بدينين، يضحكون ويتحدثون. لم يستطع الحاخام أن يفهم. فقال له الربّ: «الأمر بسيط، لكنه يتطلب مهارة معينة»، وأضاف، «كما ترى، فقد تعلّم الأشخاص أن يُطعم أحدهم الآخر في هذه الغرفة».

مع أن قرار باولا المستقل ببدء الجلسة بقراءة هذه القصة أفقدني توازني، فقد تركت الأمر تمرّ. قلت في نفسي إن هذا هو أسلوبها، مع أننا لم نحدد دور كل واحد منا وتعاوننا في المجموعة بعد. وبالإضافة إلى أن أحكامها صائبة، ما تزال تشكّل هذه أكثر البدايات إلهاماً لأي مجموعة رأيتها في حياتي.

عندما سألتها ماذا سنسمي المجموعة؟ اقترحت باولا «مجموعة الجسر». لماذا؟ لسببين اثنين، الأول، لأن

المجموعة أقامت جسراً من مريض سرطان إلى مريض آخر، والثاني، لأنها مجموعة نضع فيها جميع أوراقنا على الطاولة، ومن هنا جاء اسم «مجموعة الجسر». لمسة ذكية من باولا.

ازداد عدد «قطيعنا»، كما أطلقت عليه باولا، بسرعة. فبدأت تظهر وجوه جديدة يكسوها الرعب كلّ أسبوع أو أسبوعين. كانت باولا تأخذ الأعضاء الجدد بيدها، تدعوهم إلى الغداء، وتعلّمهم، وتسحرهم، وتبث فيهم مشاعر روحانية. وعندما ازداد عدد المجموعة بعد فترة قصيرة اضطررنا إلى أن نقسمها إلى مجموعتين تتألف كل مجموعة من ثمانية أشخاص، ودعوت بعض الأطباء النفسيين المتدربين كقادة مشاركين. لكن جميع أعضاء المجموعة رفضوا هذا التقسيم، وقالوا إنه يهدد سلامة الأسرة، فاقترحتُ حلاً وسطاً وهو أن نلتقي كمجموعتين منفصلتين لمدة ساعة وربع الساعة، وفي الخمس عشرة دقيقة الأخيرة، نندمج معاً لكي تتمكن المجموعتان من نقل تفاصيل اجتماعات كل منهما إلى الأخرى.

كانت الاجتماعات قوية وتناولت، في رأيي، مسائل أكثر إيلاماً من أي مجموعة تجرأّتُ على مواجهتها قبل الآن. اجتماعاً إثر اجتماع، بدأ أعضاء جدد يأتون بأمراض جديدة ومآس جديدة، وكنا نجد في كل مرة طريقة لنقدّم وجوداً وراحة لكل شخص مصاب. وإذا كان الشخص ضعيفاً جداً، أو قريباً من الموت، فإننا نعقد أحياناً الجلسة في غرفة نوم ذلك الشخص.

لم يكن هناك موضوع يصعب على المجموعة مناقشته، وكانت باولا تؤدي دوراً هاماً في كل مناقشة نقدية تدور. فقد بدأ أحد الاجتماعات مثلاً، بأن بدأت إحدى العضوات تُدعى إيفا تتحدّث بأنها كانت تحسد صديقتها التي توفيت في ذلك الأسبوع فجأة وبشكل غير متوقع أثناء نومها بسكتة قلبية. قالت إيفا: «هذه أفضل طريقة للذهاب»، لكن باولا اختلفت مع إيفا وقالت إنها ترى أن الموت المفاجئ شيء مأساوي.

شعرت بالحرج لما قالته باولا، وتساءلت لماذا تقحم نفسها في مواقف سخيفة كهذه؟ من يمكنه أن يختلف مع رأي إيفا بأن الموت والشخص نائم وسيلة جيدة لمغادرة هذه الحياة؟ لكن بقوة إقناعها المعتادة، شرحت باولا بلباقة ودقة وجهة نظرها بأن الموت المفاجئ أسوأ أنواع الموت، وقالت: «إنك تحتاجين إلى وقت، إلى وقت كثير لكي يستعد الآخرون لموتك: زوجك، أصدقائك، والأهم من كل ذلك، أطفالك. يجب إتمام الأعمال الحياتية المتبقية التي لم تنته بعد. ومن المؤكد أن مشاريعك مهمة ويجب عدم الإلقاء بها هكذا. إنها تستحق أن تكتمل أو تُحلّ، وإلّا ما معنى حياتك؟

وخلصت إلى القول: «بالإضافة إلى ذلك، فإن الموت جزء من الحياة. أن تفقدها وأنت نائم، يعني أنك تفقد إحدى مغامرات الحياة العظيمة».

لكن كانت لإيفا ذات الحضور القوي الكلمة الأخيرة، فقالت: «قولي ما تشائين يا باولا، فأنا ما أزال أحسد صديقتي لأنها ماتت فجأة، فأنا أحبّ المفاجآت دائماً».

سرعان ما أصبحت المجموعة معروفة على نطاق واسع في جامعة ستانفورد. وبدأ الطلاب - الطلاب المقيمون في الطب النفسي، والممرضات، وطلاب كلية الطب الآخرون - يراقبون تلك الاجتماعات من وراء مرآة أحادية الاتجاه. في بعض الأحيان، كان الألم في المجموعة شديداً لا يمكن تحمله، فكان الطلاب يخرجون من غرفة المراقبة أعينهم مليئة بالدموع. لكنهم كانوا يعودون دائماً. ومع أن مجموعات العلاج النفسي كانت تسمح للطلاب في كثير من الأحيان مراقبتها، فقد كان السماح لحضورها يُمنح بصعوبة. لكن ليس هذه المجموعة: بل على العكس، فقد رحبّ أعضاؤها بهم، ومثل باولا، كان الأعضاء متحمسين جداً لحضور الطلاب لأنهم كانوا يشعرون بأن لديهم أشياء كثيرة يمكنهم أن يتعلّموها منهم، وأن حكم الإعدام الذي فرض عليهم جعلهم يتمتعون بالحكمة. فقد تعلّموا درساً هاماً وهو أنه لا يمكن تأجيل الحياة، ويجب أن تُعاش الآن، وألّا تؤجل حتى نهاية الأسبوع، أو حتى يحين موعد الإجازة، أو حتى يذهب الأبناء إلى الجامعة، أو الانتظار حتى سنوات التقاعد المتضائلة. فقد سمعت أكثر من مرة الرثاء، «للأسف كان عليَّ أن أنتظر حتى الآن، حتى عشش السرطان في جسدي، حتى أتعلّم كيف أعيش».

في ذلك الحين، كان كلّ همي أن أحقق نجاحاً في العالم الأكاديمي، وقد أدى جدول أبحاثي المحموم، وطلبات المنح، والمحاضرات، والتدريس، والكتابة إلى

تقييد تواصلي مع باولا. هل كنت أخشى أن اقترب منها كثيراً؟ لعل منظورها الكوني، وانفصالها عن الأهداف اليومية، يهدد أسس نجاحي في المجال الأكاديمي. بالطبع، دأبت على رؤيتها كل أسبوع في المجموعة التي كنت رئيسها الفخري وباولا - ماذا كانت؟ - لم تكن معالجة نفسية وإنما شيء آخر - منسّقة أو ميسّرة أو مسؤولة اتصال. فقد كانت تعرّف الأعضاء الجدد على المجموعة، وترحب بهم، وتشاركهم تجاربها الشخصية، وتتصل بجميع الأعضاء خلال الأسبوع بالهاتف، وتدعوهم لتناول الغداء في المطعم، ولا تتردد في مساعدة أي شخص في أزمة.

ربما كان لقب «مستشارة روحية» أفضل وصف للدور الذي تقوم به باولا. فهي تشدّ من أزر المجموعة وتزيدها عمقاً، وكانت كلما قالت شيئاً، أنصت إليها باهتمام: فقد كانت لدى باولا دائماً رؤى وآراء خلاقة غير متوقعة، وعلّمت أعضاء المجموعة ممارسة التأمل، والصلاة في أعماق أنفسهم، وإيجاد مركز يجعلهم يشعرون بالهدوء والطمأنينة، وسبل احتواء ألمهم. وفي أحد الأيام، عندما كان الاجتماع على وشك الانتهاء، فاجأتني عندما أخرجت شمعة من حقيبتها وأشعلتها ووضعتها على الأرض، وقالت: «لنقترب من أحدنا الآخر»، ومدّت كلتا يديها إلى الأعضاء الواقفين على جانبيها، وأضافت: «انظروا إلى الشمعة وتأملوا لبضع لحظات بصمت».

قبل أن ألتقي بباولا، كنت منغمساً تماماً في التقاليد

الطبية ولم تكن لديّ أي فكرة عن معالجة تنتهي بأن يمسك أعضاء المجموعة أيديهم ويحدّقون بصمت في شمعة. وبدا اقتراح باولا هذا مناسباً جداً للأعضاء ولي، وبدأنا نُنهي كل جلسة بهذه الطريقة. وبدأت أقدّر تلك اللحظات الختامية، وإذا صادف وكنت جالساً بجانب باولا، كنت أضغط على يدها بحرارة قبل أن أتركها. وكانت تقود جلسة التأمل بصوت عالٍ وبارتجال، وبكبرياء وكرامة عظيمتين. لقد أحببت جلسات التأمل التي كانت تقودها، وسأظل أسمع حتى آخر عمري كلماتها التي تقولها لنا بهدوء: «دع، دع الغضب، دع الألم، دع رثاء الذات. ادخل إلى أعماق نفسك، إلى أعماقك الهادئة المسالمة، وافتح نفسك للحبّ، والغفران، والله». أشياء مُسكِرة بالنسبة لخبير تجريبي متوتر، ذي تفكير حرّ، ومدرّب طبي.

كنت أتساءل أحياناً إن كانت لدى باولا احتياجات أخرى غير مساعدة الآخرين. ومع أنني كنت أسألها في أحيان كثيرة ما الذي يمكن أن تفعله المجموعة لها، لم تكن تجيبني، وكنت أتساءل أحياناً عن وتيرة عملها النشط - فقد كانت تزور عدة مرضى كلّ يوم. ما الذي يدفعها لأن تفعل ذلك؟ سألت نفسي، ولماذا تعرض مشاكلها بصيغة الماضي فقط؟ فهي تقدّم لنا حلولاً، ولم تعرض مشاكلها قط التي لا يوجد لها حل. لكنّي لم أكن أتساءل لفترة طويلة. فقد كانت باولا مصابة بسرطان نقيلي متقدّم، وعاشت سنيناً أكثر مما تتوقعه أكثر الإحصاءات تفاؤلاً. كانت مفعمة بالنشاط،

ومحبوبة جداً، ومحبّة جداً، ومصدر إلهام لكل من كان عليه أن يتعايش مع السرطان. ماذا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من ذلك؟

كانت تلك الفترة الذهبية لرحلاتي مع باولا. ربما كان عليَّ أن أترك الأشياء هناك. لكن في أحد الأيام، نظرتُ حولي ولاحظت كم كان البرنامج يزداد ضخامة - قادة المجموعات، وأعمال السكرتارية لتدوين محاضر المحادثات والاجتماعات، ومعلّمون يلتقون مع الطلاب المراقبين. قلت إن هذا العدد يحتاج إلى رأس مال، وبدأت أبحث عن تمويل لإجراء الأبحاث لكي تبقى المجموعة واقفة على قدميها. وبما أنني لم أشأ أن أعتبر نفسي أنني أعمل في مهنة الموت، لم أطلب رسوماً قط من أي مريض أو حتى أسأل عن تأمينه الصحي، وإنما كرست للمجموعة قدراً كبيراً من طاقتي ووقتي، وكان لديَّ التزام أخلاقي تجاه جامعة ستانفورد لقاء المرتب الذي تدفعه لي. وشعرت أيضاً بأن التدريب المهني السريري الذي أقدمه للمجموعات الرائدة لمرضى السرطان يشارف على نهايته، وقد حان الوقت لعمل شيء في هذا البرنامج، إجراء أبحاث على ذلك، وتقييم فعاليته، ونشر النتائج التي نتوصل إليها، لننشر الكلمة ونشجع برامج مماثلة في أماكن أخرى من البلاد على القيام بذلك. باختصار، حان الوقت للترويج له وتطويره.

ظهرت فرصة مواتية عندما أرسل المعهد الوطني للسرطان دعوة لتقديم طلبات لإجراء أبحاث على سرطان

الثدي السلوكي الاجتماعي. فتقدّمت بطلب للحصول على منحة تمكنني من تقييم فعالية المنهج العلاجي الذي اتبعته للمريضات المصابات بسرطان الثدي المميت، وقد حصلت عليها. كان مشروعاً بسيطاً ومباشراً. وكنت واثقاً من أن نهج علاجي أدى إلى تحسين نوعية حياة المرضى المصابين بمرض عضال، وما كان عليَّ إلّا أن أحدد عناصر التقييم - إدارة الاستبيانات قبل دخول الأعضاء إلى المجموعة، وفي فترات منتظمة بعد ذلك.

لاحظوا أنني بدأت أستخدم الآن بشكل متزايد صيغة المُتَكَلّم: «قرّرتُ... طبّقتُ... نهجي في العلاج». وعندما أنظر إلى الوراء وأنخل رماد علاقتي مع باولا، أظن أن ضمائر صيغة المُتَكَلّم هذه أنذرت بدنو فساد حبّنا. لكن بينما كنت أعيش في تلك الفترة، لم أدرك وجود أدنى قدر من التلف. لا أتذكّر إلّا أن باولا ملأتني بالنور وأنني كنت صخرتها، الملاذ الذي كانت تبحث عنه قبل أن نكون محظوظين لأن يجد أحدنا الآخر.

كان هناك شيء واحد متيقن منه وهو أنه بعد بدء الأبحاث الممولة رسمياً بفترة قصيرة، بدأت الأمور تسير نحو الأسوأ. في البداية تصدّعات خفيفة، ثم بدأت الشقوق تزداد اتساعاً في علاقتنا. ربما كانت أول إشارة واضحة على أن شيئاً لم يكن على ما يرام عندما قالت لي باولا ذات يوم إنها تشعر بأنها قد استُغلت من خلال مشروع الأبحاث. ظننت أن هذه ملاحظة غريبة لأنني كنت أحاول بشتى السبل الممكنة

أن أجعل دورها في المشروع كما كانت تريد: فقد كانت تجري مقابلات مع جميع المرشحين الجدد لقبولهم في المجموعات، وجميع النساء المصابات بسرطان الثدي النقيلي، والمساعدة على إعداد استبيانات التقييم. بالإضافة إلى ذلك، كنت أحرص على أن تحصل على أجر جيد - أكثر بكثير من متوسط الأجر الذي يتقاضاه مساعد باحث لا بل أكثر مما كانت تريد.

بعد بضعة أسابيع، في محادثة مزعجة دارت بيننا، قالت لي إنها مرهقة وترغب في أن تأخذ قسطاً من الراحة. تعاطفت معها وحاولت أن أقدّم لها اقتراحات للتخفيف من حدّة وتيرتها المحمومة.

بعد فترة قصيرة، قدّمتُ تقريري المكتوب عن المرحلة الأولى من البحث إلى المعهد الوطني للسرطان، ومع أنني حرصت على أن أضع اسم باولا في رأس قائمة المشاركين في البحث، سرعان ما سمعت شائعة تقول إنها غير راضية عن مقدار التقدير الذي حصلت عليه، وأخطأت بأنني لم أولِ هذه الإشاعة اهتماماً كبيراً: لأن ذلك لم يكن شيئاً معهوداً عن باولا.

بعد ذلك بفترة قصيرة، قدّمتُ الدكتورة كينغسلي إلى إحدى المجموعات كمعالجة مشاركة - وهي طبيبة نفسيّة شابة كانت، على الرغم من قلة خبرتها في العمل مع مرضى السرطان، ذكية ومتفانية في عملها. فهرعت إليَّ باولا،

وقالت توبخني: «لم أر امرأة أكثر برودة وسماجة منها في حياتي، ولا أظن أنها تستطيع أن تساعد أي مريض حتى بعد ألف سنة».

دُهشت من سوء فهمها الشديد تجاه معالجة مشاركة جديدة، ومن نبرة إدانتها الحادة والمريرة. لماذا كلّ هذه القسوة يا باولا؟ تساءلت. لماذا كلّ مشاعر اللؤم وعدم اللباقة هذه؟

كانت المنحة المقدّمة للبحث تشترط أن أعقد خلال الأشهر الستة الأولى من التمويل حلقة دراسية لمدة يومين للتشاور مع لجنة مؤلفة من ستة خبراء في علاج السرطان، وتصميم الأبحاث، والتحليل الإحصائي. فدعوتُ باولا وأربعة أعضاء آخرين في المجموعة ليحضروا كمستشارين للمرضى. كانت حلقة البحث مجرد واجهة، مضيعة للوقت والمال إلى درجة كبيرة، لكن هكذا هي الحياة في مجال الأبحاث التعاقدية التي ترعاها الحكومة الفيدرالية: يتعلّم المرء ببساطة كيف يتكيف مع هذه الأمور. لكن باولا لم تستوعب الأمر. فلدى حساب مبلغ المال الذي أُنفق على الاجتماع الذي استمر يومين كاملين (حوالي 5000 دولار أمريكي)، فقد انتقدت بشدة عدم أخلاقية هذا الاجتماع، وقالت: «فكّر لو أن هذه المساعدة البالغة خمسة آلاف دولار قد قُدِّمت لمرضى السرطان».

باولا، قلت لنفسي، أنا أحبك، لكن قد تكونين مشوشة

الذهن، وقلت لها: «ألا ترين أن التوصل إلى حل وسط أمر ضروري؟ فلا توجد طريقة يمكن أن تستخدم فيها الخمسة آلاف دولار لرعاية المرضى مباشرة. والأهم من ذلك، فإننا سنفقد تمويلنا إذا لم نتبع الإرشادات الفيدرالية لعقد الحلقة الدراسية الاستشارية. وإذا ثابرنا وأكملنا البحث، وأظهرنا قيمة نهجنا إزاء مرضى السرطان المحتضرين، فإننا سنفيد عدداً أكبر من المرضى، أكثر بكثير مما يمكن مساعدتهم مباشرة بمبلغ الخمسة آلاف دولار. دعينا لا نكون مقتصدين جداً في الأمور التافهة ومسرفين في الأمور الكبيرة يا باولا، ثم قلت لها راجياً: أرجوك، اقبلي هذه المرة».

شعرت بخيبة أملها تجاهي. هزّت رأسها ببطء، وأجابت: «أقبل مرة يا إيرف؟ إذا قبلت مرة فإنك ستقبل دائماً».

خلال الحلقة الدراسية، قدّم جميع الاستشاريين مساهماتهم التي عُيِّنوا من أجلها (وتقاضوا رواتب جيدة). ناقش أحدهم الاختبارات النفسية لقياس الاكتئاب، والقلق، وأنماط التأقلم، وموضع التحكم، وتحدّث آخر عن نظم تقديم الرعاية الصحية، وتحدّث آخر عن الموارد المجتمعية.

وخصصت باولا جل وقتها لحلقة البحث هذه. يخيّل إليَّ أنها كانت تشعر بأنه لم يتبق أمامها وقت طويل، ويجب على المرء ألّا يلعب لعبة الانتظار. وأصبحت تتدخل في أعمال لجنة المستشارين الموقرة وتطرح عليهم أسئلة كثيرة.

فعندما كانوا يناقشون، على سبيل المثال، مؤشرات التقييم الموضوعية للتكيف غير المهايئ مثل عدم مغادرة المريض السرير، وعدم ارتداء ثيابه، وانكفائه، وبكائه، كانت باولا تجادل أنها ترى أن كلّ نشاط من هذه الأنشطة يشكل أحياناً مرحلة حضانة تفضي إلى مرحلة أخرى، وأحياناً فترة نمو، ورفضت جميع محاولات الخبراء لإقناعها بأنه عندما يستخدم المرء عينة كبيرة، والأعداد الإجمالية، والمجموعة المرجعية، يصبح من الممكن التعامل مع هذه الاعتبارات إحصائياً بسهولة في تحليل البيانات.

ثم جاءت اللحظة التي طُلب فيها من المشاركين في الحلقة الدراسية اقتراح بعض المتغيرات السابقة الهامة، أي العوامل التي قد تتنبأ بالتكيّف النفسي للشخص المصاب بالسرطان. فكتب الدكتور لي، أخصائي أمراض السرطان، هذه العوامل على السبورة كما أوردها المشاركون وهي: الاستقرار الزوجي، والموارد البيئية المتاحة، والملف الشخصي، والتاريخ العائلي، ثم رفعت باولا يدها وقالت: «وماذا عن الشجاعة؟ والعمق الروحي؟»

بأناة، ومن دون أن يقول شيئاً، نظر الدكتور لي إليها، وهو يلقي قطعة الطباشير في يده في الهواء ويلتقطها، استدار أخيراً وكتب اقتراحات باولا على السبورة. ومع أنني لم أعتبرها اقتراحات غير منطقية، كنت أعرف - وأعرف أن الجميع يعرفون - أنه بينما كان الدكتور لي يرمي قطعة الطباشير في الهواء ويلتقطها، كان يقول في نفسه أن يقوم

أحد، أي شخص في القاعة ويُخرج هذه السيدة العجوز من هنا. وأثناء الغداء، أشار بازدراء إلى أن باولا مُبشّرة أناجيليّة. ومع أن الدكتور لي أخصائي مرموق في طب الأورام ويعدّ دعمه وإحالاته للمشروع أموراً ضرورية، جازفتُ بمعارضته ودافعت عنها بقوة وأكدت على وجودها وأهميتها الكبيرة في تشكيل المجموعات وعملها، ومع أنني لم أتمكن من تغيير انطباعه عنها، فقد شعرت بالفخر لأنني وقفت إلى جانبها.

في ذلك المساء، اتصلت باولا بي بالهاتف، وقالت غاضبة: «إن جميع الأطباء الموجودين في الحلقة الدراسية أشخاص آليون، باردون، غير إنسانيين. ونحن المرضى الذين نعاني من السرطان أربعاً وعشرين ساعة كل يوم - ماذا نحن بالنسبة لهم؟ سأقول لك: إننا لسنا أكثر من «استراتيجيات تكيّف مريضة». تحدّثت معها لفترة طويلة وبذلت كل ما بوسعي لأهدّئ من روعها، وحاولت أن أقترح عليها بلطف ألّا تضع الأطباء في قالب نمطي وحثتها على أن تتحلّى بالصبر وأكدت لها ولائي للمبادئ التي بدأنا بها هذه المجموعة، وقلت لها أخيراً: «تذكّري يا باولا، لا شيء من كلّ هذا يهم لأن لديّ خطة البحث التي وضعتها، ولن يتمكنوا من التحكم بي بمنظورهم الآلي. ثقي بي».

لكن باولا لم تهدأ، ولم تعد، كما اكتشفت، تثق بي. فقد ظلت الحلقة الدراسية تعتمل في رأسها، وظلت تجتر الأمر لعدة أسابيع قادمة واتهمتني أخيراً بأنني أبيع نفسي

للبيروقراطية. وقدّمت تقريراً عن الأقلية إلى المعهد الوطني للسرطان، مليئاً بالعنف والحقد.

أخيراً، جاءت باولا ذات يوم إلى مكتبي وقالت إنها قررت أن تغادر المجموعة.

«لماذا؟»

«لقد مللت من كلّ ذلك».

«باولا، توجد أسباب أكثر من ذلك. ما هو السبب الحقيقي؟»

«قلت لك إنني مللت من كل ذلك»، ومهما حاولت أن أبحث في عمق المسألة، ظلّت تصّر على هذا العذر، مع أننا كنا نعرف أن السبب الحقيقي هو أنني خيّبت أملها. استخدمتُ كل ما أملكه من حيل (فبعد سنوات التدريب التي أمضيتها، أصبحت أعرف بعض سبل الالتفاف حول الأشخاص) لكن دون جدوى. واستُقبلت كل محاولاتي التي تخللتها نكات غير سديدة ومناشدات وتوسلات من أجل صداقتنا الطويلة، بنظرات جليدية. ولم تعد علاقتنا القائمة على وئام تجدي نفعاً، واضطررت بحزن لأن ألجأ إلى التحايل.

قالت: «إني أعمل كثيراً. هذا كثير بالنسبة لي».

«أليس هذا ما أقوله منذ شهور يا باولا؟ قلّلي جميع زياراتك ومكالماتك الهاتفية لعشرات المرضى الموجودين في

قائمة الانتظار لديك. خصصي وقتك للمجموعة فقط. إنها بحاجة إليك، وأنا بحاجة إليك أيضاً. ومن المؤكد فإن تسعين دقيقة في الأسبوع ليست فترة طويلة».

«لا، لا أستطيع أن أفعل الأشياء على مراحل. إني بحاجة إلى فترة استراحة نظيفة. بالإضافة إلى ذلك، لم تعد المجموعة المكان الذي يناسبني. إنها سطحية جداً. أحتاج إلى مزيد من العمق - أن أعمل مع رموز وأحلام ونماذج عليا».

فقلت لها: «أتفق معك يا باولا». كنت في تلك اللحظة هادئاً ورصيناً، «وهذا ما أريده أنا أيضاً، وها قد حققنا إنجازاً كبيراً في المجموعة.»

«لا، لقد تعبتُ كثيراً، وأصبحتُ منهكة تماماً. فكل مريض جديد يجعلني أتذكّر الأزمة التي عانيتها، عذابي الشديد. لا، لقد قررت: سيكون الأسبوع القادم آخر اجتماع لي».

وهكذا كان. فلم تعد باولا إلى المجموعة بعد ذلك. وعندما طلبت منها أن تتصل بي في أي وقت إذا أرادت أن تكلمني، أجابت إنني أستطيع أن أتصل بها أيضاً. ومع أنها لم تكن حاقدة، فقد آلمني تعليقها كثيراً، ولم تتصل بي بعد ذلك. اتصلت بها عدة مرات، وتناولنا الغداء معاً مرتين في أحد المطاعم. بدأ الغداء الأول (الذي كان مؤلماً جداً ولم أتصل بها مرة أخرى لعدة أشهر) بشكل ينذر بالسوء. وعندما

وجدنا المطعم الذي اخترناه مزدحماً، عبرنا الشارع إلى تروتر، وهو مبنى أشبه بالكهف، يخلو من الذوق والجمال كان يضم محلات متعددة: وكالة سيارات أولدزموبيل، ومتجر بقالة لبيع الأطعمة الطبيعية، وصالة رقص، وتحوّل الآن إلى مطعم يقدّم أنواعاً من السندويش تحمل أسماء رقصات: والتز، وتويست، وتشارلستون.

لا، لم يكن ذلك صحيحاً. شعرت أنه ليس من المناسب عندما سمعت نفسي أطلب سندويشة «هولا» وعرفت أن ذلك لم يكن مناسباً إلّا عندما فتحت باولا حقيبتها وأخرجت حَجَرة بحجم ثمرة غريفون صغيرة ووضعتها على الطاولة بيننا.

وقالت: «هذه صخرة غضبي». وبدءاً من تلك اللحظة، أصبحت ذاكرتي غائمة ومشوشة. ولحسن الحظ، دوّنت بعض الملاحظات بعد أن تناولنا الغداء - وبما أن حديثي مع باولا لم يكن مهما بالنسبة لي، لم أحتفظ به في ذاكرتي.

«صخرة الغضب؟» كررتُ بصراحة، مندهشاً بتلك الحَجَرة التي تكسوها أشنة تقبع بيننا على الطاولة.

«لقد غضبتُ كثيراً يا إيرف حتى بدأ الغضب ينهشني. وقد تعلّمت الآن أن أزيح غضبي وأضعه داخل هذه الحجرة. لذلك أحضرتها اليوم. أردت أن أضعها هنا عندما التقيت بك».

«لماذا أنتِ غاضبة مني يا باولا؟»

«لم أعد غاضبة. لم يتبق سوى القليل من الوقت حتى أغضب. لكن مشاعري جُرحت. فقد تُركتُ عندما كنت في أمسّ الحاجة إلى المساعدة».

فقلت لها: «لم أتركك قط يا باولا»، لكنها لم تكترث بتعليقي وتابعت كلامها.

«بعد تلك الحلقة الدراسية، شعرت أنني محطمة. عندما كنت أنظر إلى الدكتور لي وهو واقف هناك يلقي قطعة الطباشير تلك في الهواء، متجاهلاً إياي، متجاهلاً الهموم الإنسانية لجميع المرضى، شعرت أن العالم كله قد ماد تحت قدميَّ. إن المرضى بشر. إننا نعاني ونكافح. نكافح أحياناً بشجاعة كبيرة لنواجه السرطان. كنا نتحدّث في معظم الأحيان إن كنا قد ربحنا أو خسرنا معركتنا - إنها معركة. نغوص أحياناً في اليأس، وأحياناً في الإرهاق الجسدي التام، ونتجاوز في أحيان أخرى السرطان الذي ينهش أجسادنا. إننا لسنا استراتيجيات تكيّف. إننا أكثر من ذلك بكثير».

«لكن باولا، كان ذلك الدكتور لي - ليس أنا. لم يكن ذلك ما شعرت به. لقد دافعتُ عنك عندما كلمته فيما بعد. قلت لك ذلك. بعد كلّ ما فعلناه معاً، هل تصدقين أنني أعتبرك استراتيجية للتكيف؟ فأنا أكره هذه اللغة وهذا المنظور كما تكرهينه أنت».

«كما تعرف لن أعود إلى المجموعة».

«ليست هذه هي النقطة يا باولا»، ولم تكن. لم تعد

عودتها إلى المجموعة تهمني كثيراً. ومع أنها كانت تشكّل قوة كبيرة فيها، فقد أدركت أنها كانت قوية جداً وملهمة جداً: وقد مكنّت مغادرتها العديد من المرضى الآخرين أن يتعلّموا كيف يلهمون أنفسهم بأنفسهم. «أهم شيء بالنسبة لي هو أن تثقي بي».

«بعد الحلقة الدراسية يا إيرف، بكيت طوال أربع وعشرين ساعة. اتصلت بك، لكنك لم تتصل بي في ذلك اليوم. وعندما اتصلت، لم تجعلني أشعر بالراحة. فذهبت إلى الكنيسة وصليت وتحدثت مع الأب إلسون لمدة ثلاث ساعات وقد أنصت إليّ. إنه يستمع إليّ دائماً. أظن أنه أنقذني».

اللعنة على ذلك القس. عصرتُ فكري لأتذكّر ذلك اليوم قبل ثلاثة أشهر. تذكّرت بصعوبة أنني كلمتها على الهاتف لكني لم أتذكّر أنها طلبت مني أي مساعدة. كنت متيقناً من أنها اتصلت بي لتحدّثني عن الحلقة الدراسية التي كنت قد ناقشتها معها مرات عديدة. مرات كثيرة. لماذا لم تفهم؟ كم مرة كان عليّ أن أقول لها إنه لا معنى للأمر كله، وأنني لست الدكتور لي، وأنني لم أكن أنا الذي كان يلقي قطعة الطباشير في الهواء، وأنني دافعت عنها بعد ذلك، وأنني سأتابع العمل مع المجموعة بنفس الطريقة، وأن لا شيء سيتغير سوى أنه سيُطلب من أعضاء المجموعة أن يملؤوا بعض الاستبيانات كلّ ثلاثة أشهر؟ نعم، اتصلت بي باولا في ذلك اليوم، لكنها لم تطلب مني أي مساعدة حينذاك، ولا بعد ذلك.

«باولا، لو قلتِ لي إنك تريدين مساعدة لك، هل تظنين أنني كنت سأرفض؟»

«بكيت طوال أربع وعشرين ساعة».

«لكنني لا أقرأ الأفكار. قلتِ لي إنك تريدين أن تتحدّثي عن البحث وعن تقريرك عن الأقلية».

«بكيت أربعاً وعشرين ساعة».

وهكذا استمر الأمر، نتحدّث كلانا. بذلت ما بوسعي لنتوصل إلى اتفاق. قلت لها إنني أحتاج إليها - لي، وليس للمجموعة. في الواقع، كنت بحاجة إليها حقاً. فقد كانت هناك مشاكل في حياتي تؤرقني في ذلك الوقت، وكنت أتوق إلى إلهامها وحضورها الذي يشيع الراحة في نفسي. في إحدى المرات، قبل عدة أشهر، اتصلت بباولا ذات مساء، بحجة مناقشة خططنا المتعلقة بالمجموعة، لكني اتصلت بها لأن زوجتي كانت خارج المدينة وكنت أشعر بالوحدة وقلقاً. بعد حديثنا على الهاتف الذي استمر لأكثر من ساعة، شعرتُ بتحسن كبير - مع أنني شعرت بالذنب قليلاً لأنني حصلت على علاج نفسي في حديثنا هذا من دون أن تعرف.

تذكّرت الآن ذلك الحديث على الهاتف مع باولا. لماذا لم أكن أكثر صدقاً معها؟ لماذا لم أقل لها بكل بساطة: «انظري يا باولا، هل يمكنني أن أكلمك الليلة؟ هل يمكنك أن تساعديني - فأنا أشعر بالقلق والوحدة وقلة الحافز؟

أعاني من مشكلة في النوم». لا، لا، هذا الأمر غير وارد. فقد فضّلت أن أحصل على غذائي سرّاً.

كم كنت منافقاً لأنني طلبت من باولا أن تطلب مني مساعدتها صراحة، بينما طلبت مساعدتها تلميحاً بحجة الحلقة الدراسية؟ وماذا في ذلك. كان ينبغي لي أن أحاول مواساتها من دون أن أصرّ على إخضاعها.

عندما تذكّرت صخرة غضب باولا، أدركت ضآلة فرصة إنقاذ علاقتنا. لا ريب في أن هذا الوقت ليس وقتاً للتذاكي، فكنت صريحاً معها كما لم أكن من قبل. قلت لها: «إني بحاجة إليك»، مذكّراً إياها أنني طالما قلت لها إن لدى المعالجين أيضًا احتياجات، ومضيت أقول: «وربما لم أدرك جيداً محنتك، فأنا لا أقرأ الأفكار، وألم ترفضي كلّ هذه السنوات طلبي لمساعدتك؟» ما أردت أن أقوله هو: «امنحيني فرصة أخرى. حتى لو لم أدرك محنتك هذه المرة يا باولا، لا تغيبي عني دائماً». كدت أتوسل إليها في ذلك اليوم، لكن باولا كانت مصرّة، وافترقنا من دون أن يلمس أحدنا يد الآخر.

أزحتُ باولا عن تفكيري عدة شهور حتى أخبرتني الدكتورة كينغسلي، الأخصائية النفسية الشابة التي كانت تكن لها تلك الكراهية غير المنطقية، عن لقاء مزعج لها مع باولا. فقد عادت باولا إلى المجموعة التي تقودها الدكتورة كينغسلي (كانت قد أصبحت لدينا الآن عدة مجموعات في

المشروع) و- بدا أن «السيدة سرطان»، كما وصفتها الأخصائية النفسية، قد احتكرت الجلسة لنفسها ولم تدع أحداً غيرها يتكلّم. فاتصلت على الفور بباولا، ودعوتها إلى الغداء.

فوجئت بمدى سعادة باولا لأنني دعوتها، لكن ما إن التقينا - هذه المرة في نادي جامعة ستانفورد الذي لا يقدم سندويشات هولا - أصبح موضوعها واضحاً. فلم تتحدّث عن أي شيء سوى الدكتورة كينغسلي. وعلى حد قول باولا، فقد دعاها مساعد الدكتورة كينغسلي لتتحدث أمام مجموعتها، لكنها ما إن بدأت تتكلّم حتى قالت لها الدكتورة كينغسلي إنها أخذت وقتاً طويلاً، وقالت لي باولا: «يجب أن توبخها. أنت تعلم أنه يمكن ويجب تحميل المعلمين المسؤولية عن السلوك غير المهني تجاه طلابهم». لكن الدكتورة كينغسلي كانت زميلتي وليست تلميذتي، وأعرفها منذ سنوات. ولم يكن زوجها صديقاً مقرباً فحسب، وإنما ترأسنا معاً عدة مجموعات: وبما أنني أعرف أنها معالجة ممتازة، فقد كنت متيقناً من أن وصف باولا لسلوكها مشوّه إلى حد بعيد.

ببطء، وببطء شديد، اتضح لي أن باولا تشعر بالغيرة: تغار من الاهتمام الذي أبديته للدكتورة كينغسلي، وتغار من تحالفي معها ومع جميع أعضاء فريق البحث. لذلك كان من الطبيعي أن تقاوم باولا عقد حلقة البحث التشاورية، ومن الطبيعي أنها لم تشجع على أن أتعاون مع باحثين آخرين.

كانت ستقاوم أي تغيير يطرأ على مجموعتنا، وكان كلّ ما تريده أن ندير مجموعتنا الصغيرة أنا وهي فقط.

ماذا أفعل؟ فقد وضعني إصرارها على أن أختار بينها وبين الدكتورة كينغسلي في معضلة مستحيلة. فقلت لها: «إني أهتم بكما، أنتِ والدكتورة كينغسلي، يا باولا. كيف يمكنني أن أحافظ على نزاهتي وزمالتي وصداقتي مع الدكتورة كينغسلي من دون أن تشعري بأنني، مرة أخرى، قد تخلّيت عنك؟» ومع أنني حاولت أن أقترب منها بكل السبل الممكنة، فقد كانت المسافة بيننا تزداد اتساعاً. لم أعد أجد الكلمات المناسبة، وبدا أنه لم تعد هناك موضوعات آمنة. ولم يعد لديَّ الحق في أن أطرح عليها أسئلة شخصية، حتى لم تعد تبدي أي اهتمام بحياتي.

طوال فترة الغداء، حكت لي قصصاً عن سوء معاملة فظيعة من قبل أطبائها: «فهم يتجاهلون الأسئلة التي أطرحها عليهم. وأدويتهم تضرّني أكثر مما تنفعني». وحذرتني أيضاً من أن اختصاصياً نفسانياً يتكلّم مع بعض مريضات السرطان اللاتي كنّ في مجموعتنا، وقالت: «إنه يريد أن يسرق النتائج التي توصلنا إليها لكي يستخدمها في كتابه. من الأفضل أن تحترس منه يا إيرف».

كان من الواضح أن باولا في حالة مضطربة شديدة. وقد أخافني شعورها بالبارانويا وشعرت بالحزن عليها، ولا بد أن حزني بدا واضحاً على وجهي لأنني ما أن تهيأت لأغادر،

حتى طلبت مني أن أبقى بضع دقائق أخرى.

«عندي قصة أريد أن أحكيها لك يا إيرف. أجلس ودعني أحكي لك هذه القصّة عن القَيُّوط والجرادة».

كانت تعرف أنني أحبّ القصص، خصوصاً قصصها. فجلست ورحت أنصت لها بترقب.

كان هناك قَيُّوط يشعر بحزن شديد، قلبه مسحوق من الضغوط التي عاناها في حياته. وكان كل ما يراه عدداً كبيراً من الأشبال الجائعة، وعدداً كبيراً من الصيادين، عدداً كبيراً من الفخاخ المنصوبة. وفي أحد الأيام، هرب ليعيش وحده. وفي طريقه سمع فجأة لحناً عذباً، لحناً مليئاً بالسعادة، فغمره هدوء عظيم. تتبّع أثر الأغنية ووصل إلى بقعة في الغابة، ورأى جرادة كبيرة تتشمّس فوق جذع شجرة مجوف وتغني.

«علميني أغنيتك»، قال القَيُّوط للجرادة، وعندما لم يسمع منها جواباً، طلب منها مرة أخرى أن تعلّمه الأغنية، لكن الجرادة ظلت صامتة. وعندما هدد القَيُّوط بأنه سيلتهمها إذا لم تعلّمه الأغنية، أذعنت الجرادة وغنّت الأغنية الحلوة عدة مرات حتى حفظها القَيُّوط. في طريق عودته إلى أسرته، راح القَيُّوط يدمدم الأغنية الجديدة التي حفظها. وفجأة طار بجانبه سرب من الأوز البري، فتشتت انتباهه. وعندما فتح فمه ليغنّي الأغنية، اكتشف أنه نسيها.

فرجع إلى البقعة المشمسة في الغابة التي رأى فيها الجرادة، لكنه لم يرها، فقد انسلخت عن جلدها في ذلك

الوقت وتركت جلدها يتشمّس فوق جذع الشجرة المجوف، وطارت وحطت فوق غصن شجرة أخرى. لم يضع القَيُّوط وقتاً ليتأكد من أن الأغنية موجودة داخل جلد الجرادة فابتلعه بجرعة واحدة، ظناً منه أن الجرادة ما تزال داخل الجلد. وعندما عاد إلى بيته، اكتشف مرة أخرى أنه لا يعرف الأغنية. فأدرك أنه لم يستطع أن يحفظ الأغنية بعد أن ابتلع جلد الجرادة، وأنه يجب أن يُخرجها ويجبرها على أن تعلّمه الأغنية، فأخذ سكيناً وشقّ بطنه ليُخرج الجرادة، لكنه أحدث جرحاً عميقاً فمات.

«وهكذا يا إيرف»، قالت باولا وهي تبتسم لي ابتسامتها الجميلة، ومدّت يدها إلى يدي ثم همست في أذني: «يجب أن تجد أغنيتك الخاصة بك وتغنيها».

تأثرتُ كثيراً: ابتسامتها، غموضها، سعيها للحكمة - كانت تلك هي باولا التي أحببتها كثيراً. لقد أحببت هذه الحكاية الرمزية. إنها باولا السابقة. أخذت المعنى في ظاهره - بأنني يجب أن أغنّي الأغنية الخاصة بي - وأبعدت عن تفكيري الآثار المزعجة للقصة بشأن علاقتي معها، ورفضت حتى الآن، أن أدرس فحوى القصة بعمق.

وهكذا غنّى كلّ منّا أغنيته على حدة. فقد قطعت شوطاً في مسيرتي المهنية: أجريتُ أبحاثاً، وكتبتُ كتباً عديدة، ونلت مكافآت أكاديمية والترقيات التي كنت أطمح إليها. لقد مضت عشر سنوات. وكان مشروع سرطان الثدي الذي

ساعدت باولا على إطلاقه قد انتهى منذ زمن ونُشرت نتائجه. فقد قدّمنا علاجاً جماعياً لخمسين امرأة مصابة بسرطان الثدي النقيلي ووجدنا أنه قد حسّن، مقارنة بالمجموعة الشاهدة المؤلفة من ستة وثلاثين مريضة، نوعية حياة المريضات اللاتي بقين على قيد الحياة في المجموعة. (بعد سنوات، في دراسة متابعة نُشرت في مجلة «لانسيت»، أظهر زميلي الدكتور ديفيد شبيغل الذي كنت قد طلبت منه قبل سنوات عديدة أن يصبح الباحث الرئيسي للمشروع، أن المجموعة أطالت حياة المشاركات كثيراً). لكن المجموعة أصبحت الآن بحكم الماضي. فقد ماتت جميع النساء الثلاثين في مجموعة بريدج الأصلية، والست وثمانين امرأة في دراسة سرطان الثدي النقيلي.

جميعهن سوى واحدة. ففي أحد الأيام، أوقفتني صبيّة شابة ذات شعر أحمر ووجه متورّد في ممر المستشفى، وقالت: «أنقل إليك تحيات باولا ويست».

باولا! هل هذا ممكن؟ أما زالت باولا على قيد الحياة؟ إنني لا أعرف ذلك. اعترتني رعشة عندما قلت لنفسي إنني أصبحت شخصاً لا يعرف إن كانت روحاً مثل روحها ما تزال تسكن هذه الأرض.

«باولا؟ كيف حالها؟» سألتها متلعثماً، «كيف تعرفينها؟»

«عندما اكتشفت أنني مصابة بمرض الذئبة منذ سنتين، زارتني باولا وعرّفتني على مجموعة المساعدة الذاتية الخاصة

بمرض الذئبة. ومنذ ذلك الحين، فهي تعتني بي - لا بل تعتني بجميع أعضاء المجموعة المصابين بمرض الذئبة».

فقلت لها: «يحزنني أن أسمع عن مرضك. لكن باولا؟ مرض الذئبة؟ لم أسمع عن ذلك». يا لي من منافق، قلت في نفسي، فكيف يمكنني أن أسمع؟ هل حدث وأن اتصلت بها؟

«إنها تقول إن الدواء الذي وصفوه لها لعلاج السرطان هو الذي سبّب لها مرض الذئبة».

«هل هي في حالة شديدة من المرض؟»

«لا يمكنك أن تعرف أبداً مع باولا. من المؤكد أنها ليست في حالة شديدة من المرض وإلّا لما تمكنت من دعم مجموعة المرضة بالذئبة، ودعوة المرضى الجدد إلى الغداء، وزيارتنا عندما لا نستطيع مغادرة المنزل. وهي ترتب مجموعة من الأطباء لكي نبقى على اطلاع بالأبحاث الجديدة حول مرض الذئبة. وهي ليست في حالة شديدة من المرض وإلّا لما دعت مجلس الأخلاقيات الطبية لإجراء تحقيق لأطبائها المختصين بالسرطان».

التنظيم، والتعليم، والرعاية، وإثارة المشاكل، وإنشاء مجموعات مساعدة ذاتية لمرضى الذئبة، وانتقاد أطبائها - هذه هي باولا الحقيقية.

شكرتُ الشابة، وفي مساء ذلك اليوم اتصلّت برقم باولا الذي ما زلت أحفظه عن ظهر قلب، على الرغم من مرور عقد من الزمن منذ آخر اتصال لي بها. وبينما كنت

أنتظر ردّها، تذكّرت بعض الأبحاث الحديثة عن الشيخوخة التي أظهرت وجود ارتباط إيجابي بين أسلوب الشخصية وطول العمر: فالمرضى المشاكسون الذين يحبون الخصام ويعانون من البارانويا والشك، ينحون لأن يعيشوا عمراً أطول. قلت في نفسي إن باولا المشاكسة والمزعجة على قيد الحياة أفضل من باولا الميتة الهادئة.

بدا أنها كان سعيدة باتصالي بها ودعتني لتناول الغداء في بيتها، وقالت إن مرض الذئبة جعلها حساسة جداً للتعرض للشمس فلم تعد تستطيع أن تخرج وتذهب إلى المطاعم أثناء النهار. وقبلتُ دعوتها بكل سرور. وفي اليوم المحدد وجدت باولا في حديقتها الأمامية، متدثرة بثوب من الكتان من قمة رأسها حتى قدميها، وتضع قبعة شاطئ كبيرة حوافها عريضة، وهي تزيل الأعشاب الضارة في بقعة جميلة مزروعة بأزهار الخزامى الإسباني الطويلة ذات الرائحة العطرة. «قد يقتلني هذا المرض، لكني لن أدعه يُبعدني عن حديقتي»، قالت باولا وشبكت ذراعي ورافقتني إلى داخل البيت. قادتني إلى أريكة مخملية أرجوانية داكنة اللون، وجلست بجانبي، وقالت على الفور في ملاحظة جادة: «لقد مرّت فترة طويلة لم أرك فيها يا إيرف، لكنّي أفكر فيك كثيراً. أذكرك كثيراً في صلاتي».

«يعجبني رأيك بي يا باولا، أما بالنسبة لصلواتك، فإنك تعلمين آرائي بها».

فقالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة: «نعم، نعم، أعرف أنك يجب أن تفتح عقلك في هذا الأمر»، وأضافت، «إنه يذكّرني بأن عملي معك لم ينته بعد. هل تذكر آخر مرة تحدّثنا فيها عن الله؟ كان ذلك منذ سنوات، لكنّي أتذكّر أنك قلت لي بأن شعوري حول المقدّس لا يختلف كثيراً عن آلام الغازات في الليل».

«يبدو ذلك قاسياً خارج السياق، حتى بالنسبة لي. لكنني لم أقصد أن أكون مسيئاً. قصدت فقط أن الشعور ما هو إلّا شعور. فالحالة الذاتية لا يمكنها أبداً أن تثبت حقيقة موضوعية. أمنية، خوف، إحساس بالرهبة والوجل لا يعني أن...»

«نعم، نعم»، قاطعتني باولا وقد ارتسمت ابتسامة على وجهها، «أعرف تفكيرك المادي المتشدد. سمعته كثيراً، وكان مقدار العاطفة والورع والإيمان الذي تضعه فيها يدهشني دائماً. أذكر أنك قلت لي في آخر حديث دار بيننا أنه لم يكن لديك صديق مقرّب، ولم تعرف أحداً شديد الإيمان تحترم عقله».

هززت رأسي.

«حسناً، كنت أريد أن أقول لك شيئاً في ذلك الوقت: لقد نسيتَ صديقة مؤمنة - أنا. كم كنت أتمنى أن أتمكن من أن أعرّفك على المقدّس. الغريب في الأمر أنك اتصلت بي في هذا الوقت لأنني كنت أفكّر بك كثيراً في الأسبوعين

الماضيين. لقد عدتُ منذ فترة قصيرة من معتكف أقامته الكنيسة لمدة أسبوعين في سييرا. كنت أتمنى أن آخذك معي. اجلس ودعني أحدّثك عنه.

«في صباح أحد الأيام، طُلب منا أن نتذكّر شخصاً مات، شخصاً نحبّه كثيراً، ولم تفارقنا ذكراه، ونتأمل في ذلك. اخترت أن أتذكّر أخي الذي طالما أحببته الذي مات وهو في السابعة عشرة من عمره عندما كنت ما أزال طفلة صغيرة. وطُلب منا أن نكتب رسالة وداع نقول فيها لهذا الشخص كلّ الأشياء المهمة التي لم نقلها له في حياته. ثم رحنا نبحث في الغابة عن شيء يرمز فيه ذلك الشخص لنا. وكان علينا أن ندفن أخيراً ذلك الشيء مع الرسالة. فاخترت صخرة صغيرة ودفنتها في ظل شجيرة عرعر لأن أخي كان مثل صخرة - صلباً وراسخاً. لو كان قد عاش، لساندني في حياتي، ولم يتركني».

نظرت باولا في عينيَّ عندما قالت ذلك، وعندما هممت لأن أبدي احتجاجاً، وضعت إصبعها على شفتيّ وواصلت كلامها.

«في منتصف تلك الليلة، قُرعت أجراس الدير حزناً على الشخص الذي فقده كلّ واحد منا. كنا أربعة وعشرين شخصاً في المعتكف، وقُرعت الأجراس أربعاً وعشرين مرة. عندما كنت جالسة في غرفتي، وسمعت أول قرعة جرس، شعرت بتجربة موت أخي، واعترتني موجة لا توصف من

الحزن عندما تذكّرت كلّ التجارب التي عشناها معاً، والتي لم نعشها قط. ثم حدث شيء غريب: فعندما استمرت الأجراس تقرع، أعادت كلّ قرعة جرس إلى ذاكرتي إحدى عضوات مجموعة بريدج اللاتي توفين. وعندما توقفت الأجراس، كنت قد تذكّرت الواحد وعشرين عضوة. كنت أبكي عندما كانت الأجراس تُقرع. بكيت بحرقة إلى درجة أن إحدى الراهبات سمعتني وجاءت إلى غرفتي وضمتني إليها.

«إيرف، هل تتذكّرهن؟ هل تتذكّر ليندا وباني...»

«وإيفا وليلي». شعرت بدموعي تنهمر عندما بدأت أتذكّر معها وجوه وقصص وآلام عضوات مجموعتنا الأولى.

«ومادلين وغابي».

«وجودي وجوان».

«وإيفلين وروبن».

«وسال وروب».

«أمسكنا بأيدي بعضنا وبدأنا نتمايل بلطف، وتابعنا أنا وباولا ذكر أسماء الإحدى وعشرين عضوة في أسرتنا الصغيرة.

«إنها لحظة مقدّسة يا إيرف»، قالت وابتعدت عني، وهي تنظر في عينيَّ، «ألا تشعر بوجود أرواحهن؟»

«أتذكرهن بوضوح شديد، وأشعر بوجودك يا باولا، وهذا شيء مقدّس بما يكفي بالنسبة لي».

«أنا أعرفك جيداً يا إيرف. تذكّر كلماتي جيداً - سيأتي اليوم الذي تدرك فيه كم أنت متدّين حقاً. لكن ليس من العدل أن أحاول أن أهديك وأنت جائع. سأحضر طعام الغداء».

«انتظري لحظة واحدة يا باولا. قبل بضع دقائق، عندما قلتِ إن شقيقك كان شخصًا ما كان ليتركك أبداً، هل تقصدينني أنا؟»

فقالت باولا وهي تنظر إليَّ بعينيها المضيئتين: «عندما كنت بحاجة ماسة إليك، تركتني. لكن كان ذلك في ذلك الوقت. لقد مضى، وها قد عدت الآن».

كنت متأكدًا من أنني عرفت ما الذي تقصده «بذلك الوقت» - عندما كان الدكتور لي يلقي قطعة الطباشير في الهواء. كم استغرقت فترة رمي قطعة الطباشير تلك في الهواء؟ ثانية واحدة؟ ثانيتين؟ لكن تلك اللحظات القصيرة لم تبرح ذاكرتها. أحتاج إلى معول جليد لكي أزيلها، لكنني لم أكن أحمق لأحاول ذلك، وإنما عدت إلى أخيها.

«عندما قلتِ إن أخاك يشبه صخرة ذكّرني ذلك بصخرة أخرى، صخرة الغضب التي وضعتها ذات يوم على الطاولة بيننا. هل تعرفين أنك لم تذكري لي شقيقك حتى هذا اليوم؟ لكن موته يساعدني على فهم بعض الأشياء عني وعنك. ربما كنا ثلاثة دائماً - أنتِ وأنا وأخوك؟ أتساءل إن كان موته هو سبب اختيارك لأن تكوني صخرة - السبب الذي لم يجعلني

أصبح صخرتك؟ ربما موته أقنعك بأن الرجال الآخرين ضعفاء لا يمكن الاعتماد عليهم؟»

صمتُّ وانتظرتُ. كيف ستجيب؟ فطوال السنوات التي عرفت فيها باولا، هذه أول مرة أقدم لها تفسيراً عن نفسها. لكنها لم تقل شيئاً. ثم قلت: «أظن أنني على صواب، وأظن أنك فعلتِ حسناً لأنك ذهبت إلى ذلك المعتكف، ومن الجيد أنكِ حاولتِ أن تودعيه. ربما تكون الأمور مختلفة بيني وبينك الآن».

مزيد من الصمت. ثم نهضت واقفة وابتسمت ابتسامة غامضة، وقالت: «حان وقت إطعامك»، ودخلت إلى المطبخ.

هل كانت هذه العبارة - «حان وقت إطعامك» - إقراراً بأنني أطعمتها للتو؟ اللعنة، من الصعب أن تعطيها شيئاً!

بعد لحظة، عندما جلسنا لنأكل، نظرت إليَّ مباشرة، وقالت: «إيرف، أنا في ورطة. هل ستكون صخرتي الآن؟»

«طبعاً»، قلت وشعرت بالسعادة لأنني أدركت أن مناشدتها بمثابة إجابة على سؤالي، «اعتمدي عليَّ. أي مشكلة؟» لكن سعادتي أنها سمحت لي أخيراً أن أساعدها سرعان ما تحوّلت إلى ارتباك وتردّد عندما بدأت تشرح مشكلتها.

«كنتُ صريحة جداً عن الأطباء حتى بدأت أظن أن

اسمي أصبح مدرجاً في القائمة السوداء لدى الأطباء. فلم يعد بوسعي أن أحصل على رعاية طبية جيدة. جميع الأطباء في عيادة لارتشوود يفعلون ذلك. ومع ذلك لا يمكنني أن أغيّر العيادة لأن التأمين الصحي يجبرني على أن أُعالج هناك. وفي حالتي الطبية، أي شركة تأمين أخرى تريد أن تلمسني؟ إني مقتنعة بأنهم عاملوني بطريقة غير أخلاقية - وأن علاجهم هو الذي جعلني أصاب بمرض الذئبة. كان هناك سوء ممارسة واضح. إنهم يخشونني. إنهم يكتبون بعض الملاحظات الطبية المتعلقة بي بالحبر الأحمر ليتمكنوا من التعرف عليها وإزالتها بسرعة من الجدول المتعلق بي إذا استدعتهم لجنة التحقيق. إنهم يستخدمونني فأر تجارب. وحجبوا عني منشطات الستيرويد إلى أن أصبح الوقت متأخراً جداً، ثم أساءوا استخدام الجرعة».

وتابعت باولا قائلة: «بصراحة أظن أنهم يريدون أن يزيحوني عن طريقهم. أمضيت هذا الأسبوع وأنا أكتب رسالة أفضحهم فيها أمام المجلس الطبي، لكني لم أرسلها - لأنني بدأت أقلق بشأن ما يمكن أن يحدث للأطباء ولعائلاتهم إذا سُحبت منهم تراخيصهم. ومن ناحية أخرى، كيف يمكنني أن أدعهم يواصلون إلحاق الأذى بالمرضى؟ لن أتنازل. أذكر أنني قلت لك ذات يوم إن التنازل لا يأتي وحده: فهو يتكاثر. إن التنازل يجرّ تنازلاً آخر وراءه، ولن يمضي وقت طويل حتى تفقد معظم ما كنت تؤمن به. والصمت هنا الآن هو تنازل. إني أصلّي لأجد توجيهاً يدلني على الطريق».

ازدادت حدّة قلقي. قد تكون هناك ذرة من الحقيقة في اتهامات باولا. فربما انزعج بعض الأطباء الذين يشرفون على علاجها، مثل الدكتور لي من أسلوبها وطريقة تعاملها، ولم يعودوا يريدونها. لكن الجداول المكتوبة بالحبر الأحمر وفأر التجارب، وحجب الأدوية الضرورية عنها؟ فهي ليست سوى اتهامات سخيفة، وأنا متيقن من أنها دلائل على البارانويا المصابة بها، فأنا أعرف بعض هؤلاء الأطباء وأثق بنزاهتهم. مرة أخرى، وضعتني في موضع ترغمني فيه على الاختيار بين معتقداتها القوية ومعتقداتي القوية. وأكثر من أي شيء آخر، لم أكن أريد أن تعتقد أنني أتخلّى عنها. وعلى الرغم من ذلك، كيف يمكنني أن أبقى معها؟

شعرت أنني وقعت في مصيدة. أخيراً، بعد كل هذه السنوات، تناشدني باولا مباشرة. لم أر سوى طريقة واحدة لأجيبها: أن اعتبرها امرأة مضطربة إلى درجة كبيرة وأعاملها - «أتعامل» بالمعنى الزائف والقاتم للكلمة، بمعنى «التعامل أو المداولة». كان هذا ما كنت أريد دائماً أن أتجنبه مع باولا - مع أي شخص، في هذا الأمر - لأن «التعامل» مع أحد يعني أن ترتبط به أو بها كشيء، وبالتالي، فهو نقيض أن تكون موجوداً مع ذلك الشخص.

لذلك أبديت تعاطفي مع معضلتها. استمعت إليها، وبحثت في الأمر بلطف، واحتفظت بآرائي لنفسي. واقترحت عليها أخيراً أن تكتب رسالة أكثر ليونة إلى المجلس الطبي: قلت لها: «صادقة لكن أكثر ليونة، عندها سيتلقى الأطباء

توبيخاً ولن تُعلَّق رخصهم وشهاداتهم». بالطبع كان كل ذلك بسوء نية. فلن يأخذ أي مجلس طبي في العالم رسالتها على محمل الجد، ولن يصدّق أحد أن جميع الأطباء في المركز يتآمرون عليها. لذلك لن تكون هناك إمكانية لتوبيخهم أو إلغاء تراخيصهم.

بدأت تفكّر، تزن نصيحتي. أظن أنها شعرت برعايتي لها، وتمنيت ألّا تعرف أنني كنت كاذباً. هزّت رأسها أخيراً، وقالت: «لقد قدّمت لي مشورة جيدة وسليمة يا إيرف، وهذا ما أحتاج إليه». شعرت بسخرية مؤلمة بأنها الآن فقط، عندما تصرفت معها بسوء نية، اعتبرت أنني مفيد وجدير بثقتها.

على الرغم من حساسيتها للشمس، أصرّت باولا على أن ترافقني إلى سيارتي. وضعت قبعة الشمس ولفّت نفسها بحجابها، وعندما شغلّتُ السيارة، مالت نحوي لتعانقني، العناق الأخير. عندما ابتعدتُ قليلاً، نظرت من مرآة السيارة الخلفية. كانت قبعة باولا تلمع تحت أشعة الشمس. عندما هبّت نسمة، رفرفت ثيابها. بدت مثل ورقة شجرة، ترتعش، تلتف حول جذعها، تتهيأ لأن تسقط.

«قبل عشر سنوات من هذه الزيارة، كنت قد كرّستُ نفسي للكتابة. وأخرجتُ كتاباً بعد كتاب - إنتاجية ناجمة عن إستراتيجية بسيطة: فقد وضعت الكتابة في المرتبة الأولى، ولم أدع شيئاً أو أحداً يعوقها. وكنت أحمي وقتي بضراوة شديدة كما تحمي الدّبة أشبالها، وألغيت جميع أنشطتي

ماعدا الأنشطة الأساسية في حياتي. حتى باولا وقعت في فئة الأنشطة غير الأساسية، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي لأتصل بها مرة أخرى.

بعد بضعة أشهر ماتت أمّي، وعندما كنت في الطائرة متجهاً لحضور جنازتها، انسلّت باولا إلى تفكيري. فقد تذكّرت رسالة الوداع التي أرسلتها لشقيقها المتوفى - الرسالة التي احتوت على كلّ ما لم تقله له أثناء حياته، وفكّرت في ما لم أقله لأمي طوال حياتها. لم أقل لها شيئاً تقريباً. فعلى الرغم من أننا كنا نحبّ بعضنا كثيراً، لم يدر بيني وبين أمي حديث مباشر، من القلب إلى القلب، مثل شخصين يتواصلان بعقلين صافيين. فقد كان كل واحد منا «يعامل» الآخر، ونتحدّث ويظن أحدنا أن الآخر يفهمه، وكان أحدنا يخشى الآخر، ويسيطر عليه، ويخدعه. إني متأكد من أن هذا هو السبب الذي جعلني أرغب دائماً في أن أتحدّث مع باولا بصدق وبشكل مباشر، والسبب الذي جعلني أكره أن أُرغم على أن «أعاملها» بطريقة مخادعة.

في الليلة التي تلت جنازة أمي، راودني حلم قوي.

فقد حلمت أن أمي جالسة مع عدد من صديقاتها وأقاربها، جميعهم موتى، على درج البيت يخيم عليهم صمت مطبق. ثم سمعت صوت أمي ينادي - تصرخ - اسمي. كنت متيقناً من أن العمة ميني، كانت جالسة في أعلى الدرج، لا تتحرك. ثم بدأت تتحرك، ببطء في البداية، ثم

بسرعة أكثر فأكثر حتى بدأت تهتز أسرع من نحلة طنانة. في تلك اللحظة، بدأ جميع الجالسين على الدرج، كلهم كبار في السن عندما كنت طفلاً الذين ماتوا جميعاً، يهتزون. مدّ عمي آبي يده ليقرص خدي وقال: «حبيبي سوني»، كما كان يفعل عادة. فمدّ الآخرون أيديهم إلى خدّي وراحوا يقرصونه، بلطف في البداية، ثم ازداد قرصهم شراسة حتى أصبح مؤلماً. استيقظت مذعوراً، خدّايّ يخفقان ألماً في الساعة الثالثة صباحاً.

صوّر الحلم مبارزة مع الموت. فقدت نادتني أولاً المرحومة أمّي، ورأيت جميع أفراد عائلتي الميتين جالسين في سكون مخيف على الدرج، ثم حاولت أن أرفض السكون المميت بمنح الموتى حركة الحياة. ولاحظت بالتحديد عمتي ميني التي ماتت السنة الماضية بعد إصابتها بسكتة دماغية قوية تركتها مشلولة تماماً بضعة أشهر، غير قادرة على أن تحرّك عضلة واحدة في جسدها ما عدا عينيها. في الحلم، بدأت ميني تتحرك لكنها سرعان ما خرجت عن نطاق السيطرة وتحولت إلى حركة جنونية. ثم حاولت أن أخفّف من حدة خوفي من الموتى بتخيلهم وهم يقرصون خدّي بمودة، لكن ذلك الرعب ازداد مرة أخرى، وازداد القرص شراسة وإيلاماً، وأنا غارق في القلق والرعب من الموت.

ظلت صورة عمتي التي تهتز مثل نحلة طنانة لا تفارقني لأيام عديدة. لم أستطع أن أبعدها عن تفكيري. خيّل إليَّ أنها قد تكون رسالة تقول لي إن وتيرة حياتي الجنونية ليست سوى

محاولة خرقاء لتهدئة القلق الذي ينتابني من الموت. ألا يقول لي الحلم بأنني يجب أن أُبطئ قليلاً وأهتم بالأشياء التي أقدّرها حقاً؟

أعادت فكرة القيمة باولا إلى تفكيري. لماذا لم أتصل بها؟ فهي واحدة من الذين تحدّين الموت. وتذكّرت كيف كانت توجّه طريقة التأمل في نهاية اجتماعاتنا: عيناها مثبتتان على لهب الشمعة، وصوتها الجهوري يقودنا جميعاً إلى مناطق أكثر عمقاً وأكثر هدوءاً. هل قلت لها يوماً كم كانت تلك اللحظات تعني بالنسبة لي؟ أشياء كثيرة لم أقلها لها قط. أوّد أن أقولها لها الآن. في رحلة عودتي بعد انتهاء جنازة أمي، قررت أن أجدد صداقتي معها.

لكنّي لم أفعل ذلك قط. فقد كانت لديَّ أشياء كثيرة يجب أن أعتني بها: الزوجة، الأبناء، المرضى، الطلاب، الكتابة. كنت أكتب صفحتي كل يوم وأتجاهل الأشياء الأخرى - الأصدقاء والرسائل والمكالمات الهاتفية والدعوات لإلقاء محاضرات. كان يجب أن ينتظر كلّ شيء، كلّ أجزاء جسدي الأخرى في حياتي، حتى ينتهي الكتاب. وكان على باولا أن تنتظر أيضاً.

«بالطبع، باولا لم تنتظر. فقد تلقيت بعد بضعة أشهر رسالة من ابنها - الصبي الذي كنت أحسده لأن لديه أماً مثل باولا، الابن الذي كتبت له منذ سنوات عديدة رسالة رائعة عن دنو أجلها. فقد كتب لي بكلمات بسيطة: «ماتت أمّي، وأنا متأكد من أنها كانت تريدني أن أخبرك بذلك».

3

الراحة الجنوبية

كرّست كلّ وقتي. خمس سنوات. خمس سنوات كاملة، في إدارة علاج مجموعة كلّ يوم في جناح الأمراض النفسية. ففي الساعة العاشرة من صباح كل يوم، أغادر مكتبي المريح الذي تحف جدرانه رفوف مليئة بالكتب في كلية الطب بجامعة ستانفورد، وأركب دراجتي، وأتوجّه إلى المستشفى. وعندما أدخل الجناح، تهب عليّ هبّة من الهواء اللزج المليئة بمحلول اللايسول، وأصبّ قهوتي من إبريق القهوة المشبعة بالكافيين (لا يُسمح بتقديم الكافيين أو التبغ أو الكحول أو ممارسة الجنس للمرضى - أظن أن كلّ ذلك جزء من جهد يهدف إلى جعلهم لا يشعرون بارتياح شديد ولمدة طويلة في المستشفى)، ثم أصفّ الكراسي في شكل دائرة في الغرفة المتعددة الأغراض، وأخرج من جيبي المؤشر، وأدير جلسة علاج جماعي لمدة ثمانين دقيقة.

على الرغم من وجود عشرين سريراً في الجناح، فقد كانت تلك الجلسات تضم أحياناً أربعة أو خمسة مرضى فقط. كنت انتقائياً إلى درجة كبيرة في اختيار المرضى، ولم أكن أقبل إلّا المرضى ذوي الأداء الوظيفي العالي. بطاقة

القبول؟ ثلاثة أشياء رئيسية: الزمان والمكان والشخص. فقد كان على أعضاء المجموعة أن يعرفوا منذ متى جاؤوا ومن هم وأين هم. ومع أنني لم أعترض على أن يكون الأعضاء مصابين بالذُهان (طالما ظلوا هادئين لا يتدخلون في أمور الآخرين)، كنت أصرّ على أن يكون باستطاعة كل فرد منهم أن يتحدّث، وأن يوجه انتباهه لمدة ثمانين دقيقة، ويقرّ بأنه بحاجة إلى المساعدة.

لكل نادٍ مرموق معايير محددة للدخول إليه. ربما جعلت متطلبات القبول التي حدّدتها من أجل العلاج الجماعي التي تُدعى «مجموعة الأهداف» لأسباب سأبينها لاحقاً - مرغوبة أكثر - أما الذين لم يُمنحوا بطاقة قبول - المرضى الأكثر اضطراباً ونكوصاً - فكانوا يُرسلون إلى «مجموعة الاتصال»، المجموعة الأخرى في الجناح التي تعقد جلسات أقصر وأكثر تنظيماً وأقل تطلباً. وبالطبع، كان هناك دائماً أولئك الذين يعيشون في منفى اجتماعي، وأولئك الذين يعانون من ضعف عقلي، أو مشتتي الانتباه، أو عدوانيين، أو مهووسين، الذين لا يمكن استيعابهم في أي مجموعة أخرى. وفي كثير من الأحيان، كان يُسمح لبعض المرضى المضطربين الذين هم في المنفى الاجتماعي حضور مجموعة التواصل بعد أن تجعلهم الأدوية أكثر هدوءاً واستقراراً، ربما خلال يوم أو يومين.

«يُسمح لهم بالحضور»، كانت هذه العبارة ترسم ابتسامة حتى على وجه أكثر المرضى انكفاءاً. لا، لأكون صادقاً، لم

يُشاهد في تاريخ المستشفى كله مرضى مضطربين يخبطون على أبواب غرفة العلاج الجماعي يطلبون الدخول. والمشهد الأكثر شيوعاً هو الجولة التمهيدية للمجموعة، مجموعة من العاملين والممرضات بصدرياتهم البيضاء يجرون في ممرات الجناح، يُخرجون المرضى من مخابئهم في الخزائن والمراحيض والحمّامات، ويجمعونهم في غرفة المجموعة.

كانت مجموعة الأهداف تحظى بسمعة متميزة: كانت صعبة ومثيرة للاهتمام، والأسوأ من كلّ ذلك، لم تكن توجد في الغرفة التي تعقد فيها زوايا - لا يوجد مكان للاختباء فيها - وقد يدخل أحياناً مريض مرتبك يعاني من ضعف الأداء الوظيفي إلى غرفة مجموعة الأهداف، لكن ما إن يعرف أين هو، حتى يتملكه الخوف وتلمع عيناه، ولا يضطر أحد لمرافقته إلى خارج الغرفة. ومع أنه كان من الممكن، من الناحية الفنية، الانتقال من المجموعة ذات المستوى الأدنى إلى المجموعة ذات المستوى الأعلى، لم يمكث سوى قلة قليلة من المرضى في المستشفى لمدة لكي يحدث ذلك. لذلك قُسِّم الجناح إلى فئات: يعرف كل مريض مكانه، لكن أحداً لم يكن يتحدّث عن ذلك.

قبل أن أبدأ إدارة جلسات العلاج الجماعي في المستشفى، كنت أظن أن مجموعات العلاج خارج المستشفى هي أكثر تحدياً وصعوبة. فلم يكن من السهل إدارة مجموعة مؤلفة من سبعة أو ثمانية مرضى خارج المستشفى يعانون من مشاكل أساسية ترتبط بأشخاص آخرين، وكنت أشعر في نهاية

كل جلسة بإرهاق شديد، مُستنزف القوى، وأُعجب كثيراً بالمعالجين الذين يمتلكون قدرة على إدارة جلسة أخرى بعدها مباشرة. لكن عندما بدأت أعمل مع مجموعات من المرضى في المستشفى، بدأت أتذكّر بكثير من الحنين أيام العلاج الجماعي للمرضى خارج المستشفى.

تخيّل مجموعة مرضى في عيادتي الخاص - جلسة متكاملة تضم مرضى متعاونين يتمتعون بدوافع عالية في وغرفة هادئة مريحة، لا يوجد ممرضون يقرعون الباب لإخراج مرضى من الغرفة ليجروا فحوصات مخبرية، أو لأن لديهم مواعيد طبية أخرى، ولا يوجد بينهم مرضى ذوي دوافع انتحارية يلفّون ضمادات حول أرسغهم، أو مريض يرفض أن يتكلّم، أو مريض تناول دواء مخدراً وغطّ في النوم وراح يشخر أثناء الجلسة، والأهم من كلّ ذلك، يحضر كل جلسة نفس المرضى، ونفس المعالج المساعد، أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر. يا لها من رفاهية. إنها السعادة القصوى للمعالج. وعلى النقيض من ذلك، فإن مشهد مجموعات مرضى العلاج الجماعي في المستشفى مثيرة للفزع - التغيير السريع والمستمر للمرضى، والنوبات الذُهانية المتكررة، ومرضى مخادعون أنهكتهم عشرون سنة من الاكتئاب أو الفصام ولم يشهدوا أي تحسن، بالإضافة إلى مستوى اليأس الذي يسود الغرفة.

أما القاتل الحقيقي في هذا العمل فهو البيروقراطية التي تسود المستشفيات وشركات التأمين الصحي التي يجوب

أفرادها أجنحة المستشفى، ويحشرون أنوفهم في سجلات المستشفى، ويأمرون بإخراج مريض مضطرب ويائس كان أداؤه جيداً بعض الشيء في اليوم السابق لكن لا توجد في سجله مذكرة موقعة من طبيب تنصّ صراحةً على أنه شخص ذو ميول انتحارية أو خطر.

هل كان هناك حقاً وقت، ليس منذ زمن بعيد، كانت تنطوي فيه رعاية المريض على أهمية قصوى؟ متى كان الأطباء يُدخلون المرضى إلى المستشفى ويبقوهم فيه حتى يتماثلون للشفاء؟ أليس كلّ هذا مجرد حلم؟ لم أعد أتحدّث عن ذلك كثيراً، ولم أعد أجازف بابتسامات طلابي بالتحدث عن تلك الحقبة الذهبية عندما كان الإداريون في المستشفى يساعدون الطبيب على مساعدة المريض.

إن المفارقات البيروقراطية تدعو إلى الجنون. خذ مثلاً حالة جون، وهو رجل متوسط العمر، مصاب بالبارانويا، لديه شيء من التخلف العقلي، عندما هوجم ذات يوم في ملجأ للمشردين، بدأ يتجنب ملاجئ المشردين التي ترعاها الولاية، وأصبح ينام في الشارع. كان جون يعرف كلمات المستشفى الافتتاحية السحرية. ففي الليالي الباردة والممطرة، يخدش معصميه عند منتصف الليل أمام غرفة الطوارئ في المستشفى، ويهدد بأن يجرح نفسه جروحاً عميقة إذا لم تجد له الولاية سريراً ينام فيه. لكن لم تكن لدى أي هيئة في الولاية سلطة لتوفير عشرين دولاراً لاستئجار غرفة يأوي فيها، وبما أن الطبيب المناوب في غرفة الطوارئ غير متأكد

- وهذا أمر مؤكد من الناحيتين الطبية والقانونية - من أن جون لن يُقدم على الانتحار إذا أُرغم على أن يمضي ليلته في مأوى للمشردين. وهكذا كان جون يمضي عدة ليال كلّ سنة ينام فيها بهدوء في غرفة في مستشفى تبلغ تكلفتها 700 دولار في اليوم، وذلك بفضل نظام تأمين طبي غير كفء وغير إنساني.

إن ممارسة الاستشفاء النفسي الحالية مجدية لفترة قصيرة من الزمن إذا لم يكن هناك برنامج مناسب للمرضى بعد خروجهم من المستشفى. وفي عام 1972، ألغى حاكم الولاية رونالد ريغان بجرَّة قلم جريئة وذكية المرض العقلي في كاليفورنيا فلم يغلق مستشفيات الأمراض النفسية الكبيرة في الولاية فحسب، وإنما ألغى معظم برامج الرعاية اللاحقة العامة أيضاً. ونتيجة لذلك، أُرغم العاملون في المستشفيات، يوماً بعد يوم، على أداء تمثيلية بعلاج المرضى وإخراجهم من المستشفى ثم إعادتهم إلى نفس المكان المؤذي الذي جعلهم يدخلون المستشفى في البداية. كان ذلك أشبه بخياطة جراح جنود وإعادتهم إلى المعركة. تخيّل أنك تبذل كلّ ما بوسعك لرعاية المرضى: مقابلات أولية، وجولات يومية، ومحاضرات للأطباء النفسيين المعالجين، وجلسات تخطيط للعاملين، وجلسات عمل لطلاب الطب، وكتابة تقارير وتعليمات في سجلات المستشفى، وجلسات علاج يومية - وأنت تعلم طوال الوقت أنه بعد بضعة أيام لن يكون هناك خيار إلّا إعادتهم أن إلى نفس البيئة الخبيثة التي كانت قد

تقيأتهم وتخلّت عنهم، ليعودوا إلى أسر عنيفة مدمنة على الكحول، وأزواج غاضبين نفد حبّهم وصبرهم منذ زمن طويل، وإلى العربات المليئة بالخرق البالية، والنوم في سيارات مهترئة، والعودة إلى مجتمع من الأصدقاء المهووسين بتعاطي الكوكايين وتجار المخدرات الذين لا يعرفون الرحمة الذين ينتظرونهم خارج أبواب المستشفى.

سؤال: كيف يمكننا نحن المعالجين الحفاظ على الصحة العقلية؟ الجواب: أن نتعلم كيف نزرع النفاق.

بهذه الطريقة كنت أهدر وقتي. في البداية تعلّمت كيف أكبت اهتمامي - المنارة التي قادتني إلى هذه المهنة، ثم أتقنت قواعد العيش والاستمرار في هذه المهنة وهي: تجنّب المشاركة - لا تبدي أهمية كبيرة للمرضى لأنهم سيغادرون المستشفى غداً، لا تُشغل نفسك بخطط علاجية بعد إخراجهم. تذكّر أن الصغير جميل - اكتفِ بالأهداف الصغيرة - لا تحاول أن تحقق أشياء كثيرة - لا تعدّ نفسك للفشل. فإذا تعلّم مرضى العلاج الجماعي أن التكلّم يساعد، وأن الاقتراب من الآخرين يمنح شعوراً جيداً، وأنهم قد يكونون مفيدين للآخرين - فهذا إنجاز كبير.

شيئاً فشيئاً، بعد عدة أشهر محبطة من إدارة مجموعات يحضرها مرضى جدد ويغادروها آخرون كلّ يوم، تعلّمت أموراً كثيرة، ووجدت طريقة لتحقيق أقصى استفادة من هذه الجلسات الجماعية المشتتة، وقد تمثّلت الخطوة الأساسية في تغيير الفترة الزمنية التي أمضيها.

سؤال: ما هو العمر الافتراضي لعلاج جماعي في جناح الطب النفسي في المستشفى؟ الجواب: جلسة واحدة.

تستمر جلسات العلاج الجماعي في العيادات الخارجية بضعة أشهر أو حتى سنوات، لأن بعض المشكلات تتطلب فترة من الزمن لكي تظهر وتُحدّد بدقة والعمل على تغييرها. ففي العلاج طويل الأجل، يوجد وقت «للعمل» - وحلّ المشكلات وإشراك المرضى مرات عديدة (ومن هنا نشأ مصطلح المُعالَجَةُ الدَوْرَوِيَّةُ). أما في مجموعات العلاج الجماعي في المستشفى، فلا يوجد استقرار، ولا تتاح إمكانية التطرق إلى أي موضوع، لأن الأشخاص يتغيّرون بسرعة كبيرة. وفي السنوات الخمس التي أمضيتها في الجناح، قلما رأيت نفس أشخاص المجموعة في جلستين متتاليتين، ومن المستحيل أن أراهم في ثلاث جلسات. ولم أر عدداً كبيراً من المرضى سوى مرة واحدة، حضروا جلسة واحدة وأُخرجوا من المستشفى في اليوم التالي، لذلك، أصبحتُ المعالج النفعي استناداً إلى مبدأ جون ستيورات ميل، وبذلت كل ما بوسعي لأقدّم أكبر قدر من الفائدة لأكبر عدد من المرضى في جلسة واحدة.

ربما كان تحويل العلاج الجماعي في المستشفى إلى شكل فني هو الذي مكنني من البقاء ملتزماً بمهمة لم تعد مجدية بفعل قوى خارجة عن إرادتي. فقد خُيّل إليَّ أنني كوّنت جلسات علاج جماعي رائعة. جلسات جميلة من الناحية التقنية. فعندما اكتشفت في وقت مبكر من حياتي أنني

لا أستطيع أن أتقن الغناء أو الرقص أو الرسم أو العزف على آلة موسيقية، قلت لنفسي مستسلماً إنني لن أصبح فناناً في حياتي، لكنّي غيّرت رأيي عندما بدأت أنحتُ جلسات العلاج الجماعي. ربما كنت موهوباً. لعلي وجدت ضالتي، لأن المرضى أحبّوا هذه الجلسات. كان الوقت يمضي بسرعة، وكنا نستمتع بلحظات جميلة ومثيرة. فقد علّمت الآخرين ما كنت قد تعلّمته، وأُعجب بها الطلاب الذين يحضرون تلك الجلسات كمراقبين، وألقيتُ محاضرات، وكتبتُ كتاباً عن جلسات العلاج الجماعي للمرضى النزلاء في المستشفى.

ومع مضي السنوات، بدأت أشعر بالملل. إذ أصبحت الجلسات تبدو لي رتيبة ومكررة. وكانت هناك أشياء كثيرة يستطيع المرء أن يفعلها في جلسة واحدة، وبدأتُ أتوق للمزيد. أردتُ أن أسبر الأعماق أكثر، وأن أُبدي اهتماماً أكبر بحياة المرضى، فتوقفت عن إجراء جلسات علاج جماعي للمرضى النزلاء في المستشفى منذ عدة سنوات، وبدأت أركّز على أنماط علاج أخرى. لكن كلّ ثلاثة أشهر، عندما يدخل إلى الخدمة أطباء مقيمون جدد، كنت أقود دراجتي الهوائية من مكتبي في كلية الطب إلى جناح المرضى الداخليين طوال أسبوع، أعلّمهم سبل قيادة العلاج الجماعي للمرضى في المستشفى.

لذلك جئت اليوم. لكنني لم أكن متحمساً، أشعر بثقل في قلبي. كنت ما أزال ألعق جراحي. فلم يمض على وفاة

أمي سوى ثلاثة أسابيع، وقد أثّرت وفاتها كثيراً على ما سيحدث في جلسات العلاج الجماعي التي أديرها.

عندما دخلتُ الغرفة، نظرتُ حولي ورأيت على الفور وجوه الأطباء الشبان الثلاثة المقيمين الجدد الممتلئين حماسة. كعادتي، شعرت بموجة من المودة تجاه طلابي، ولم أرغب في شيء أكثر من أن أمنحهم شيئاً - عرض توضيحي جيد، طريقة متفانية في التدريس والدعم الذي تلقيته عندما كنت في عمرهم، لكن عندما مسحتُ الغرفة بعينيّ، هبطت معنوياتي. لم تكن رؤية فوضى الأدوات الطبية - عواميد عُلِّقت عليها حقن وريدية، وأجهزة قسطرة، وشاشات مراقبة القلب، وكراسي معوّقين - وقد ذكّرني ذلك بأن هذا الجناح الخاص للمرضى النفسيين الذين يعانون من أمراض طبية حادة والذين قد لا يستجيبون للعلاج بالكلام، لا، إن ما جعل معنوياتي تهبط هي رؤية المرضى أنفسهم.

كان في الغرفة خمسة مرضى جلسوا في صفّ واحد، وكانت رئيسة الممرضات قد وصفت لي حالتهم بالهاتف. أولاً، هناك مارتن، رجل مسنّ يجلس في كرسي متحرك مصاب بضمور عضلات شديد، رُبط بحزام في كرسيه وغُطيَّ حتى خصره بملاءة لم يُر منها سوى جزء قليل أسفل ساقيه - غصنان رفيعان يخلوان من اللحم يكوسهما جلد داكن. وقد لُفَّت إحدى ذراعيه بضمادات ثقيلة مشدودة بإطار خارجي: لا شك أنه جرح رسغه. (عرفتُ لاحقاً أن ابنه الذي ملّ من

رعايته طوال ثلاثة عشر سنة، استقبل محاولة انتحاره بقوله: «حتى أنك أخطأت في هذه»).

بجانب مارتن، جلست دوروثي، امرأة أصيبت منذ سنة بشلل نصفي عندما حاولت أن تضع حداً لحياتها وقفزت من نافذة في الطابق الثالث. كانت في حالة ذهول شديد حتى أنه لم يكد بإمكانها أن ترفع رأسها.

ثم تليها روزا وكارول، شابتان مصابتان بفقدان الشهية المرضي (القَهَم)، وقد عُلِّقت بذراع كل منهما حقنة في الوريد لأنهما تتغذيان عن طريق الوريد لأن كيمياء دمهما غير متوازنة من التطهير الذاتي، وكان وزنهما منخفضاً على نحو خطير. كانت هيئة كارول مقلقة كثيراً: فعلى الرغم من أن ملامح وجهها تكاد تكون كاملة، لا يكاد يوجد شيء يكسو اللحم. وعندما كنت أنظر إليها، أرى أحياناً وجه طفلة رائعة الجمال، وأحياناً جمجمة على وجهها ابتسامة.

وأخيراً، تجلس ماغنوليا، امرأة سوداء شعثاء، بدينة، في السبعين من عمرها، ساقاها مشلولتان، ويُعتبر شللها لغزاً طبياً. وقد أُصلحت نظارتها السميكة ذات الحواف الذهبية بشريط لاصق، وُثبّتت على شعرها قبعة صغيرة من الدانتيل. دُهشت عندما قدّمت نفسها بالطريقة التي نظرت فيها إليَّ بعينيها البنيتين الكريمتين المليئتين بالكرامة بسحرهما الجنوبي. قالت: «أنا سعيدة جداً بلقائك يا دكتور. لقد سمعت أشياء جيدة عنك». كانت الممرضات قد أخبرنني أن

ماغنوليا الجالسة بهدوء وصبر في كرسيها المتحرك، تصبح هائجة في أحيان كثيرة وتتخيّل حشرات وهمية تزحف على جلدها.

تمثّلت خطوتي الأولى في أن يجلس المرضى في شكل دائرة، وطلبت من الأطباء المقيمين الثلاثة أن يجلسوا وراء المرضى، بعيدين عن رؤيتهم المباشرة. بدأت الجلسة كما أفعل دائماً بتعريف الأعضاء بالعلاج الجماعي. عرّفتهم على نفسي، واقترحتُ أن نستخدم الأسماء الأولى، وقلت لهم إنني سأبقى معهم أربعة أيام، «سيدير الجلسة بعدها الطبيبان المقيمان»، وذكرت أسميهما وأشرت إليهما، وتابعت: «والهدف من المجموعة مساعدة كل واحد منكم على التعرّف أكثر عن علاقاتكم مع الآخرين». وبينما كنت أنظر إلى هذا الدمار البشري أمامي - أطراف مارتن الذاوية، ابتسامة الموت البادية على وجه كارول كأنها قناع، أكياس التغذية بالوريد التي تمدّ روزا وكارول بالمغذيات الحيوية التي رفضتا أن تتناولها بالفم، وقنينة بول دوروثي التي يتجمع فيها البول الذي يخرج من مثانتها المشلولة، وساقيّ ماغنوليا المشلولتين - بدت كلماتي زائفة وسخيفة. فقد كان هؤلاء الأشخاص بحاجة إلى الكثير، «والمساعدة على إقامة علاقات بينهم»، بدت قليلة مثيرة للرثاء. لكن ما الهدف من التظاهر بأنه يمكن أن تفعل هذه المجموعات أكثر مما تستطيع؟ تذكّر مقولتك التي أذكّر بها نفسي دائماً: الصغير جميل. الصغير جميل - أهداف صغيرة، نجاحات صغيرة.

كنت قد أشرت إلى مجموعة المرضى الداخليين بأنها «مجموعة الأهداف» لأنني أبدأ الجلسة دائماً بأن أطلب من كل شخص أن يحدّد هدفاً معيناً أعمال - جانباً في نفسه يريد أن يغيّرها - إذا تعمل المجموعة بشكل أفضل لو كانت أهداف أعضائها تتعلق بمهارات العلاقات - خصوصاً بشيء يمكن العمل عليه في الحاضر «هنا - والآن» في المجموعة. ويشعر المرضى الذين دخلوا المستشفى نتيجة مشاكل حياتية رئيسية بالحيرة بالتركيز على العلاقات ويمكنهم إدراك أهمية الأهداف بالنسبة لهم، وأجيبهم دائماً، «أعرف أنه قد لا يكون سبب دخولكم المستشفى العلاقات المضطربة، لكنّي وجدت على مدى السنوات أن كلّ شخص عانى من ضائقة نفسية كبيرة يمكنه أن يستفيد بتحسين أسلوبه في التواصل مع الآخرين. وتكمن النقطة الهامة في أننا نستطيع أن نحقق أقصى فائدة من هذه الجلسة لو ركزنا على العلاقات لأن هذا أفضل شيء تقوم به المجموعات. إنها القوة الحقيقية للعلاج الجماعي».

يصعب تحديد أهداف مناسبة، وحتى بعد حضور بعض الجلسات، نادراً ما يتمكن أعضاء المجموعة من فهمها، لكنّي أقول لهم لا تقلقوا: «مهمتي أن أساعدكم»، لكن هذه العملية تستغرق 50 في المائة تقريباً من وقت الجلسة بصورة عامة، ثم أكرّس ما تبقى من الوقت لمناقشة أكبر عدد ممكن من الأهداف. ولا يكون الفاصل بين تحديد الأهداف ومناقشتها حاداً دائماً. إذ يُعتبر تحديد الأهداف بالنسبة لبعض

المرضى هو العلاج. إذ يُعدّ تعلّم تحديد مشكلة وطلب المساعدة لحلّها علاجاً كافياً بالنسبة لكثير من المرضى في الفترة القصيرة التي نمضيها معاً.

بدأت روزا وكارول، المصابتان بفقدان الشهية المرضي بالكلام، وادّعت كارول بأنها لا تعاني من أي مشكلة، وأنها لا تريد أن تحسّن علاقاتها مع الآخرين، وقالت بشكل قاطع: «على العكس تماماً، فإن ما أريده هو أن أقلل من تواصلي مع الآخرين». وعندما علّقت بأنني لم أعرف قط أحداً لا يريد أن يغيّر شيئاً في نفسه، قالت إنها تخاف غالباً من غضب الآخرين، خصوصاً والديها اللذين يحاولان دائماً على إرغامها على تناول الطعام. ثم اقترحت هدفاً، بقليل من الاقتناع، وقالت: «سأحاول أن أكون جازمة في هذه الجلسة».

ولم تبد روزا أيضاً رغبة في تحسين علاقاتها، وقالت إنها تريد أيضاً أن تبقى منعزلة عن الآخرين لأنها لا تثق بأحد: «يسيء الناس دائماً فهمي ويحاولون تغييري». محاولاً أن أضيف بُعد «هنا والآن» إلى هدفها، سألتها: «هل سيكون ذلك مفيداً لكي تفهمك هذه المجموعة اليوم؟» فقالت: «ربما»، لكنها حذرتني بأنها تجد صعوبة في أن تتحدث في وجود أشخاص آخرين، وأضافت: «أشعر دائماً بأن الآخرين أفضل مني، أفضل مني بكثير».

وقالت دوروثي التي يسيل اللعاب من فمها، ورأسها

محني كثيراً لتتفادى أي تواصل بالعين، في همس يائس ولم تعطني شيئاً. قالت إنها مكتئبة إلى درجة أنها لا تستطيع أن تشارك في المجموعة وأن الممرضات أخبرنها أنه يكفيها أن تستمع فقط. عندما أدركت أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلها، التفتُّ إلى المريضين الآخرين.

«لا يوجد لديَّ أمل في أن يحدث لي أي شيء جيد مرة أخرى»، قال مارتن الذي نحل جسده كثيراً والذي ماتت زوجته وجميع من يعرفهم في ماضيه، ولم يتحدّث مع صديق منذ سنوات طويلة، وقد ملّ ابنه من رعايته والعناية به، ثم قال: «دكتور، لديك أشياء أهمّ يمكنك أن تركز عليها فلا تضع وقتك»، وأضاف، «لنواجه الأمر - لا يمكن لأحد أن يساعدني. كنت بحاراً جيداً ذات يوم، وكنت أستطيع أن أفعل كلّ شيء على ظهر السفينة. كان يجب أن تراني وأنا أجري إلى عش الغراب. لم يكن هناك شيء لم يكن بإمكاني أن أفعله هناك. لم يكن هناك شيء لا أعرفه، أما الآن، فما الذي يمكن أن يقدّمه لي أي شخص؟ ماذا يمكنني أن أقدّم لأي شخص؟»

عرضت ماغنوليا هدفها، وقالت: «أحب أن أتعلّم أن أستمع أكثر في هذه المجموعة. ألا تظن أن ذلك سيكون شيئاً جيداً يا دكتور؟ كانت أمي تقول لي دائماً من المهم أن أكون مستمعة جيدة».

يا إلهي! ستكون جلسة طويلة، طويلة. كيف يمكنني أن

أملأ بقية الوقت؟ بينما كنت أحاول أن أتمالك نفسي، أحسست بحافة الذعر تتسرب إلى داخلي. سيكون هذا درس عملي ممتاز للأطباء المقيمين. انظروا إلى المرضى الذين أعمل معهم: فلن تقول دوروثي كلمة واحدة، وتريد ماغنوليا أن تتعلّم كيف تستمع إلى الآخرين، ولا يوجد لدى مارتن الذي تخلو حياته من الناس شيئاً يمكن أن يقدمه لأي شخص. (قلت في نفسي: لديَّ فرصة ضئيلة لأن أقول أي شيء). فقد كنت متأكداً من أن هدف كارول بأن تكون جازمة أكثر وألّا تخاف من أي صراع جعلني أشعر بفراغ. فهي ستعبّر بالحركات فقط بأنها تتعاون معي. وبغية تشجيع أحد على تأكيد ذاته، فإني أحتاج إلى مجموعة نشطة يمكنني أن أتفاعل معها وأحثّ بواسطتها بعض المرضى على طلب للتعبير عن آرائهم بصراحة. وستكون اليوم أشياء قليلة قد تكون كارول حازمة إزاءها. لقد منحتني روزا بصيصاً من الأمل - قناعتها بأن الآخرين يسيئون فهمها، وأنها أقل شأناً من الآخرين. ربما كان هناك شيء يمكنني أن أتعلّق به.

بدأت بخوف كارول من تأكيد ذاتها وطلبت منها أن تعبّر عن انتقاد ما، مهما كانت طفيفاً، حول الطريقة التي أدير بها هذه الجلسة حتى الآن، لكنها أحجمت وأكدت لي أنها ترى أنني شخص متعاطف وماهر إلى درجة كبيرة.

التفتُّ إلى روزا. لم يكن هناك أحد آخر. ورداً على اقتراحي بأن تقول أكثر بأن الآخرين أكثر أهمية منها، وصفت كيف أنها أفسدت كل شيء - «تعليمي، علاقاتي،

جميع الفرص في حياتي». حاولتُ أن أجلب تعليقاتها إلى «هنا - والآن» (التي تعمل على تقوية العلاج دائماً).

اقترحت قائلاً: «انظري حولك في الغرفة، وحاولي أن تصفي كيف أن الأعضاء الآخرين أهمّ منك».

فقالت، وهي تتهيأ لهذه المهمة: «سأبدأ بكارول، إنها فتاة جميلة، لا أتوقف عن النظر إليها. إن النظر إليها مثل النظر إلى لوحة عظيمة، وأغار من جسدها. فهو مسطح، متناسق تماماً، أما جسدي - انظر إليَّ، فأنا بدينة ومنتفخة. انظر إلى هذا»، وقرصت روزا أسفل بطنها لترينا طية لحم قطرها ثماني بوصات بين إبهامها وسبابتها.

هذا هو جنون فقدان الشهية المرضي. ومثل العديد من المصابين بفقدان الشهية المرضي، كانت روزا ماكرة وارتدت عدة طبقات من الثياب الملابس ليسهل نسيان هزالها. لم يكن وزنها يزيد على ستة وثلاثين كيلوغراماً. وكان من الجنون أن تُعجب بكارول الأنحف منها. منذ شهر، عندما كنت مناوباً واتصلوا بي لأن كارول أُغمي عليها، وصلت إلى الجناح عندما كانت الممرضات يحملنها إلى سريرها. فُتح رداء المستشفى الذي ترتديه وكشف عن ردفيها اللذين نتأت منهما عظام فخذيها، ذكّرتني بصور الناجين من معسكرات الاعتقال النازية المروعة. لكن لم تكن هناك جدوى من مناقشة تقييم روزا بأنها سمينة. إن تشوهات صورة أجساد مرضى فقدان الشهية المرضية عميقة جداً - تحديتهما في هذا الأمر عدة

مرات في مجموعات عديدة، وأدركت أنني لا يمكن أن أفوز في مناقشة كهذه.

تابعت روزا المقارنة التي تجريها. لقد تناول مارتن ودوروثي مشاكل أهم بكثير من مشاكلها، فقالت: «أتمنى أحياناً لو أنه يوجد في جسدي شيء على غير ما يرام كالشلل، لشعرت بشرعية أكبر». دفع ذلك دوروثي لأن ترفع رأسها، وتبدي أول تعليق لها (والوحيد) في المجموعة، فهمست بصوت أجش: «تريدين ساقين مشلولتين؟ خذي ساقيَّ».

لدهشتي الكبيرة، اندفع مارتن للدفاع عن روزا، وقال: «لا، لا، يا دوروثي - هل سمعت الاسم الصحيح؟ إنها دوروثي، أليس كذلك؟ لم تقصد روزا ذلك. أعرف أنها لم تقصد أنها تريد ساقيكِ أو ساقيَّ. انظري إلى ساقيَّ. انظري إليهما. فقط انظري إليهما. من له عقل سليم يريدهما؟» وبيده السليمة، أزاح مارتن الغطاء وأشار إلى ساقيه. كانتا مشوهتين على نحو مخيف، تنتهيان بعقدتين أو ثلاث عقد متغضنة، وقد تعفَّنت بقية أصابع قدمه تماماً. لم تنظر دوروثي ولا أي شخص آخر طويلاً إلى ساقيّ مارتن. حتى أنني أحجمت أنا أيضاً عن النظر إليهما على الرغم من تدريبي كطبيب.

تابع مارتن كلامه، وقال: «كانت روزا تستخدم استعارة فقط. فقد قصدت أنها تريد أن تكون مصابة بمرض أكثر بروزاً، مرض يمكنك رؤيته. إنها لم تقصد أن تقلل من حالتنا. أليس كذلك روزا ؟»

فاجأني مارتن. فقد ظننت أن تشوهه يخفي ذكاءه الحاد. لكنه لم ينه كلامه.

فتابع قائلاً: «هل تمانعين لو سألتك شيئاً يا روزا؟ لا أقصد أن أكون فضولياً، لذلك لست مضطرة لأن تجيبي إذا أردت».

فردت روزا: «اسأل، لكن قد لا أجيب على سؤالك».

«ما هي حالتك؟ أقصد ما هي مشكلتك؟ فأنتِ نحيفة جداً، لكن لا يبدو أنك مريضة. لماذا تأخذين تلك الحقنة في الوريد؟» سألها، وأشار نحوها.

«أنا لا آكل. إنهم يغذونني بهذه الأشياء».

«لا تأكلين؟ ألا يسمحون لك بأن تأكلي؟»

«لا، إنهم يريدون أن آكل، لكنّي لا أريد». قالت روزا وهي تخلل شعرها بأصابعها كأنها تحاول أن تجمّل نفسها.

«ألستِ جائعة؟» أصرّ مارتن.

«لا».

أُعجبت بهذا الحديث المتبادل بينهما. وبما أن الجميع يتعاملون دائماً مع مرضى اضطرابات الأكل (الذين يأخذون موقفاً دفاعياً قوياً، ويكونون في غاية الهشاشة، وكثيراً من الإنكار) لم أر مريضاً مصاباً بفقدان الشهية المرضي يُواجه بهذه الجرأة قط.

«أنا جائع دائماً»، قال مارتن، «كان يجب أن تري ما الذي تناولته على الإفطار اليوم: حوالي اثني عشر فطيرة بانكيك، وبيض، وعصير برتقال»، صمت متردداً، ثم أضاف: «لا تأكلين؟ ألا توجد لديك شهية للأكل أبداً؟»

«لا، ليس بقدر ما تسعفني ذاكرتي. فأنا لا أحبّ أن آكل».

«ألا تحبين الأكل؟»

رأيت مارتن يحاول أن يفهم ذلك. كان محتاراً حقاً - كما لو أنه التقى للتو بشخص لا يستمتع بالتنفّس، ثم قال: «كنت آكل كثيراً. كنت أحبّ أن آكل دائماً. عندما كانت أسرتي تأخذني في نزهة بالسيارة، كانوا يأخذون معهم دائماً فستق ورقائق البطاطا. كانوا يطلقون عليَّ اسم التحبّب هذا».

«ما هو؟» سألته روزا التي أدارت كرسيها قليلاً نحو مارتن.

«السيد كريسب. جاء أبي وأمي من إنكلترا وكانا يطلقان على رقائق البطاطا اسم «كريسب»، فأطلقوا عليّ اسم مستر كريسب. كانا يحبّان الذهاب إلى الميناء لمشاهدة السفن الكبيرة التي ترسو فيه. كانا يقولان: 'تعال يا مستر كريسب، لنذهب كلنا في نزهة بالسيارة، فأجري إلى سيارتنا - كانت السيارة الوحيدة في البناية التي نسكن فيها. بالطبع كانت ساقايّ سليمتين مثل ساقيك تماماً يا روزا». انحنى مارتن إلى الأمام في كرسيه المتحرك ونظر إلى الأسفل. «يبدو أن لديك

ساقين جيدتين - نحيفتين قليلاً لكن لا يكسوهما لحم. كنت أحب أن أركض كثيراً...»

خفت صوت مارتن. جعّدت الحيرة وجهه وهو يعيد الغطاء فوق ساقيه. «لا تحبين أن تأكلي»، كرر كأنه يقول ذلك لنفسه، «كنت أحبّ الطعام دائماً. أظن أن كثيراً من المتعة قد فاتتك».

هنا قالت ماغنوليا التي كانت تنصت باهتمام إلى مارتن: «روزا، لقد ذكّرتني عندما كان ابني دارنيل صغيراً. لم يكن يأكل أحياناً أيضاً. هل تعرفين ماذا كنت أفعل؟ كنت أغيّر المشهد. كنا نركب السيارة ونذهب إلى جورجيا - كنا نعيش بالقرب من الحدود، وكان يأكل في جورجيا. يا إلهي، كم كان يأكل في جورجيا. كنا نمازحه حول شهيته الجورجية. عزيزتي «- هنا انحنت ماغنوليا نحو روزا وخفضّت صوتها إلى همس -» ربما ينبغي لك أن تذهبي إلى كاليفورنيا لكي تأكلي».

محاولاً أن أجد شيئاً علاجياً من هذه المناقشة، أوقفت المناقشة (في المصطلح الطبي، تدعى «عملية اختبار الأداء») وطلبت من الأعضاء أن يفكّروا في تفاعلهم.

«روزا، ما هو شعورك عما يجري الآن في المجموعة، حول أسئلة مارتن وماغنوليا؟»

«لا بأس بالأسئلة - لا يوجد لديّ اعتراض عليها، وأنا أحب مارتن...»

سألتها: «هل يمكنك أن تتحدّثي إليه مباشرة؟»

التفتت روزا إلى مارتن، وقالت: «أنا أحبك. لا أعرف لماذا»، ثم التفتت إليَّ وقالت: «إنه موجود هنا منذ أسبوع، لكن هذه أول مرة أكلّمه اليوم في هذه المجموعة. يبدو أنه توجد لدينا أشياء مشتركة كثيرة، لكنّي أعرف أنه لا توجد».

«هل تشعرين أنكِ مفهومة؟»

«مفهومة؟ لا أعرف. حسناً، نعم، بطريقة مضحكة. ربما هذا كل شيء».

«هذا ما رأيته. رأيت مارتن يبذل كل ما بوسعه لكي يفهمك. ولم يحاول أن يفعل أي شيء آخر - لم أسمعه يحاول أن يوجهك أو يقول لك ما الذي يجب أن تفعليه، أو حتى أنه لم يقل إنك يجب أن تأكلي».

«من الجيد أنه لم يحاول أن يقول لي ذلك، لأن ذلك لن يجدي نفعاً». هنا التفتت روزا إلى كارول، وتبادلتا ابتسامات تشيء بالتواطؤ. كرهت مؤامراتهما القبيحة. أردت أن أهزهما بشدة حتى تطقطق عظامهما. أردت أن أصرخ: «توقفا عن شرب كولا دايت تلك. ابتعدا عن تلك الدراجات الثابتة اللعينة. هذه ليست نكتة. إنكما تبعدان عن الموت بخمسة أو ستة باوندات فقط، وعندما تموتان، ستوصف حياتكما كلها بثلاث كلمات تُكتب على شاهدة القبر: «لقد متُّ نحيفة».

لكني بالطبع احتفظت بهذه المشاعر لنفسي، لأنها لن تؤدي إلّا إلى قطع أي خيط رفيع متبق من العلاقة التي أقمتها معهما، فقلت لروزا: «هل تدركين أنه من حديثك مع مارتن، حققتِ جزءاً من هدفك اليوم؟ فقد قلتِ إنك تريدين أن يفهمك أحد، ويبدو أن مارتن قد فهمك».

ثم التفتُّ إلى مارتن، وقلت: «ما هو شعورك إزاء ذلك؟»

حدّق مارتن في وجهي. ربما كان ذلك التفاعل الأكثر حيوية الذي بدر منه منذ سنوات.

قلت أذكّره: «تذكّر أنك بدأت هذه الجلسة بالقول إنه لم يعد بإمكانك أن تفيد أحداً. سمعت أن روزا تقول إنك كنت مفيداً لها. هل سمعت ذلك أيضاً؟»

هزّ مارتن رأسه. رأيت عينيه تلمعان وبدا متحمساً ليتحدّث أكثر، لكن كان ذلك كافياً. فمن خلال أصغر الفتحات، أنجزت عملاً جيداً مع مارتن وروزا. على الأقل لن نخرج خاليي الوفاض (وأعترف أنني كنت أفكّر في الأطباء المقيمين بقدر ما كنت أفكّر في المرضى).

ثم التفتُّ إلى روزا، وسألتها: «ما هو شعورك حول ما قالته ماغنوليا لك اليوم؟ لست متأكداً بأنه من الممكن أن تغادري كاليفورنيا لتأكلي، لكن ما رأيته أن ماغنوليا تمدّ لك يد المساعدة».

«تمدّ؟ قالت روزا، «أنا مندهشة من سماعك تقول ذلك. لا أظن أن ماغنوليا تمدّ يد المساعدة. فالعطاء طبيعي بالنسبة لها، إنه كالتنفّس بالنسبة لها. إنها روح نقية. كم أتمنى أن آخذها معي إلى بيتي أو أذهب معها إلى بيتها».

«عزيزتي» قالت ماغنوليا لروزا مع ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها، «لا أظن أنك تريدين أن تأتي إلى بيتي لأنني لم أستطع أن أبخرّه. ما تزال تعود». يبدو أن ماغنوليا تتكلم عن هلوساتها بالحشرات.

فقالت روزا والتفتت إليَّ: «يجب أن توظفّوا ماغنوليا، فهي التي تساعدني حقاً. وليس أنا فقط. الجميع. حتى الممرضات يأتين إلى ماغنوليا لحلّ مشاكلهن».

«تشيلي، إنك تفعلين أشياء كثيرة بدون مقابل. إنك لا تملكين أشياء كثيرة. فأنت هزيلة جداً، لكن قلبك كبير. إنك تجعلين الناس يحبونك، وهم يشعرون بالراحة لمساعدتك. لا بد أن هذا دواء».

«لا بد أن هذا دواء يا دكتور»، كررت ماغنوليا، «دعني فقط أساعد أناسنا».

لبضع لحظات لم أستطع أن أقول كلمة واحدة. أدهشتني ماغنوليا - بهاتين العينين الحكيمتين، بتلك الابتسامة الجذابة، وذلك الحضن الوافر، وهاتين الذراعين اللتين تشبهان ذراعيّ أمي بطياتهما السخية من اللحم التي تتدحرج إلى الأسفل لتخفي مرفقيها. كيف سأشعر لو ضمتني

هاتان الذراعان كأنهما وسادة بلون الشوكولاتة؟ تذكّرت جميع الضغوط التي تعرضت إليها في حياتي - الكتابة والتعليم وتقدم المشورة والمرضى والزوجة والأبناء الأربعة والالتزامات المالية والاستثمارات، والآن موت أمي. قلت في نفسي إنني أحتاج إلى قسط من الراحة. راحة - ماغنوليا - هذا ما أحتاج إليه. الراحة بين ذراعيّ ماغنوليا الكبيرتين. تذكرت لازمة أغنية قديمة تغنيها جودي كولينز تقول: «أوقات حزينة كثيرة... أوقات سيئة كثيرة... لكن إذا استطعت... احزم أحزانك كلها واعطها لي... لأنك ستفقدها... وأنا أعرف كيف أستخدمها... أعطها لي كلّها».

لم تخطر ببالي هذه الأغنية منذ زمن بعيد. منذ سنوات طويلة عندما سمعت صوت جودي كولينز الناعم لأول مرة وهي تغني: » احزم أحزانك كلها واعطها لي» أشعلت الرغبة في أعماقي. أردت أن أصعد وأقف فوق جهاز المذياع لأرى تلك المرأة وأصبّ أحزاني في حضنها.

أفاقتني روزا من حلمي وقالت: «دكتور يالوم، كنت قد سألت لماذا أظن أن الآخرين الموجودين هنا أفضل مني. حسناً، يمكنك أن ترى الآن ما الذي أقصده. ترى كم أن ماغنوليا امرأة مميزة. ومارتن أيضاً. كلاهما يهتمان بالآخرين. كان الناس - أهلي وأخواتي - يقولون لي دائماً إنني أنانية. كانوا محقين. فأنا لا أفعل شيئاً لأي شخص. لا يوجد لديّ شيء يمكنني أن أقدّمه لهم. كل ما أريده حقاً هو أن يتركني الناس وشأني».

مالت ماغنوليا نحوي، وقالت: «هذه الطفلة ماكرة».

«ماكرة» - كلمة غريبة. انتظرت لأرى ما الذي تقصده بقولها.

«يجب أن ترى البطانية التي تطرّزها لي في جلسات العلاج المهني. وردتان في الوسط، وتخيط من حولهما أزهار بنفسج صغيرة، حوالي عشرين زهرة، موشاة على امتداد الحواف التي خاطتها بتصميم جميل أحمر. عزيزتي»، قالت ماغنوليا والتفتت إلى روزا،» هل يمكنك أن تُحضري تلك البطانية لتراها المجموعة غداً؟ واللوحة التي ترسمينها أيضاً؟»

احمرّ وجه روزا، لكنها أومأت بالموافقة.

كان الوقت يمضي بسرعة. أدركت فجأة أنني لم أستكشف ما الذي يمكن أن تقدمه المجموعة لماغنوليا. كنت معجباً بوعد سخائها وذكرى لازمة تلك الأغنية: «ستفقدها... وأنا أعرف كيف أستخدمها...»

«ماغنوليا، يجب أن تحصلي على شيء من المجموعة أيضاً. لقد بدأتِ الاجتماع بالقول إن ما تريدينه من المجموعة هو أن تكوني مستمعة جيدة. لكنّي معجب، معجب جداً لأنك مستمعة جيدة، ومراقبة جيدة أيضاً: انظري إلى التفاصيل التي تتذكرينها عن بطانية روزا، لذلك لا أظن أنك بحاجة إلى مساعدة كبيرة لكي تتعلمي كيف تستمعين، وإلا فكيف يمكننا أن نساعدك في هذه المجموعة؟»

«لا أعرف كيف يمكن أن تساعدني هذه المجموعة».

«سمعتُ أشياء جيدة كثيرة قيلت عنكِ اليوم. ما هو شعورك إزاء ذلك؟»

«حسناً، من الطبيعي أن ذلك يجعلني سعيدة».

«لكن ماغنوليا، لديَّ إحساس داخلي بأنك سمعت ذلك من قبل - أن الناس يحبونك دائماً من أجل ما تقدميه لهم. لماذا، قالت الممرضات ذات الشيء قبل أن تلتقي المجموعة اليوم - أنك ربيّتِ ابناً وخمسة عشر طفلاً بالتبني ولم تتوقفي عن العطاء قط».

«ليس الآن. لم يعد بإمكاني أن أعطي شيئاً الآن. فأنا لا أستطيع أن أحرّك ساقيَّ، وتلك الحشرات...» ارتجفت فجأة، لكن ابتسامتها الناعمة ظلت مرتسمة على وجهها، «لم أعد أريد أن أعود إلى البيت».

«إن ما أقصده يا ماغنوليا هو أنه ربما ليس من المفيد حتى أن يقول الآخرون أشياء تعرفينها عن نفسك. فإذا كان علينا أن نساعدك هنا، يجب أن نمنحك شيئاً آخر. ربما ينبغي أن نساعدك على أن تعرفي أشياء جديدة عن نفسك، وأن نذكر بعض النقاط المخفية عنك، أشياء ربما لا تعرفينها».

«لم أخبرك أنني أحصل على المساعدة من مساعدة الآخرين».

«أعرف ذلك، وهذا أحد الأشياء التي تعجبني فيك. لكنك تعرفين أن من الجيد أن يساعد المرء الآخرين. مثل مارتن - انظري ماذا يعني له أن يساعد روزا لكي تفهمه».

«إن مارتن شخص مهم. مع أنه لا يتحرك جيداً، فإنه يحمل على كتفيه رأساً جيداً، رأساً جيداً حقاً».

«إنك تساعدين الآخرين وتجيدين ذلك. إنك أعجوبة، وأنا أتفق مع روزا، ينبغي للمستشفى أن يوظفك للعمل فيه. لكن ماغنوليا»، ترددتُ لكي تبدو كلماتي ذات تأثير أكبر، «سيكون من الجيد أن يتمكن الآخرون من مساعدتك أيضاً. لأنك تمنحين بالكامل ولا تدعين الآخرين أن يقدموا لك مساعدة. عندما قالت روزا إنها تريد أن تذهب إلى البيت معك، كنت أفكّر أيضاً كم سيكون رائعاً أنها ترتاح بوجودك طوال الوقت. وأنا أريد ذلك أيضاً. أحبّ ذلك، لكن عندما تمعنّت في الأمر أكثر، أدركت أنني لن أتمكن من أن أردّ لك جميل مساعدتك، أن أساعدك، لأنك لا تتذمرين من شيء أبداً، ولا تطلبين من أحد شيئاً. في الواقع»، تردّدت مرة أخرى، ثم أضفت،» لن أحظى أبداً بسعادة أن أقدّم لك شيئاً».

«لم أفكّر في الأمر بهذه الطريقة». هزّت ماغنوليا رأسها وهي تفكّر، ثم تلاشت ابتسامتها.

«لكن هذا صحيح، أليس كذلك؟ ربما ما يجب أن نفعله هنا في هذه المجموعة هو أن نساعدك على أن تتعلّمي كيف تشتكين. ربما كنتِ بحاجة إلى أن يُستمع إليك».

«كانت أمي تقول دائماً إنني أضع نفسي في الأخير».

«لا أتفق دائماً مع ما تقوله الأمهات. في الواقع، فأنا لا أتفق معهن عادة، لكن في هذه الحالة، أظن أن أمك كانت محقة. فلماذا لا تتذمرين؟ أخبرينا ما الذي يؤلمك؟ ما الذي تريدين أن تغيّرينه في نفسك؟»

«صحتي ليست جيدة... هذه الأشياء التي تزحف على جلدي، وهاتان الساقان ليستا على ما يرام. لا أستطيع أن أحركهما».

«هذه بداية يا ماغنوليا، وأنا أعرف أن هذه هي المشاكل الحقيقية في حياتك الآن. أرجو أن نتمكن من أن نفعل شيئاً لحلّ هذه المشاكل في هذه المجموعة، لكن المجموعات لا تستطيع أن تفعل ذلك. حاولي أن تشتكي من الأشياء التي يمكننا أن نساعدك بها».

«لا أشعر بالراحة في بيتي. إنه سيء. إنهم لا يستطيعون تبخيره، وربما لن يفعلوا ذلك بشكل جيد. لا أريد أن أعود إليه».

«أعرف أنك منزعجة من أجل بيتك وساقيك وبشرتك. لكن هذه الأشياء ليست أنتِ. إنها أشياء تتعلق بك، وليست حقيقتك، جوهرك. انظري إلى مركز كيانك. ما الذي تريدين أن يتغيّر فيه؟»

«أنا لستُ راضية عن حياتي. لديّ أشياء أندم عليها. هل هذا ما تقصده يا دكتور؟»

«نعم»، هززت رأسي بقوة.

تابعت تقول: «لقد خيّبت أملي في نفسي. فقد كنت أريد دائماً أن أكون معلّمة. كان هذا حلمي. لكني لم أحققه قط. أجلس أحياناً وأقول لنفسي إنني لم أنجز شيئاً في حياتي».

فقالت روزا بتوسل: «لكن ماغنوليا، انظري إلى ما فعلتيه لدارنيل أو لكل هؤلاء الأطفال بالتبني. أتدعين كل هذا لا شيء؟»

«أشعر أحياناً أنني لم أحقق شيئاً. فلن يفعل دارنيل شيئاً في حياته، ولن يحقق أي شيء. إنه مثل أبيه».

فقاطعتها روزا التي بدت مذعورة - اتسعت حدقتا عينيها - وكلمتني كما لو كنت قاضياً وهي محامية تدافع عن قضية ماغنوليا، وقالت: «إنها لم تحصل على فرصة لكي تتعلم قط يا دكتور يالوم. وعندما كانت في سن المراهقة مات أبوها، واختفت أمّها لمدة خمسة عشر عاماً».

تدخلت كارول فجأة، ووجهت كلامها إليَّ أيضاً، وقالت: «كان عليها أن تربي إخوتها وأخواتها السبعة وحدها تقريباً».

«لم أكن وحدي. لقد حصلت على مساعدة من القسّ ومن الكنيسة ومن عدد من الناس الطيبين».

متجاهلة معارضة ماغنوليا لها، قالت لي روزا: «تعرّفت

على ماغنوليا عندما كنا في المستشفى منذ سنة تقريباً، وعندما خرجنا من المستشفى، أخذتها ذات يوم في نزهة بسيارتي - ومررنا ببالو ألتو وستانفورد ومينلو بارك، حتى التلال. كانت ماغنوليا تشرح لي كل شيء، لا الأشياء المهمة الآن فقط، وإنما كيف كانت تبدو هذه المقاطعة وكل الأشياء التي حدثت منذ ثلاثين أو أربعين سنة. كانت تلك أفضل نزهة في حياتي».

«ما هو شعورك حول ما قالته روزا يا ماغنوليا؟»

لانت ماغنوليا مرة أخرى، وقالت: «هذا جيد، هذا جيد. تشيلي تعرف أنني أحبّها».

فقلت: «إذاً يا ماغنوليا، بالرغم من كل شيء، على الرغم من كل الأشياء التي تجمعت ضدك، يبدو أنك أصبحتِ معلّمة، ومعلّمة جيدة أيضاً».

دبت الحيوية الآن في المجموعة. نظرتُ بافتخار نحو الأطباء النفسيين المقيمين. كان تعليقي الأخير بمثابة جوهرة. كنت آمل أن يكونوا قد سمعوا ذلك.

عندما سمعت ماغنوليا ذلك، تأثرت كثيراً وبكت لعدة دقائق. احترمنا تلك اللحظة، وجلسنا في صمت مليء بالاحترام. فاجأني تعليق ماغنوليا التالي. كان من الواضح أنني لم أنصت إليها جيداً.

«أنت محقّ يا دكتور. كلامك صحيح»، وأضافت «إنك

على حق، لكنك لست على صواب. كان لديّ حلم. كنت أريد أن أكون معلمة حقيقية، وأن أتقاضى راتباً مثل المعلّمين البيض، وأن يكون لديَّ طلاب حقيقيون، وأن ينادونني السيّدة كلاي، هذا ما كنت أقصده».

«لكن ماغنوليا»، أصرت روزا على القول، «انظري إلى ما فعلته - فكّري في دارنيل والخمسة عشر طفلاً الذين ينادونك ماما».

فقالت ماغنوليا بصوت حاد وقوي: «لا علاقة لكل ذلك بما كنت أريد، بأحلامي»، وأضافت، «كانت لديَّ أحلام أيضاً مثل البيض. للسود أحلام أيضاً. وكنت مستاءة جداً من زواجي. كنت أريد زواجاً يستمر طوال حياتي، لكن فترة زواجي دامت أربعة عشر شهراً. كنت غبية. لقد اخترت الرجل الخطأ. كان يحبّ مشروب الجن أكثر مما كان يحبّني بكثير.

ثم التفتت إليَّ وقالت: «الله شاهد عليَّ، فلم أذكر قبل الآن قط - حتى هذه الجلسة اليوم - زوجي بالسوء. لا أريد أن يسمع دارنيل أي شيء سيء عن أبيه. لكن يا دكتور، أنت على حقّ. كلامك صحيح. عندي شكاوى. أشياء كثيرة كنت أرديها، لكنني لم أحصل عليها. لم يتحقق حلمي قط. أشعر أحياناً بمرارة شديدة».

بدأت الدموع تسيل على خديها وأجهشت في البكاء بصمت، ثم أشاحت بوجهها عن المجموعة، وراحت تحدّق

من النافذة، وبدأت تحكّ جلدها، في البداية بهدوء، ثم بقوة، وكررت تقول: «مرارة حقيقية. مرارة حقيقية».

شعرت بالارتباك. ومثل روزا تملكني الذعر. كنت أريد أن أستعيد ماغنوليا القديمة، وقد أزعجني حكها بأظافرها بقوة كثيراً. هل كانت تحاول أن تتخلص من الحشرات؟ أم من بشرتها السوداء؟ أردت أن أمسك برسغيها بقوة وأوقف يديها قبل أن تمزّق لحمها.

بعد فترة صمت طويلة، قالت: «وهناك أشياء أخرى يمكنني أن أقولها أيضاً، لكنها شخصية جداً».

« كنت أعرف أن ماغنوليا متوترة إلى درجة كبيرة. لم يكن لديَّ أدنى شك بأنها ستقول لنا كل شيء، لكنها ذهبت شأواً بعيداً عن الآخرين. قطعت شوطاً بعيداً جداً. كانت عينا روزا المذهولتين تقولان لي: «أرجوك، من فضلك، لا أكثر من ذلك. أوقف هذا». وكان هذا يكفي بالنسبة لي أيضاً. فقد رفعت الغطاء، لكني لم أشأ أن أنظر إلى داخله.

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، توقفت ماغنوليا عن البكاء، وتوقفت عن الحك. وشيئاً فشيئاً، عادت ابتسامتها وهدأ صوتها، وقالت: «لكن بعد كل ذلك، أقول لنفسي إن للرب أسبابه ليحمّل كل شخص منا عبئاً. أليس من الفخر لي أن أحاول أن أعرف ما هي أسبابه؟»

صمت أعضاء المجموعة. بدا أنهم محرجون، وراحوا ينظرون جميعاً - حتى دوروثي- خارج النافذة. بقيت أحاول

أن أقول لنفسي هذا هو العلاج الجيد: فقد واجهت ماغنوليا بعض شياطينها، ويبدو أنها أصبحت الآن على حافة علاج هام.

لكني شعرت بأنني استبحتها. ربما شعر الأعضاء الآخرون بذلك أيضاً. لكن أحدهم لم يقل شيئاً. هبط صمت ثقيل على الجميع. نظرت في عينيّ كل واحد منهم، وحثثه بصمت على أن يقول شيئاً. لعلي سبرت أعماق ماغنوليا كثيراً. ربما كنت أنا الوحيد الذي فقد أيقونة. بذلت جهدي لكي أصيغ شعوري بالاستباحة في كلمات مفيدة للمجموعة. لم يأت شيء. كان عقلي صامتاً. استسلمتُ، وأسلمت نفسي بشكل حزين لتعليق مرهق ومزعج كنت قد قلته كثيراً في جلسات جماعية لا حصر لها، فقلت: «قالت ماغنوليا أشياء كثيرة. ما هي المشاعر التي أثارتها كلماتها في كلّ واحد منكم؟»

كرهت أن أقول ذلك، كرهت عموميتها وتفاهتها التقنية. خجلت من نفسي، ارتميت على الكرسي. كنت أعرف تماماً ما هي ردّة فعل أعضاء المجموعة، وانتظرت متألماً تعليقاتهم المألوفة:

«أشعر أنني أصبحت أعرفك الآن يا ماغنوليا».

«أشعر أنني أصبحت قريباً منك الآن كثيراً».

«أراك شخصاً حقيقياً الآن».

حتى أن أحد الأطباء المقيمين، غامر وخرج عن دوره كمراقب صامت، وقال: «أنا أيضاً يا ماغنوليا. أراك شخصاً كاملاً، شخصاً أستطيع أن أشعر بوجوده. بدأت أشعر بك الآن في ثلاثة أبعاد».

انتهى وقت الجلسة. كان عليَّ أن ألخص الجلسة بطريقة ما وأقدّم التفسير الإلزامي الواضح، فقلت: «كما تعلمين يا ماغنوليا فقد كانت هذه الجلسة صعبة، لكنها ثرية. ما أدركه هو أننا بدأنا بموضوع عدم قدرتك على أن تشتكي، لعلك لا ترين أن لديك الحق في أن تتذمري. لم يكن ما فعلته اليوم مريحاً، لكنه بداية تقدم حقيقي. النقطة المهمة تكمن في أنه يوجد في داخلك كثير من الألم، وإذا استطعت أن تعبّري عن شكواك وتتعاملي معها مباشرة كما فعلت اليوم، فلن تضطري إلى أن تعبّري عنها بطرق غير مباشرة، مثلاً بالتعبير عن مشاكلك المتعلقة ببيتك، أو ساقيك، وربما حتى بالشعور بالحشرات على جلدك».

لم تجب ماغنوليا، وإنما نظرت إليَّ مباشرة، عيناها لا تزالان مليئتين بالدموع.

«هل فهمتِ ما أقصده يا ماغنوليا؟»

«نعم فهمت يا دكتور. فهمت جيداً»، قالت وجففت عينيها بمنديل صغير، وأضافت، «آسفة لأنني تكلّمت كثيراً. آه، لم أخبرك من قبل، ربما كان عليَّ أن أخبرك ذلك، لكن غداً ذكرى اليوم الذي ماتت فيه أمي. غداً منذ سنة».

«أعرف كيف تشعرين يا ماغنوليا، فقد فقدت أمي الشهر الماضي».

«فاجأت نفسي. فأنا لا أتحدّث عادة بشكل شخصي مع مريض لا أكاد أعرفه. أظن أنني كنت أحاول أن أعطيها شيئاً. لكن ماغنوليا لم تقرّ بهديتي. بدأت المجموعة تتفرق. فُتحت الأبواب، ودخلت الممرضات لمساعدة المرضى. رأيت ماغنوليا وهي تحك جلدها وهي في طريقها إلى خارج الغرفة على الكرسي المتحرك.

في المناقشة التي أعقبت الجلسة، استمتعت بجنى مجهودي. فقد أثنى عليَّ الأطباء المقيمون كثيراً. والأهم من كل ذلك، فقد تأثروا كثيراً برؤية شيء يخرج مما كان يبدو أنه لا شيء. فعلى الرغم من قلة المواد وضعف الدافع لدى المريضة، كان تفاعل المجموعة كبيراً: ففي نهاية الجلسة، كان الأعضاء الذين كانوا غافلين عن وجود مرضى آخرين في الجناح أبدى أحدهم اهتماماً بالآخر، وأبدى الأطباء المقيمون إعجابهم أيضاً بقوة تفسيراتي الختامية لماغنوليا وهي أنك إذا طلبت المساعدة بشكل مباشر وصريح، فإن أعراضها الرمزية ستزول.

كيف فعلت ذلك؟ أبدو دهشتهم وإعجابهم. ففي بداية الجلسة بدا أنه لم يكن بالإمكان التغلغل إلى أعماق ماغنوليا. قلت لهم إن الأمر ليس صعباً. ابحثوا عن المفتاح الصحيح ويصبح من الممكن فتح الباب أمام معاناة أي شخص.

بالنسبة لماغنوليا، كان المفتاح مناشدة أحد أعمق قيمها - وهي رغبتها في أن تخدم الآخرين، وبإقناعها أن بإمكانها مساعدة الآخرين وأن تدعهم يساعدونها. لقد قوضت مقاومتها بسرعة.

بينما كنا نتحدث، مدّت سارة، رئيسة الممرضات، رأسها من الباب وشكرتني على مجيئي، وقالت: «لقد أبديت سحرك مرة أخرى يا إيرف. هل تريد أن تُفرح قلبك؟ قبل أن تغادر، ألق نظرة على المرضى وهم يتناولون الغداء، على كل تلك الرؤوس القريبة من بعضها. وماذا فعلت لدوروثي؟ هل تصدّق أنها هي ومارتن وروزا يتحدثون معاً؟»

رنّت كلمات سارة في أذني وأنا عائد بالدراجة الهوائية إلى مكتبي. كنت أعرف أن لديَّ كل الأسباب التي تجعلني أشعر بالرضا عن عملي الصباحي. كان الأطباء المقيمون على صواب: فقد كانت جلسة جيدة - جلسة رائعة - لأنها لم تشجع الأعضاء على تحسين العلاقات في حياتهم فحسب، وإنما، كما أبدى تقرير سارة، بأنها جعلتهم يتشاركون أيضاً بشكل كامل في جميع جوانب برنامج العلاج في الجناح.

والأهم من كل ذلك، فقد أوضحت لهم بأنه لا يوجد شيء يدعى مريض ممل أو فارغ - أو مجموعة. ففي داخل كل مريض، وفي داخل كل حالة سريرية، تقبع شرنقة دراما بشرية غنية، ويكمن فن العلاج النفسي في تنشيط تلك الدراما واستثارتها.

لكن لماذا يمنحني عملي الجيد هذا القليل من الشعور بالرضا الشخصي؟ فقد شعرت بالذنب - كما لو أنني فعلت شيئاً مخادعاً. فالثناء الذي أسعى إليه غالباً لم يستمر في ذلك اليوم. فقد انهال عليَّ الطلاب (الذين حرضتهم على ذلك سرّاً) بالثناء على حكمتي العظيمة. ففي نظرهم، قدّمت تفسيرات «قوية»، وعملت «سحري»، وقدتُ المجموعة بطريقة واعية وواثقة. لكنّي أعرف الحقيقة وهي أنني تعثرت طوال الجلسة وارتجلت كثيراً، ورآني طلابي والمرضى بأنني أكثر مما يمكنني أن أكون. وخطر لي أن لدى ماغنوليا، أم الأرض النموذجية، ولديَّ قواسم مشتركة عديدة.

ذكّرت نفسي بأن الشيء الصغير جميل. فقد كانت مهمتي أن أقود جلسة جماعية تكون مفيدة لأكبر عدد ممكن من أعضاء المجموعة. ألم أفعل ذلك؟ فقد استعرضتُ المجموعة من وجهة نظر كلّ عضو من أعضائها الخمسة.

«مارتن وروزا؟ نعم عمل جيد. كنت متأكداً منهما. فقد تحققت أهدافهما للجلسة، إلى حد ما: فقد تمت مواجهة إحباط مارتن وقناعته بأنه لا يوجد لديه شيء يمكن أن يقدمه بشكل فعال، ودُحض اعتقاد روزا بأن أي شخص ليس مثلها - أي شخص غير مصاب بفقدان الشهية المرضي - يسيء فهمها ويحاول أن يؤثر عليها.

وماذا عن دوروثي وكارول؟ فعلى الرغم من أنهما لم تكونا نشطتين، فقد كان تفاعلهما جيداً. ربما استفادتا من العلاج كمتفرجتين: لأن رؤية شخص آخر يعمل بفعالية في

العلاج يهيئ في معظم الأحيان مريضاً لعمل علاجي ناجح في المستقبل.

«وماذا عن ماغنوليا؟ هنا تكمن المشكلة. هل ساعدتُ ماغنوليا؟ هل كان من الممكن مساعدتها؟ فمن التقرير المقتضب الذي أعطته لي رئيسة الممرضات، علمت أنها لم تستجب لمجموعة واسعة من الأدوية النفسية وأن الجميع، بمن فيهم المسؤول عن حالتها الذي تعمل معه منذ عدة سنوات، قد استسلم ولم يعد يحاول إشراكها في أي علاج نفسي منذ فترة طويلة. فلماذا قررتُ أن أحاول مرة أخرى؟

هل ساعدتها؟ أشكّ في ذلك. مع أن الأطباء المقيمين اعتبروا تفسيري الأخير «قوياً»، وبالفعل، بدت كلماتي كما قلتها قوية، فقد كنت أعرف في قلبي أن كل ذلك ما هو إلّا خداع: فلم تكن هناك فرصة حقيقية لتفسيراتي كي تكون مفيدة لماغنوليا. فقد كانت أعراضها - شلل ساقيها الذي لا يمكن تفسيره، وهلوستها بوجود حشرات تتغلغل في جلدها، وتوهمها بأنه توجد مؤامرة وراء انتشار الحشرات في بيتها - خطيرة وبعيدة عن متناول العلاج النفسي. حتى في أفضل الظروف - فإن فترة زمنية غير محدودة مع معالج ماهر في العلاج النفسي - ربما تقدّم شيئاً قليلاً لماغنوليا. ولا توجد هنا أي احتمالات ممكنة: فلا توجد لدى ماغنوليا نقود، ولا يوجد لديها تأمين، ولا شك بأنهم سيحولونها إلى مرفق صحي لا يتوفر فيه علاج نفسي لمتابعة حالتها. أدركت بأن تفسيري سيهيئ ماغنوليا للعمل في المستقبل ليس إلّا وهماً.

في ظل هذه الظروف، ما مدى «قوة» تفسيري إذاً؟ قوي إلى أي حد؟ إن القوة شبح. في الواقع، لم يكن خطابي المقنع موجهاً إلى القوى التي قيّدت ماغنوليا وإنما كان موجهاً إلى طلابي. كانت ضحية غروري.

مع أنني بدأت أقترب من الحقيقة الآن، استمر شعوري بالقلق. استدرتُ الآن إلى السؤال لماذا كان حكمي سيئاً جداً. فقد خالفتُ قاعدة أساسية من قواعد العلاج النفسي: لا تجرّد مريضاً من دفاعاته إذا لم يكن لديك شيء أفضل يمكنك أن تقدّمه له. وما هي القوة الكامنة وراء تصرفاتي؟ لماذا شكلت ماغنوليا كل هذه الأهمية بالنسبة لي؟

أظن أن الإجابة على هذا السؤال تكمن في استجابتي لوفاة أمي. استعرضت مسار الجلسة مرة أخرى. متى بدأت الأمور تؤثر عليَّ شخصياً؟ كانت تلك النظرة الأولى إلى ماغنوليا: تلك الابتسامة، هذان الساعدان المكتنزان. ذراعا أمي. كيف جذباني إليها. كم تمنيت أن تحيط بي هاتان الذراعان الناعمتان الطريتان. وتلك الأغنية، أغنية جودي كولينز - كيف سارت؟ بحثت عن الكلمات.

لكن بدلاً من كلمات تلك الأغنية، خطرت ببالي أحداث مساء يوم كنت قد نسيته منذ زمن بعيد. ففي عصر أحد أيام السبت عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري أعيش في واشنطن العاصمة، كنت أنا وصديقي روجر نذهب غالباً بالدراجة الهوائية إلى حديقة عامة تُدعى «بيت الجنود

القدامى». وفي أحد الأيام، بدلاً من أن نشوي نقانق كما كنا نفعل دائماً، تآمرنا على أن نسرق دجاجة حيّة من منزل بجانب الحديقة ونشويها على نار أشعلناها في بقعة مشمسة خالية من الأشجار في غابة الحديقة.

«لكن أولاً، القتل - أول تكريس لي لطقوس الموت. فقد أخذ روجر زمام المبادرة وضرب الدجاجة الأضحية بحجرة ضخمة. ومع أنها سُحقت وامتلأت دماً، ظلت تكافح من أجل الحياة. تملكني شعور بالرعب. أشحتُ بوجهي ونظرتُ بعيداً، غير قادر على تحمّل رؤية ذلك المخلوق البائس. لقد سارت الأمور شأواً بعيداً. أردت أن أتراجع، ثم فقدت الاهتمام بأن أبدو شخصاً بالغاً. أردت أمي. أردت أن أركب دراجتي وأعود إلى البيت حتى تضمني بين ذراعيها. أردت أن أعيد الزمن إلى الوراء، وأن أمحو كلّ شيء، وأبدأ اليوم من جديد. لكن لم تكن هناك إمكانية للتراجع، ولم يكن هناك شيء يمكنني أن أفعله سوى أن أراقب روجر وهو يمسك الدجاجة من رأسها المهشم، ويدور بها مثل بولو حتى هدأت أخيراً ولم تعد تتحرك. لا بد أننا نتفنا ريشها، ونظفناها، ووضعناها على سيخ. لابد أننا شويناها على النار وأكلناها. ربما بنهم. لكن مع أنني أتذكّر ذلك بوضوح مخيف محاولاً أن أبعد عني تلك الكارثة بأكملها، لم أتذكّر شيئاً من كلّ ما فعلناه في ذلك اليوم.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استحوذت ذكرى عصر ذلك اليوم عليَّ حتى حرّرت نفسي عندما سألت نفسي لماذا ظهرت

الآن بعد عقود طويلة من تخزينها في العمق. ما الذي ربط غرفة المستشفى المليئة بالكراسي المتحركة بالأحداث التي جرت منذ زمن بعيد حول نار المخيم في ساحة حديقة «بيت الجنود القدامى»؟ ربما الفكرة بالابتعاد - كما ذهبت ابتعدت مع ماغنوليا. ربما كان هناك خوف عميق من عدم رجوع الزمن إلى الوراء. ربما الألم، الشوق، لأمّ تحميني من حقائق الحياة والموت الوحشية.

ومع أن طعم تلك الجلسة ظلّ مرّاً، شعرت بأنني أصبحت أكثر قرباً من مصدره: لا ريب أنه كان لشغفي العميق بالراحة الأمومية الذي تأجج بعد موت أمي صدى كبيراً في صورة ماغنوليا، أمّ الأرض. هل جردّتها من تلك الصورة، وجعلتها كائناً دنيوياً، وجردّتها من قوتها في محاولة لمواجهة رغبتي للشعور بالراحة؟ تلك الأغنية، أغنية أم الأرض - التي بدأت بعض كلماتها تعود إلى ذاكرتي الآن: «احزم أحزانك كلها واعطها لي. لأنك ستفقدها... وأنا أعرف كيف أستخدمها... «كلمات سخيفة صبيانية. لم أتذكّر، وبشكل باهت، إلّا المكان الدافئ الوفير الذي أخذوني إليه ذات يوم. لم تعد هذه الكلمات تؤثر الآن. بقدر ما أغمز فاسارلي، أو وهم إشير لأعيد الصورة البديلة، حاولت أن أعيد ذاكرتي مرة أخرى إلى ذلك المكان - لكن عبثاً.

هل يمكنني أن أتخلّى عن هذا الوهم؟ لقد بحثت طوال حياتي عن الراحة في مجموعة متنوعة من أمهات الأرض. أستعرضهن أمامي الآن: أمّي على فراش الموت التي كنت

أريد منها شيئاً - لا أعرف ما هو - حتى عندما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، والكثيرات من مدبرات المنازل ذوات البشرة السوداء الطيبات القلب اللاتي اختفت أسماؤهن من ذاكرتي منذ زمن بعيد، اللاتي حملنني عندما كنت رضيعاً وطفلاً؛ أختي التي لم تحظ بالحبّ، تقدّم لي بقايا صحنها؛ والأساتذة الذين كانوا يثنون عليَّ؛ ومحللي النفسي العجوز الذي جلس معي بإخلاص - وصمت - طوال ثلاث سنوات.

بدأت أفهم الآن بمزيد من الوضوح كيف جعلت كلّ هذه المشاعر - لنطلق عليها اسم «الانتقال المقابل» - من المستحيل أن أقدّم مساعدة علاجية غير متناقضة لماغنوليا. فلو كنت قد تركتها تستمتع بدفئها في الشمس كما فعلت روزا، واكتفيت بأهداف صغيرة فقط، لأدنت نفسي لأنني استخدمت مريضتي من أجل راحتي. فقد اخترقت هيكلها الدفاعي وها أنا أدين نفسي الآن للعظمة والتضحية بها لأقدّم درساً تعليمياً. إن الشيء الذي لم أستطع أن أفعله، أو لم أفعله، أن أضع مشاعري كلها بين قوسين وأواجه ماغنوليا مواجهة حقيقية - ماغنوليا، الشخص من لحم ودم، وليس الصورة التي فرضتها عليها.

في اليوم الذي أعقب الجلسة، خرجت ماغنوليا من المستشفى، وصادف أنني رأيتها تنتظر في ممر المستشفى بجانب نافذة صيدلية العيادة الخارجية. ماعدا قبعتها الصغيرة المصنوعة من الدانتيل الرقيق والبطانية الزرقاء المطرّزة (هدية روزا لها) التي تغطي بها ساقيها وهي جالسة على الكرسي

المتحرك، بدت امرأة عادية - مرهقة، رثة، لا يمكن تمييزها من الرتل الرمادي الطويل من المرضى الممتد أمامها وخلفها. أومأت إليها برأسي، لكنها لم ترني، وواصلت طريقي. وبعد بضع دقائق، غيّرت رأيي وعدت لأراها. كانت ما تزال عند النافذة تضع أدوية خروجها من المستشفى في حقيبة صغيرة بالية تضعها في حجرها. رحت أراقب كرسيها يبتعد باتجاه باب المستشفى، ثم توقفت، وفتحت حقيبتها، وأخرجت منديلاً صغيراً، وخلعت نظارتها السميكة ذات الإطار الذهبي، ومسحت دموعها التي سالت على خديها. سرت نحوها، وقلت: «ماغنوليا، مرحباً. هل تذكرتني؟»

«فقالت: «يبدو صوتك مألوفاً لي كثيراً»، وهي تستبدل نظارتها بأخرى، وقالت: «يا إلهي، انتظر لحظة حتى أنظر إليك». حدّقت في وجهي، ورمشت بعينيها مرتين أو ثلاث مرات، ثم ابتسمت ابتسامة دافئة، وقالت: «دكتور يالوم، آه طبعاً أتذكرك. من اللطف منك أن تقف وتزورني. أريد أن أتحدّث إليك على انفراد»، وأشارت إلى كرسي في نهاية الممر، وأضافت: «انظر يوجد مقعد لك هناك. هل يمكنك أن تدفع كرسيي إلى هناك؟»

عندما ذهبنا وجلستُ، قالت ماغنوليا: «يجب أن تعذرني على دموعي. فلم أستطع أن أتوقف عن البكاء اليوم».

محاولاً إسكات خوفي المتزايد بأن الجلسة كانت مدمرة بالنسبة لها، قلت لها بلطف: «ماغنوليا، هل لدموعك علاقة بجلسة مجموعتنا البارحة؟»

«المجموعة؟» نظرت إليَّ بريبة، وقالت: «دكتور يالوم، هل نسيت ما قلته في نهاية تلك الجلسة؟ اليوم هو اليوم الذي ماتت فيه أمي السنة الماضية».

«آه، طبعاً. أنا آسف، أنا بطيء قليلاً في هذه اللحظة. أظن أن أشياء كثيرة تحدث في حياتي يا ماغنوليا»، وبسرعة انتقلتُ لاستخدام معداتي الاحترافية، «لا بد إنك تفتقدينها كثيراً».

«طبعاً. وأنت تذكر أن روزا قالت إن أمي ذهبت عندما كنت صغيرة، ثم ظهرت فجأة ذات يوم بعد غيابها الذي دام خمسة عشر عاماً».

«لكن بعد ذلك، عندما عادت، هل اعتنت بكِ؟ هل منحتك الكثير من حنان الأمّ؟»

«الأمّ هي الأمّ. لكن كما تعرف، لم تعتني أمي بي كثيراً - بل بالعكس - فقد كانت في التسعين من عمرها عندما ماتت. لا، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق - لم يكن الأمر يتعدى وجودها هناك. لا أعرف... أظن أنها كانت بحاجة إلى شيء. إنك تعرف ماذا أقصد؟»

«أعرف تماما ما الذي تقصدينه يا ماغنوليا».

«ربما ليس من حقي أن أقول ذلك يا دكتور، لكن أظن أنك مثلي - تفتقد أمك أيضاً. الدكاترة يحتاجون إلى أمهات أيضاً، كما أن الأمهات بحاجة إلى أمهات».

«أنتِ محقة في ذلك يا ماغنوليا. لديك حاسة سادسة جيدة، كما قالت روزا. لكنك قلت إنك تريدين أن تتحدثي إليّ؟

«حسناً، كما قلت للتو بأنك تفتقد أمك. كان ذلك أحد الأشياء، ثم عن جلسة المجموعة. أريد أن أشكرك - هذا كل شيء. لقد حصلت على أشياء كثيرة في تلك الجلسة».

«هل يمكنك أن تقولي لي ما الذي حصلتِ عليه منها؟»

«لقد تعلّمت شيئاً مهماً. تعلمت أنني انتهيت من تربية الأطفال. لقد انتهيت من ذلك إلى الأبد...». ثم أصبح صوتها بطيئاً ونظرت بعيداً، وراحت تنظر إلى الممر.

مهم؟ إلى الأبد؟ - أذهلتني كلمات ماغنوليا غير المتوقعة. أردت أن أواصل الحديث معها لكني شعرت بخيبة أمل عندما سمعتها تقول: «انظر، ها هي كلوديا قادمة من أجلي».

دفعت كلوديا كرسي ماغنوليا عبر باب المستشفى نحو السيارة التي ستنقلها إلى دار المسنين. تبعتها إلى الرصيف ورأيتها وهي تُرفع بكرسيها إلى داخل السيارة بواسطة المصعد في الجزء الخلفي من السيارة.

قالت وهي تلوّح لي: «إلى اللقاء دكتور يالوم. اعتني بنفسك».

«الغريب، قلت في نفسي وأنا أنظر إلى السيارة وهي تبتعد، لأنني أنا الذي كرست حياتي لفهم عالم الآخرين، لم أفهم حقاً، حتى رأيت ماغنوليا، أن الذين نحوّلهم إلى أسطورة هم أنفسهم ممتلئون بالأساطير. إنهم يائسون. يحزنون على موت أمّ. يبحثون عن الأشخاص الممجدّين. ويغضبون أيضاً من الحياة وقد يحتاجون إلى تشويه أنفسهم بالعطاء.

4

سبعة دروس متقدمة

في علاج الحزن

منذ فترة طويلة، هاتفني إيرل، صديقي منذ سنوات عديدة، وقال إن أعزّ أصدقائه، جاك، مصاب بورم خبيث في الدماغ ولا يمكن إجراء عملية جراحية له. وقبل أن أتمكن من مواساته، قال: «انظر يا إيرف، لم أتصل بك لا أتحدّث عني - وإنما عن شخص آخر. أريدك أن تسدي لي معروفاً - أمر شديد الأهمية بالنسبة لي. انظر، هل ستعالج إيرين، زوجة جاك؟ سيموت جاك ميتة بشعة - قد تكون أصعب ميتة رأيتها في حياتك. وليس من المهم أن إيرين طبيبة جراحة: فهي تعرف الكثير، وسيكون من المؤلم لها أن تقف عاجزة وترى السرطان وهو ينهش دماغ زوجها، وتبقى مع ابنتها الصغيرة وعيادة كاملة. لقد استحال مستقبلها إلى كابوس».

بينما كنت أستمع إلى طلب إيرل، أردت أن أقدم مساعدة. أردت أن أقدم كلّ ما طلبه مني، لكن هناك بعض المشاكل. إذ يتطلب العلاج الجيد حدوداً واضحة، وأنا أعرف جاك وإيرين، صحيح أنها ليست معرفة قوية، لكننا

التقينا في حفل عشاء في منزل إيرل. كنت قد شاهدت مباراة سوبر بول مع جاك ذات يوم، ولعبنا التنس عدة مرات.

أخبرتُ إيرل بكل ذلك، وأنهيت كلامي بالقول: «إن معالجة شخص تعرفه اجتماعياً مآلها الفشل. إن أفضل طريقة لأن أقدّم مساعدة هي أن أحيلك إلى أفضل طبيب أعرفه - طبيب لا يعرف الأسرة».

فأجاب: «كنت أعرف أنك ستقول ذلك»، وأضاف، «وقد هيأتُ إيرين لهذا الجواب أيضاً. أعدت ذلك على مسامعها كثيراً، لكنها لن ترى أحداً غيرك. إنها امرأة تتمتع بإرادة قوية، ومع أنه ليس لديها احترام كبير للطب النفسي بصورة عامة، فإنها تصرّ على أن تعالجها. تقول إنها تتابع عملك وأنها مقتنعة، الله يعلم لماذا، بأنك الطبيب النفسي الوحيد الذكي الذي يمكن أن يعالجها».

فقلت له: «دعني أفكّر في الأمر، وسأتصل بك غداً».

ما الذي يجب أن أفعله؟ فمن ناحية، نداء الصداقة: فلم يرفض، أنا وإيرل، أحدنا شيئاً للآخر. لكن التسرب المحتمل للحدود جعلني لا أشعر بالارتياح. فقد كان إيرل وزوجته إميلي من أقرب الأصدقاء إليَّ. بالإضافة إلى أن إميلي من أعزّ صديقات إيرين، ويمكنني أن أتخيّلهما وهما تتهامسان عني. نعم، لا شك في ذلك: فقد سمعت صفارات الإنذار، لكني خفضت الصوت كثيراً، وقلت إنني سأنتزع من إيرين وإميلي تعهداً لبناء جدار من الصمت حول العلاج.

أعرف أنه أمر صعب ومعقد، لكن إذا كنت ذكياً كما تظن، يمكنني أن أتولّى علاجها.

بعد انتهاء المكالمة تساءلت لماذا تجاهلت إشارات الإنذار تلك. فقد أدركت أن طلب إيرل في هذه المرحلة من حياتي بدا مصيرياً. فقد أنهيت منذ فترة قصيرة أنا وزميل لي بحثاً تجريبياً حول الفقد الزوجي استمر ثلاث سنوات، ودرسنا حالة ثمانين رجلاً وامرأة أصبحوا أرامل منذ فترة لبست بعيدة. وكنت قد أجريت لقاءات مطولة مع كل واحد منهم وعالجتهم جميعاً في مجموعات علاجية قصيرة ضمت كل مجموعة ثمانية أشخاص. وتابع فريق بحثنا التقدّم الذي أحرزه لمدة عام، وجمع كماً هائلاً من المعلومات، ونشرنا عدة ورقات بحثية في المجلات المتخصصة. وأصبحت على قناعة بأن قلة من الناس يعرفون أكثر مما أعرفه عن هذا الموضوع. وبما أنني درست فجيعة الفقد، كيف يمكنني، بضمير سليم، أن أُحجم عن معالجة إيرين؟

بالإضافة إلى ذلك، فقد قالت الكلمات السحرية - بأنني الشخص الذكي الوحيد الذي يمكنه معالجتها. القابس المثالي لمقبس غروري.

الدرس الأول: الحلم الأول

بعد بضعة أيام، التقيت بإيرين في جلستنا الأولى. دعوني أقول منذ البداية إنها واحدة من أكثر النساء إثارة للاهتمام: ذكية، عنيدة، معذبة، حساسة، متعجرفة، أنيقة، مجدّة، حاذقة، صلبة، شجاعة، جذابة، فخورة، باردة، رومانسية، مثيرة للغضب، اللاتي عرفتهن في حياتي.

في منتصف الجلسة الأولى، وصفت لي حلماً حلمت به الليلة الماضية:

> ما أزال طبيبة جراحة، لكنني أدرس أيضاً اللغة الإنكليزية في الجامعة، ويجب أن أدرس نصين مختلفين، نص قديم ونص جديد، يحمل كلاهما نفس الاسم. لم أكن مستعدة لأقدّم حلقة البحث لأنني لم أقرأ أياً من النصين، خصوصاً النص الأول القديم الذي سيهيئني للنص الثاني.

«ماذا تتذكرين أيضاً يا إيرين؟» سألتها عندما صمتت، «تقولين إن لكلا النصين الاسم نفسه. هل تعرفين ما هو ذلك الاسم؟»

«أوه، نعم، أتذكّره بوضوح. عنوان كل كتاب منهما، القديم والجديد، موت البراءة».

بينما كنت أنصت إلى إيرين، سرحتُ في خيالي. فحلمها هذا ذهبٌ خالص، طعام فكري شهي - هدية من

الآلهة. لقد تحقق حلم اليقظة النفسي. المكافأة بعد الصبر، والمكافأة بعد تجارب العلاج المملة الكثيرة مع مهندسين مكبوتين.

إنه حلم يجعل حتى أكثر المعالجين انفعالاً يخرخرون بسعادة. وقد فعلت ذلك. نصّان: نص قديم ونص جديد. خرخرة، خرخرة. يجب فهم النص القديم لفهم النص الجديد. خرخرة. خرخرة. والعنوان موت البراءة. خرخرة، خرخرة، خرخرة.

لم يكن حلم إيرين وعد باصطياد كنز فكري على أعلى المستويات فحسب، وإنما هو أيضاً أول حلم. فمنذ عام 1911، عندما ناقشه فرويد لأول مرة، فإن الغموض يكتنف أول حلم يذكره المريض في التحليل النفسي. فقد كان فرويد يرى أن الحلم الأول لا يكون عادة معقداً ويكون شديد الوضوح لأن المرضى المبتدئين يكونون ساذجين غير محترسين. وفي فترة لاحقة من العلاج، عندما يصبح من الواضح أن المعالج النفسي يتمتع بمهارات عالية في تفسير الحلم، فإن حائك الحلم القابع في لاوعينا ينمو بحذر، ويصبح في حالة تأهب قصوى، ويبدأ ينسج أحلاماً أكثر تعقيداً وغموضاً.

باتباع نظرية فرويد، كنت أتخيّل أن الحالم في أحيان كثيرة قزم، بدين، ومرح، يعيش حياة جيدة في وسط غابة مليئة بالشجيرات الناتئة والمحاور العصبية، ينام في النهار،

وفي الليل يستلقي على وسادة من الوصلات العصبية التي تصدر طنيناً، يشرب رحيقاً ممزوجاً بالعسل ويُخرج بتكاسل سلاسل متتابعة من الأحلام لمضيفه. وفي الليلة التي تسبق أول زيارة للعلاج، يغطّ هذا المضيف في النوم تتلاطم في رأسه أفكار متضاربة حول جلسة العلاج القادمة، وكالعادة، يمارس ذلك القزم عمله الليلي وينسج تلك المخاوف والآمال في حلم بسيط وشفاف، ثم، وبقلق شديد، يعرف ذلك القزم أن المعالج قد فسّر حلمه ببراعة، فيرفع القزم قبعته تقديراً لخصمه القدير - المعالج الذي فكّ أسرار حلمه - لكنه يبدأ منذ ذلك الحين، يحرص على أن يدفن معنى الحلم في أعماق ستار الليل.

قصة خيالية غبية. تجسيد نموذجي للقرن التاسع عشر. الخطأ الشائع المتمثّل في تجسيد هياكل فرويد العقلية المجردة في عفاريت متحركة مستقلة ذات إرادة حرة. كم أتمنى ألّا أصدّقها.

لعشرات السنين، كان الكثيرون يعتبرون أن أول حلم وثيقة لا تقدّر بثمن يمثّل الترجمة إلى لغة أحلام المريض المصاب بالعصاب. حتى أن فرويد اقترح أن التفسير الكامل لأول حلم يتزامن مع التحليل كله.

علق الحلم الأول في تحليلي في ذهني بكل تفاصيله وجدّته وتذكّرت اليوم الذي حلمت فيه منذ أربعين عاماً، بعد أن أصبحت طبيباً نفسياً مقيماً بفترة قصيرة.

أنا مستلقٍ على طاولة فحص الطبيب. الملاءة صغيرة جداً لا تكاد تغطيني. أستطيع أن أرى ممرضة تغرز إبرة في ساقي - قصبة ساقي. فجأة سمعت صوت هسهسة وقرقرة انفجار - وووووووووووووش.

كان مركز الحلم - صوت الوشيش العالي - واضحاً لي على الفور. عندما كنت طفلاً، كنت أصاب بالتهاب الجيوب الأنفية المزمن، وكانت أمي في شتاء كل سنة تأخذني إلى الدكتور ديفيس لتنظيف جيوبي الأنفية. كنت أكره أسنانه الصفراء وعينه التي تشبه عين سمكة تحدّق في وجهي مع أن مركز المرآة الدائرية المتصلة بعصابة الرأس التي يضعها عادة أطباء الأنف والأذن والحنجرة. وعندما أدخل الأنبوب في ثقبة الجيوب الأنفية، شعرت بألم حاد، ثم سمعت صوت وشيش يصمّ الآذان عندما تدفق المحلول الملحي المحقون إلى الخارج. وعندما نظرت إلى السائل المرتعش والمثير للاشمئزاز في حوض التفريغ شبه الدائري المصنوع من الكروم، ظننت أن جزءاً من دماغي قد خرج مع القيح والمخاط.

وكما اقترح فرويد تماماً، فقد توّقع حلمي الأول طبقة تلو طبقة من سنوات العمل التحليلي: مخاوفي من أن أكشف نفسي، وأفقد صوابي، ويُغسل دماغي، وأعاني من إصابة خطيرة (الانكماش) في جزء طويل وثابت من جسدي (مُصوَّر كعظمة ظنبوب).

كان فرويد والعديد من المحللين النفسيين اللاحقين قد

حذّروا من الغوص بسرعة كبيرة في معنى أول حلم خشية أن يربك التفسير المبكّر وانكشاف المواد اللاشعورية المرضى ويثبّط القزم الذي ينسج أحلامنا. كانت هذه التحذيرات تبدو لي أنها ليست موجهة لزيادة فعالية العلاج بقدر ما هي موجهة لحماية المصلحة الذاتية الضيقة للانضباط التحليلي، وكنت أقاومها باستمرار.

منذ أربعينيات حتى ستينيات القرن العشرين، ساد أسلوب السير فوق قشر البيض في العلاج النفسي. وكانت الصياغة الدقيقة والحساسة للتدخلات موضوع مناقشات غامضة لا نهاية لها في معاهد التحليل النفسي. وبعد أن تعرّضت بقوة للدعاية حول ضرورة وجود تفسيرات مصاغة ومحددة التوقيت، أخذ المبتدئون - الذين ملأتهم الرهبة والخوف - يسيرون على أطراف أصابعهم وبحذر في العلاج، يكبتون عفويتهم - وفعاليتهم. ووجدت أن هذه الطريقة غير مجدية لأنها تتداخل مع الهدف الأعظم المتمثل في إقامة علاقة تعاطف وصادقة مع المريض. بدا لي تحذير فرويد بعدم العمل على الأحلام حتى يبدو تحالف علاجي الراسخ معكوساً على نحو غريب: فالعمل معاً على حلم يُعدُّ وسيلة ممتازة لإقامة ذلك التحالف العلاجي.

عدت إلى حلم إيرين.

قلت لها: «إذاً، لم تقرأي أياً من النصين، لاسيما النص القديم».

«نعم، نعم، كنت أتوقع أن تسألني عن ذلك. طبعاً، أعرف أن هذا غير منطقي، لكن هذا ما رأيته في الحلم تماماً. لم أقرأ الوظيفة الموكلة لي - لم أقرأ أياً من النصين، خصوصاً النص القديم».

«النص الذي كان سيهيئك للنص الجديد. هل لديك أي حدس عن معنى النصين في حياتك؟»

فأجابت إيرين: «بصعوبة. أعرف تماماً ماذا يعنيان».

انتظرتها حتى تواصل كلامها، لكنها جلست ولاذت بالصمت، وراحت تنظر من النافذة. لم أكن قد عرفت بعد صفة إيرين المزعجة بأنها لا تتطوع بتقديم أي استنتاج إذا لم أطلبه منها صراحة.

منزعجاً، تركت الصمت يستمر دقيقة أو دقيقتين، ثم استسلمت أخيراً، وسألتها: «ومعنى النصين يا إيرين هو...»

«كان النص القديم عن موت أخي عندما كنت في العشرين من عمري، والنص الحديث عن موت زوجي».

«إذاً يقول لنا الحلم بأنك ربما لست قادرة على التعامل مع وفاة زوجك حتى تنتهي من التعامل أولاً من وفاة أخيك».

«نعم، هذا كلام دقيق».

لم تُظهر دراسة الحلم الأول هذا محتوى العلاج فحسب، وإنما سيرورته أيضاً، أي طبيعة العلاقة بين المعالج والمريض. لسبب واحد وهو أن إيرين صريحة دائماً. فلا

أطرح سؤالاً إلّا وأتلقى منها ردّاً أصيلاً وشاملاً. هل كانت تعرف عنوان النصين؟ نعم. هل كان لديها حدس عن سبب حاجتها إلى قراءة النص القديم لتفهم النص الحديث؟ طبعاً، فهي تعرف جيداً ما الذي يعنيه ذلك. حتى الأسئلة الروتينية - «ماذا تستنجين من هذا؟» أو «إلى أين تذهب أفكارك الآن يا إيرين؟» - فخلال سنوات العلاج الخمس، لم أفشل في جني حصاد وفير. وفي معظم الأحيان، كانت ردود إيرين تثيرني: فقد كانت سريعة جداً ودقيقة جداً. تذكّرني بالآنسة فرنالد، معلّمتي في الصف الخامس التي كانت تقول غالباً: «هيا يا إيرفين»، وهي تنقر بقدمها بتململ واستياء، تحدد الزمن، وتنتظر أن أتوقف عن أحلام اليقظة وأركّز على الدرس.

أبعدتُ الآنسة فرنالد عن تفكيري، وتابعت: «وما معنى موت البراءة بالنسبة لك؟»

«تخيّل ما الذي يعني أن يُخطف أخي مني في حادث مروري الذي كنت أتوقع أن يكون رفيق حياتي وأنا في العشرين من عمري. ثم وجدت جاك. وتخيّل ماذا يعني الآن، وأنا في الخامسة والأربعين من عمري، أن أفقده. تخيّل كيف سيبدو الأمر عندما يكون أبي وأمي على قيد الحياة وهما في السبعينات من عمرهما، ويموت أخي وزوجي. إن التوقيت غير صحيح. الشبان يموتون أولاً».

حدثتني إيرين عن العلاقة الرائعة التي تمتعت بها مع أخيها ألن الذي يكبرها بسنتين والذي كان طوال فترة

مراهقتها حارسها وكاتم أسرارها الذي تحلم به كل فتاة شابة. لكن، في لحظة صاخبة في أحد شوارع بوسطن، خطف الموت ألن. أخبرتني كيف اتصلت الشرطة بالمنزل الصغير الذي كانت تعيش فيه مع زميلاتها، وكيف أن كل تفصيل من ذلك اليوم تجمّد في عقلها إلى الأبد.

«أتذكّر كل شيء: رنين الهاتف في الطابق الأرضي، ورداء الحمّام الذي كنت أرتديه ذي الشراشيب الصغيرة الوردية والبيضاء، وخفّ الصوف الذي كنت أنتعله عندما هبطت الدرج ورفعت سماعة الهاتف المعلّق على الحائط في الكوة بجانب المطبخ، والدرابزين الخشبي الناعم جداً على ملمس يدي. أتذكّر أنني قلت في نفسي إن الخشب أصبح أملساً من لمسات جميع طلاب جامعة هارفارد ورادكليف قبل أن ألمسه. ثم صوت ذلك الرجل، ذلك الغريب الذي كان يحاول أن يكون لطيفاً وهو يخبرني أن ألن قد مات. جلست لساعات أحدّق في الزجاج المشطوف من نافذة الكوة. يمكنني حتى الآن أن أرى أكوام الجليد الملونة بألوان قوس قزح في الفناء الجانبي».

مرات لا تعد ولا تحصى أثناء العلاج كان علينا أن نعود إلى حلم النصين ومعنى موت البراءة. لقد أثّر فقدان شقيقها على حياتها. لقد فجّر الموت براءتها إلى الأبد. لقد ولّت أساطير الطفولة: العدالة، القدرة على التنبؤ، إله الخير، النظام الطبيعي للأشياء، حماية الوالدين، سلامة البيت. وحيدة وبدون حماية نزوات الوجود، كافحت إيرين

حتى تصل بر الأمان. كانت تعتقد أنه كان من الممكن أن ينجو شقيقها ويعيش لو أنه تلقى العلاج الطبي المناسب في قسم الطوارئ. أطلّ الطب برأسه - الذي كان الأمل الوحيد بالنسبة لها لتتغلب على الموت، وفي جنازة ألن قررت فجأة أن تتقدّم إلى كلية الطب وتصبح طبيبة جرّاحة.

كان للقرار الآخر الذي اتخذته إيرين بعد وفاة ألن آثار كبيرة على عملنا في العلاج.

«اكتشفتُ طريقة لأتجنب التعرض للأذى مرة أخرى: لن أعرّض نفسي لمثل هذا الفقدان مرة أخرى إذا لم أبدِ اهتماماً بأحد».

«كيف كان تأثير هذا القرار على حياتك؟»

«خلال السنوات العشر التي أعقبت ذلك لم أقم أي علاقة مع أي رجل، ولم أجازف. عرفت رجالاً كثيرين، لكنني كنت أقطع علاقتي بهم بسرعة، قبل أن تصبح العلاقة جادة، وقبل أن أشعر بأي شيء».

«لكن شيئاً تغيّر بعد ذلك. فقد تزوجتِ. كيف حدث ذلك؟»

«كنت أعرف جاك منذ أن كنت في الصف الرابع الابتدائي، وكان يخطر ببالي دائماً أنه سيكون ذلك الشخص. حتى عندما اختفى من حياتي وتزوج امرأة أخرى، كنت أعرف أنه سيعود. كان أخي يعرف ذلك وكان يحترمه. أظن

أنه يمكنك أن تقول إن أخي هو الذي اختار جاك».

«إذن، موافقة ألن على جاك هي التي جعلتك تجازفين بالزواج؟»

«لم يكن الأمر بهذه البساطة. استغرق ذلك زمناً طويلاً، وحتى في ذلك الوقت، رفضت أن أتزوج جاك حتى وعدني بألّا يموت قبل أن أموت».

قدّرت سخرية إيرين ورفعت نظري بابتسامة عريضة لأرى ابتسامتها، لكنها لم تبتسم. فلم تكن إيرين ساخرة، وإنما جادة مثل صخرة.

تكرر هذا السيناريو مرة بعد أخرى خلال فترة علاجنا. كنت صوت العقل، وكنت أتناول الطُعم في أحيان كثيرة: فقد واجهت لاعقلانيتها، جادلتها، ناشدت عقلها، حاولت أن أوقظ عقلها الدقيق والمشحوذ علمياً. وفي مرات أخرى، كنت أنتظر فقط. لكن النتيجة كانت نفسها دائماً: لم تكن تتزحزح قيد أنملة، لم تتنازل عن موقفها. ولم أعتد قط على طبيعتها المزدوجة، وضوحها الاستثنائي الذي تحيط به لاعقلانية مستحيلة.

الدرس الثاني: جدار من الجثث

إذا كان حلم إيرين الأول قد مهدّ السبيل لطبيعة علاقتنا في المستقبل، فقد كان الحلم الذي رأته في السنة الثانية من العلاج عكس ذلك تماماً - ضوء موجّه إلى الخلف، يضيء المسار الذي قطعناه معاً.

> أنا في هذا المكتب، جالسة على هذا الكرسي، لكن يوجد في وسط الغرفة جدار غريب يفصل بيننا. لا أستطيع أن أراك. في البداية لم أستطع أن أرى الجدار بوضوح. لم يكن منتظماً وكان مليئاً بالشقوق والنتوءات. رأيت رقعة صغيرة حمراء مزخرفة باللون الأحمر، ثم رأيت يداً. ثم قدم وركبة. عرفت الآن ما هو - جدار من جثث مكدسة الواحدة فوق الأخرى.

«وكيف كنتِ تشعرين في الحلم يا إيرين؟» هكذا يكون أول سؤال لي عادة، فالشعور في الحلم يقود في معظم الأحيان إلى مركز معناه.

«غير سار، مخيف. كان أقوى شعور لي في البداية - عندما رأيت الجدار شعرت بأنني ضائعة، وحيدة - تائهة - مذعورة».

«حدثيني عن الحائط».

«عندما أصفه الآن، يبدو مروعاً - مثل كومة من الجثث في محرقة أوشفيتز. وتلك الرقعة الحمراء المنقوشة - أعرف

تلك النقشة. إنها البيجاما التي كان جاك يرتديها في الليلة التي مات فيها. لكن الجدار لم يكن مرعباً تقريباً - كان ببساطة موجوداً هناك، شيء أتفحّصه وأدرسه. ربما خفّف من حدة خوفي قليلاً».

«جدار من الجثث يفصل بيننا - ماذا تفهمين من هذا يا إيرين؟»

«لا يوجد لغز. لا يوجد غموض في الحلم كله. إنه الشعور الذي ينتابني طوال الوقت. يقول الحلم إنك لا تستطيع أن تراني حقاً بسبب كل هذه الأجساد، كل هؤلاء الموتى. لا يمكنك أن تتخيل. فلم يحدث لك شيء من هذا القبيل. لم تحدث مأساة في حياتك».

ازداد عدد الخسائر في حياة إيرين. في البداية شقيقها، ثم زوجها الذي توفي في نهاية سنتنا الأولى من العلاج. بعد بضعة أشهر، شُخِّص والدها بسرطان البروستاتا المتقدّم، أعقبه بعد فترة قصيرة إصابة أمها بمرض الزهايمر. وعندما بدا أنها بدأت تحرز تقدماً في العلاج، غرق ابنها بالمعمودية البالغ من العمر عشرين عاماً - ابن ابن عمها الوحيد، صديقها المقرّب طوال عمره - في حادث بالقارب. كانت في خضم مرارتها ويأسها لهذه الخسارة الأخيرة التي حلمت بها بجدار من الجثث.

«تابعي يا إيرين، إني أنصت إليك».

«أقصد أن أقول، كيف يمكنك أن تفهمني؟ فحياتك

ليست واقعية - دافئة، هادئة، بريئة - مثل هذا المكتب»، وأشارت إلى الرفوف المليئة بالكتب، خلفها وإلى شجرة القيقب اليابانية القرمزية المتلألئة خارج النافذة، «الشيء الوحيد غير الموجود بعض وسائد مزخرفة برسومات، ومدفأة، وحطب مشتعل يطقطق. أفراد عائلتك يحيطون بك - يعيشون جميعاً في نفس المدينة. دائرة عائلية متواصلة. ما الذي يمكن أن تعرفه حقاً عن الفقدان؟ هل تظن أنك ستعالج ذلك بشكل أفضل؟ افترض أن زوجتك أو أحد أطفالك سيموت الآن؟ كيف ستتصرف؟ حتى هذا القميص المخطط الأنيق الذي ترتديه - إني أكرهه. كلّما لبسته، أجفل. إني أكره ما يقوله».

«ماذا يقول؟»

«يقول: لقد حُلَّت جميع مشاكلي. حدّثني عن مشاعرك».

«لقد تحدّثت عن هذه المشاعر من قبل، لكنها قوية اليوم. لماذا الآن؟ والحلم، لماذا حلمت هذا الحلم الآن؟»

«قلت لك إنني سأكلّم إريك، وقد تناولت معه العشاء البارحة».

«و؟» رحت أحثّها مرة بعد أخرى من فترات الصمت المزعجة تلك التي تشير إلى أنني يجب أن أكون قادراً على أن أربط بين إريك والحلم. كانت قد ذكرت هذا الرجل مرة واحدة فقط، وأخبرتني أن زوجته ماتت منذ عشر سنوات، وأنها التقت به في محاضرة عن فجيعة الفقدان.

«وقد أكد على كل ما قلته. قال إنك مخطئ تماماً بأنني تجاوزت موت جاك. لا يمكنك أن تتجاوزه أبداً. مع أن إريك تزوج زوجة جديدة وأصبحت لديه ابنة في الخامسة من عمرها، لم يتوقف الجرح عن النزيف. فهو لا يزال يكلّم زوجته المتوفاة كلّ يوم. إنه يفهمني، وأنا مقتنعة الآن بأن الأشخاص الذين كانوا هناك وحدهم الذين يمكنهم أن يفهموا. يوجد مجتمع سري صامت...»

فقاطعتها قائلاً: «مجتمع سري؟»

«من بين الأشخاص الذين يعرفون حقاً - جميع الثكالى - فإنك تحثنّي طوال الوقت على أن أنفصل عن جاك، وألتفت إلى الحياة، وأعيش حباً جديداً - كلّ هذا خطأ. خطأ يصدر من شخص متعجرف مثلك لم يفقد أحداً في حياته».

«إذن الثكالى وحدهم الذين يمكنهم معالجة الثكالى؟»

«يجب أن يكون شخصاً عاش هذه التجربة».

«إني أسمع هذا الكلام منذ أن دخلت هذا المجال»، انفجرت فيها، «هل المدمنون على الكحول وحدهم الذين يمكنهم معالجة مدمني الكحول؟ أم أن يقوم المدمنون بمعالجة المدمنين؟ وهل يجب أن أكون مصاباً بفقدان الشهية المرضي لكي أعالج المصابين بفقدان الشهية المرضي، أو هل يجب أن أكون مصاباً بالاكتئاب أو الهوس لكي أعالج المصابين بالاضطرابات الوجدانية؟ وماذا أنني يجب أن أكون مصاباً بالفصام لكي أعالج مريضاً بالفصام؟»

كانت إيرين تعرف كيف تضغط على أزراري، فلديها موهبة خارقة في معرفة الأشياء التي تثير غضبي.

فردّت بقوة: «أوه، لا. كنتُ رئيسة فريق المناظرات في جامعة رادكليف، وأعرف هذه الأساليب - البرهان بنقض الفرض - لكن ذلك لن يجدي نفعاً. أعترف بذلك. إنك تعرف أنه توجد حقيقة في ما أقوله».

«لا، لا أتفق معك. إنك تتجاهلين تماماً تدريب المعالجين النفسانيين. هذا ما يركز عليه التدريب في مجال تخصصي - اكتساب الحساسية والتعاطف - وأن أكون قادراً على ولوج عالم شخص آخر، وأختبر ما يختبره المريض».

كنت منزعجاً جداً. تعلّمت ألّا أتراجع. عندما انفصلتُ عن مشاعري، أصبح عملنا معاً أفضل بكثير. كانت إيرين تأتي إلى مكتبي وهي في حالة اكتئاب شديد إلى درجة أنها لا تكاد تستطيع أن تتكلّم. لكن ما إن نبدأ الحديث عن شيء حتى تصبح الحيوية. كنت أعرف أنني أتقمص دور جاك هنا، فهو الوحيد القادر على مواجهتها. كان سلوكها البارد جداً مروّعاً للآخرين (كان الأطباء المقيمون يلقبونها «الملكة»)، لكن جاك لم يذعن لها قط. قالت لي إنه لم يكن يحاول إخفاء مشاعره، وكان كثيراً ما يغادر الغرفة وهو يتمتم: «لا يوجد لديَّ وقت لهذا الهراء».

لم أكن أغضب من إصرارها على أن المعالجين الذين فقدوا عزيزاً هم الذين يستطيعون أن يعالجوا مريضاً فقد

عزيزاً فقط، وإنما كنت غاضباً من إريك أيضاً لأنه عزّز وجهة نظرها بأن الشعور بالفقد لا ينتهي. كانت هذه الفكرة جزءاً من نقاش مستمر بيني وبين إيرين. كنت أتخذ موقفاً راسخاً وسليماً، وهو أن التفجُّع يتكون من أن يفصل المرء نفسه تدريجياً عن الشخص الذي فقده، ويعيد توجيه طاقته نحو الآخرين. عمل فرويد على فهم التفجُّع والحزن لأول مرة في عام 1915 في كتابه « التفجُّع والسوداويّة (المالَنخُوليَا)»، وقد دُعم هذا النهج منذ ذلك الحين بالكثير من الملاحظات السريرية والبحوث التجريبية.

في الأبحاث التي أجريتها والتي انتهت قبل أن أبدأ معالجة إيرين بفترة قصيرة، انفصل جميع الأرامل موضوع الدراسة بالتدريج عن أزواجهم المتوفين، ثم ركّزوا اهتمامهم على شيء أو شخص آخر. وينطبق ذلك حتى على أكثر الأزواج الذين كانت زيجاتهم تتسم بالحب. في الواقع، وجدنا دليلاً قوياً بأن الكثير من الأرامل الذين كان زواجهم سعيداً اجتازوا فترة الفجيعة والانفصال بسهولة أكبر من الأرامل الذين عانى زواجهم من صعوبات وصراعات كبيرة. (بدا لي أن تفسير هذه المفارقة يكمن في الشعور «بالندم» بالنسبة للذين أمضوا حياتهم ومع الشخص الخطأ، لذلك الفجيعة معقدة أكثر لأنه كان عليهم أن يحزنوا على أنفسهم أيضاً، على سنواتهم العديدة الضائعة). وبما أن زواج إيرين بدا لي زواجاً مفعماً بالحب والدعم إلى درجة كبيرة، فقد توقعت في البداية أن فجيعتها لن تكون معقدة بعض الشيء.

لكن إيرين كانت تنتقد كثيراً معظم المواقف التقليدية المتعلقة بالفقد. وقد كرهت تعليقاتي المتعلقة بالانفصال عن زوجها المتوفى ورفضت الأبحاث التي أجريتها رفضاً قاطعاً، وقالت: «نحن الذين فقدنا أشخاصاً أعزاء تعلّمنا أن نعطي الإجابات التي يريدها الذين يحققون معهم. تعلّمنا أن العالم يريد أن نتعافى بسرعة، وصبره ينفد مع الذين يتشبثون بالأشخاص الذين فقدوهم لفترة طويلة».

كانت ترفض بشدة أي اقتراح بأن تتخلّى عن جاك أو تنساه: فحتى بعد سنتين من وفاته، ما تزال أغراضه الشخصية موجودة في أدراج مكتبه، وصوره معلّقة في أرجاء المنزل، وما تزال مجلاته وكتبه المفضّلة في مكانها، وتواصل أحاديثها اليومية الطويلة معه. خشيت أن تعيد أحاديثها مع إريك العلاج أشهراً إلى الوراء من خلال تعزيز فكرتها بأنني مخطئ. وسيكون إقناعها الآن بأنها ستتعافى في نهاية الأمر من حزنها أصعب من أي وقت مضى. أما بالنسبة لإيمانها الأحمق بمجتمع صامت سرّي للثكالى الذين يتفقون جميعهم معها، فقد كانت مجموعة أخرى من أوهامها اللاعقلانية. ولم تكن هناك جدوى من تكريم هذا المفهوم بإجابة واحدة.

لكن كما هو الحال دائماً، كانت بعض تعليقات إيرين صائبة. تُحكى قصة عن النحّات السويسري ألبرتو جياكوميتي الذي كُسرت ساقه في حادث سيارة، أنه بينما كان مستلقياً في الشارع بانتظار سيارة الإسعاف، سُمع أنه يقول: «أخيراً، أخيراً، حدث لي شيء». أعرف تماماً ما الذي يقصده. كانت

إيرين تعرفني جيداً. فأنا أدرّس في جامعة ستانفورد منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأعيش في البيت نفسه، ورأيت أطفالي يذهبون إلى نفس المدارس، ولم أضطر طوال حياتي لأن أواجه الظلام، ولا توجد في أسرتي وفيات صعبة ومبكّرة: فقد مات أبي وهو في السبعين من عمره، وماتت أمي وهي في التسعينات من عمرها، وتتمتع أختي التي تكبرني بسبع سنوات بصحة جيدة، ولم أفقد أصدقاء أعزاء، وأبنائي الأربعة قريبون مني وناجحون.

بالنسبة لمفكّر تبنّى إطاراً مرجعياً وجودياً، فإن هذه الحياة المحمية والحميدة مسؤولية. في كثير من الأحيان، كنت أتوق إلى أن أنزل من البرج العاجي في الجامعة إلى خضم العالم الحقيقي. ولسنوات طويلة، كنت أتخيّل أن أمضي إجازة دراسية سنوية كعامل يدوي، ربما سائق سيارة إسعاف في ديترويت، أو طاهٍ في مطعم صغير في شارع باوري في نيويورك، أو أعدّ سندويشات في مطعم صغير للوجبات السريعة في حيّ مانهاتن، لكنني لم أفعل ذلك في حياتي قط: فلم تكن الدعوات للذهاب إلى شقة زميل في فينسيا، أو قضاء فترة زمالة دراسية في جامعة بيلاجيو على بحيرة كومو تُقاوم. حتى أنني لم أعش تجربة انفصال عن زوجتي، ولم أعش العزلة التي يعيشها البالغون. فقد تعرّفت على زوجتي مارلين عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، وقررت على الفور أنها المرأة المناسبة لي. (حتى أنني راهنت أعزّ صديق لي على مبلغ 50 دولاراً بأنني

سأتزوجها - وحصلت على مبلغ الرهان بعد ثماني سنوات). ولم يكن زواجنا هادئاً دائماً - بفضل الحركة الرومانسية الألمانية «العاصفة والتوتر» - لكنها كانت طوال حياتي صديقة محبّة، تقف إلى جانبي على الدوام.

في بعض الأحيان، كنت أحسد في سريرتي المرضى الذين يعيشون على حافة الهاوية والذين يمتلكون الشجاعة لتغيير حياتهم تغييراً جذرياً، والذين ينتقلون، ويتركون أعمالهم، ويغيّرون مهنهم، ويطلّقون ويبدأون حياة جديدة. أشعر بالقلق من كوني متلصصاً على حياة الآخرين، وأتساءل إن كنت أشجّع مرضاي من دون أشعر على أن يقدموا على عمل بطولي نيابة عني.

قلت كلّ هذه الأشياء لإيرين. لم أحذف منها شيئاً. قلت لها إنها محقّة في ما قالته عن حياتي - إلى حدّ ما.

«وعلى الرغم من ذلك، فأنتِ لستِ على صواب عندما تقولين إنه لا توجد لديَّ تجربة مأساوية، فأنا أبذل كل ما بوسعي لأقرّب المأساة مني. أُبقي على موتي في بؤرة تركيزي. عندما أكون معك، أتخيّل غالباً كيف سيكون الأمر لو كانت زوجتي مصابة بمرض عضال، وأشعر في كلّ مرة بحزن لا يوصف. إني أدرك، أدرك تماماً، أنني أسير قدماً، وأنني انتقلت إلى مرحلة أخرى من الحياة. كان التقاعد المبكّر من جامعة ستانفورد خطوة لا رجعة فيها. فكلّ علامات الشيخوخة - غضروف ركبتي الممزق، بصري الذي

بدأ يخفت، وآلام ظهري، ولويحات الشيخوخة، ولحيتي وشعري اللذين غزاهما الشيب، والأحلام التي تراودني عن موتي - تقول لي إنني أتقدّم نحو نهاية حياتي.

«طوال عشر سنوات يا أيرين، اخترت أن أعمل مع مرضى يموتون من السرطان، بأمل أن يجعلونني أقترب إلى جوهر الحياة المأساوي أكثر. لقد حدث ذلك بالفعل، وعدت إلى ثلاث سنوات من العلاج، ورأيت رولو ماي الذي اعتبر كتابه «الوجود» في غاية الأهمية عندما كنت أتدرب على التحليل النفسي. ولم يكن هذا العلاج يشبه أي عمل شخصي آخر فعلته من قبل، وغصت بعمق في تجربة موتي».

هزّت إيرين رأسها. أعرف تلك الإيماءة - تلك الحركات المميّزة، رعشة الذقن الحادة التي تليها هزّتان أو ثلاث هزات خفيفة برأسها، رمز إشارة مورس جسدية خاصة بها تعني أنني أجبتها بشكل مرض ومعقول. لقد اجتزت الاختبار - في الوقت الحالي.

لكنّي لم أنتهِ من الحلم. «إيرين، أظن أنه توجد أشياء معقدة أكثر في حلمك»، وأشرت إلى الملاحظات التي دونتها (الملاحظات الوحيدة التي أدوّنها خلال الجلسة هي الملاحظات المتعلقة بالأحلام، لأنها سرعان ما تتلاشى، المرضى يكبتونها أو يحرفونها على الفور في غالب الأحيان)، وقرأت بصوت عالٍ الجزء الأول من حلمها: «'أنا في هذا المكتب، أجلس في هذا الكرسي. لكن يوجد جدار غريب في وسط الغرفة يفصل بيننا. لا أستطيع أن أراك'».

وتابعت قائلاً: «الجملة الأخيرة تلك تثير إعجابي. ففي الحلم أنتِ التي لا تستطيعين أن تراني. وكل ما ناقشناه في هذه الجلسة فهو عكس ذلك - وهو أنني أنا الذي لا أراك. دعيني أسألك شيئاً: منذ بضع دقائق عندما تحدثتِ عن تقدّمي في السن، كما تعلمين، العملية الجراحية التي أجريتها في ركبتي، عيناي...»

«نعم، نعم، سمعت كل ذلك»، قالت إيرين تستحثني.

«سمعتِ ذلك - لكن كالعادة، كلما ذكرت شيئاً عن صحتي، لمعت عيناك. مثل الأسبوعين الماضيين بعد أن أجريت جراحة في عيني، ومررت في وقت عصيب، وكنت أضع نظارات غامقة، لم تسأليني قط عن الجراحة التي أجريتها، ولم تسألي عن صحتي».

«لست بحاجة إلى أن أعرف شيئاً عن صحتك، فأنا المريضة هنا».

«أوه، لا، إنها أكثر من ذلك بكثير، أكثر من عدم الاهتمام، أكثر من كونك أنتِ المريضة وأنا الطبيب. إنك تتجنبينني. إنك تمنعين نفسك من معرفة أي شيء عني، لاسيما أي شيء يقلّل من شأني بشكل ما. منذ البداية أخبرتك أنه بسبب علاقتنا الاجتماعية السابقة وبسبب صديقينا المشتركين، إيرل وإميلي، لم أستطع أن أخفي نفسي عنك. ومع ذلك، لم تبدِ قط أي اهتمام بمعرفة أي شيء عني. ألا ترين أن هذا الأمر غريب؟»

«عندما بدأت أراك، لم أكن سأجازف بفقدان شخص مهم بالنسبة لي مرة أخرى. لم أستطع أن أتغلب على ذلك الشعور. لذلك كان أمامي خياران فقط...»

كما كانت تفعل في كثير من الأحيان، صمتت إيرين، كما لو أنني يجب أن أكون قادراً على التكهن بما تبقّى من كلامها. ومع أنني لم أشأ أن أحثّها على مواصلة الكلام، كان من الأفضل أن أُبقي التدفق مستمراً، في هذه اللحظة.

«ما هما هذان الخياران؟»

«حسناً، ألّا أدعك شخصاً مهماً بالنسبة لي - لكن ذلك كان مستحيلاً، أو ألّا أراك كشخص حقيقي لديه قصة يريد أن يحكيها».

«قصة؟»

«نعم، قصة حياة - تبدأ من البداية حتى النهاية. أريد أن أبقيك خارج الزمن».

«اليوم، كالعادة، دخلتِ إلى مكتبي وتوجهتِ مباشرة إلى كرسيكِ من دون أن تنظري إليّ. إنك تتجنبين دائماً أن تنظري في عينيّ. أهذا ما تقصدينه بـ «خارج الزمن؟»

هزّت رأسها، وقالت: «إن النظر إليك سيجعلك حقيقياً تماماً».

«ويجب أن يموت الناس الحقيقيون».

«الآن فهمت قصدي».

«سمعت للتو يا إيرين»، بدأتُ الجلسة بعد ظهر أحد الأيام، «أن زوج أختي توفي منذ بضع ساعات. مات فجأة. نوبة قلبية. كان من الواضح أنني كنت أرتجف، ولم أكن بكامل قوتي» - سمعتُ صوتي يتهدج - «سأبذل كل ما بوسعي لكي آتي إلى الجلسة».

كان من الصعب أن أقول ذلك، ومن الصعب أن أفعل ذلك، لكنني شعرت بأنه لا يوجد لديَّ خيار.

كان مورتون، زوج أختي الوحيدة، صديقاً عزيزاً ووجوده مهم في حياتي منذ أن كنت في الخامسة عشرة من عمري. صدمتني مكالمة أختي في منتصف النهار فحجزت على الفور في الطائرة التالية المتجهة إلى واشنطن. وعندما بدأت ألغي مواعيد الجلسات المحددة في الأيام القليلة القادمة، رأيت أن لديَّ موعداً مع إيرين بعد ساعتين، وأنه ما يزال عندي وقت للحاق برحلتي. هل يجب أن أحافظ على هذا الموعد؟

في السنوات الثلاث التي أمضيناها معاً، لم تتأخر إيرين عن أي موعد أو تغيب عنه قط، ولا حتى في أوقات الرعب عندما كان ورم جاك يدّمر دماغه وشخصيته. وعلى الرغم من كابوس رؤية زوجها وهو يموت أمامها بلا رحمة، كانت إيرين وفية لعملنا طوال الوقت، وأنا كذلك. فمنذ أول جلسة لنا، عندما وعدتها وقلت لها: «سأبحث ذلك معك»، التزمتُ

بأن أعمل معها بقدر ما أستطيع. وهكذا بدا خياري في يوم الحزن هذا واضحاً: سألتقي بها، وسأكون صادقاً معها.

لكن إيرين لم تجب. بعد أن جلسنا معاً صامتين لبضع دقائق، قلت أحثّها: «إلى أين تذهب أفكارك؟»

«كنت أتساءل كم عمره».

«سبعون سنة. كان على وشك أن يتقاعد من ممارسة عمله كطبيب». صمتُّ وانتظرتُ. لماذا؟ ربما فقط لأسمع عبارة التعزية القصيرة المعهودة، أو حتى لأسمع تعبير امتنان منها لأنني أتيت لأراها بالرغم من حزني.

ساد صمت. جلست إيرين من دون أن تفه بكلمة واحدة، وكان من الواضح أن عينيها كانتا مثبتتين على بقعة قهوة شاحبة صغيرة على السجادة.

«إيرين، ما الذي يجري في الفضاء بيننا اليوم؟» كنت أسأل هذا السؤال دائماً في كل جلسة، لقناعتي بأنه لا يوجد شيء له الأسبقية من سبر علاقتنا.

فقالت: «حسناً، لا بد أنه كان رجلاً لطيفاً»، دون أن تتحرك عيناها، «وإلّا لما حزنتَ عليه».

«أوه، هيا يا إيرين. الحقيقة. ما الذي يحدث في داخلك؟»

رفعت رأسها فجأة. كانت عيناها تحترقان، وقالت: «مات زوجي وهو في الخامسة والأربعين، ولو كان بإمكاني

أن أذهب إلى غرفة العمليات كل يوم وأُجري عمليات جراحية لمرضاي، وأدير مكتبي، وأعلّم طلابي، عندها تكون متأكداً كالجحيم بأنك تستطيع أن تأتي إلى هنا وتراني».

لم تكن كلماتها هي التي صدمتني وإنما صوتها. ذلك الجرس القاسي العميق لم يكن إيرين. لم يكن صوتها. كان أشبه بصوت حلقي غير طبيعي لفتاة شابة في فيلم « طارد الأرواح الشريرة». وقبل أن أتمكن من أن أعلّق على كلامها، انحنت إيرين لتأخذ حقيبتها.

قالت: «أنا ذاهبة».

انقبضت عضلات ربلتا ساقيَّ - أظن أنني كنت أعدّ نفسي لمواجهتها لو أنها توجهت نحو الباب. «أوه، لا، لن تذهبي. ليس بعد أن تبقي هنا وتقولي كلّ ما تفكرين فيه».

«لا أستطيع. لا أستطيع أن أعمل، لا يمكنني أن أبقى هنا معك. لا أصلح لأن أكون مع أي شخص».

«لا توجد إلّا قاعدة واحدة في هذا المكتب: وهي أن تقولي تماماً ما الذي يدور في ذهنك. إنك تؤدين عملك. لم تفعلي ذلك أفضل من ذلك».

ألقت حقيبتها على الأرض، وارتمت إيرين في كرسيها، وقالت: «قلت لك إنه بعد أن مات أخي، كنت أنهي دائماً علاقاتي مع الرجال بنفس الطريقة».

«كيف؟ احكي لي ذلك مرة أخرى».

«تصيبهم مصيبة، مشكلة، ربما يمرضون، عندها سأشعر بالغثيان، وأقطعهم من حياتي. شقّ جراحي سريع. أشقّه جيداً، وبشكل حاد».

«لأنك تقارنين مشكلتهم بجسامة فقدان ألن؟ هل سيجعلك ذلك تشعرين بالمرارة؟»

هزّت برأسها تعبيراً عن تقديرها. «هذا معظم الأمر، أنا متأكدة من ذلك. بالإضافة إلى أنني، لا أريد أن يكونوا مهمين بالنسبة لي. لا أريد أن أسمع عن مشاكلهم التافهة».

«ومعي اليوم؟»

«لوّنها باللون الأحمر! غضب! كنت أريد أن ألقي شيئاً عليك».

«لأنك شعرت أنني أقارن فقداني بفقدانك؟»

«نعم. وقلت في نفسي إننا عندما ننهي جلستنا، ستنقل خسارتك في درب حديقتك الصغيرة إلى زوجتك التي ستكون واقفة هناك تنتظر بقية حياتك المريحة الأنيقة. عندما يتحوّل ذلك إلى الأحمر».

إن مكتبي الذي يبعد بضع مئات الأقدام عن بيتي عبارة عن كوخ مريح سقفه من القرميد الأحمر محاط بأشجار خضراء مورقة وأزهار الترمس والويستريا والفرانجيباني والخزامى الإسباني. ومع أن إيرين تحبّ هدوء مكتبي، فقد كانت تبدي في أحيان كثيرة تعليقات ساخرة عن حياتي التي تشبه كتاباً مصوّراً.

وتابعت تقول: «لست أنت الوحيد الذي أشعر بالغضب منه، وإنما كل شخص لم يعترِ حياته أي مكروه. لقد حدثتني عن أرامل يكرهون ألّا يكون لديهم دور في المجتمع، ويكرهون أن يكونوا زائدين عن الحاجة في حفلات العشاء، لكن ليس دورهم أو كونهم زائدين عن الحاجة هو المهم: إنها كراهية الجميع لأنهم يعيشون الحياة، إنه الحسد، إنها المرارة التي يمتلئون بها. هل تظن أنني أحبّ أن أشعر بهذه الطريقة؟»

«منذ قليل، عندما كنت تستعدين لتغادري، قلتِ إنكِ غير مؤهلة لتكوني مع أي شخص».

«حسناً، هل قلتُ ذلك؟ هل تريد أن تكون مع شخص يكرهك لأن زوجتك ما تزال على قيد الحياة؟ هل يريد أحد أن يكون مع ذلك الشخص؟ القار الأسود - أتذكر؟ لا يريد أحد أن يُلطَّخ بالإسفلت، أليس كذلك؟»

«لقد منعتكِ من أن تغادري، أليس كذلك؟»

لم تجب.

«أقول لا بد أنك تشعرين بالدوار لأنك غاضبة مني، وعلى الرغم من ذلك، فأنتِ قريبة جداً، ممتنة جداً».

هزّت رأسها.

«ارفعي صوتك قليلاً يا إيرين. لا أستطيع أن أسمعك جيداً».

«لقد أحسست بالدوار عندما تساءلت لماذا أخبرتني عن زوج أختك اليوم».

«يبدو أنك تشكّين في ذلك».

«كثيراً».

«ألا يوجد لديك حدس؟»

«أكثر من مجرد حدس. أظن أنك كنت تحاول أن تتلاعب بي لترى كيف ستكون ردة فعلي. تختبرني».

«لا عجب أنكِ انفجرت. ربما سيكون من المفيد لو أنني أخبرتك ما الذي أشعر به في أعماقي اليوم بعد أن تلقيت خبر وفاة مورتون». أخبرتها كيف أنني ألغيت بقية مواعيدي لكنني قررت أن أراها، وسبب ذلك. «لم أستطع أن ألغيه - ليس بعد شجاعتك لأنك تأتين دائماً إلى هنا مهما كان الأمر، لكن»، واصلت كلامي، «ما زال عليَّ أن أواجه السؤال كيف يجب أن أكون معك، وأتعامل مع فقداني في نفس الوقت.

«إذن ما هي الخيارات المتاحة لي اليوم يا إيرين؟ أن أنهي كلّ شيء وأنسحب منك؟ سيكون ذلك أسوأ من إلغاء الموعد. أن أحاول أن أبقى قريباً منك وصادقاً معك وألّا أخبرك عنه؟ مستحيل - إنها وصفة لكارثة: لقد تعلّمت منذ فترة طويلة أنه عندما يوجد مشكلة كبيرة بين شخصين ولا يتحدّثان عنها، فإنهما لا يتحدّثان عن أي شيء آخر ذي

أهمية أيضاً. هذه المنطقة هنا» - وأشرت إلى الفجوة التي تفصل بيننا - «يجب أن نبقيها نظيفة وحرة، وهذه هي وظيفتي ووظيفتك أيضاً. لذلك قلت لك ما الذي يحدث لي مباشرة. مباشرة بقدر ما أستطيع - لا يوجد تلاعب، ولا يوجد اختبار، ولا يوجد دافع خفي وراء ذلك».

هزّت إيرين رأسها مرة أخرى لتُعلمني أنني أجبتُ إجابة ذكية ومنطقية.

قبل أن ننهي الجلسة بقليل، اعتذرت إيرين عن ملاحظتها. وفي الأسبوع التالي، قالت لي إنها حكت ما حدث بيننا لإحدى صديقاتها فصُعقت من سلوكها الفظ تجاهي، واعتذرت مرة أخرى.

«لا داعي للاعتذار»، قلت مؤكداً، وأنا أقصد ذلك. حقاً أقصد ذلك. في الواقع، بطريقة غريبة رحبت بما قالته لي وكنت متأكداً من أنني سأراها: كان ذلك شيئاً جيداً وحقيقياً زادني قرباً منها. إنها حقيقة شعورها تجاهي - أو جزءاً من الحقيقة - وأملتُ أن يأتي الوقت الذي أسمع فيه بقية ذلك.

كان غضب إيرين الذي واجهته لأول مرة في الشهر الثاني من العلاج، عميقاً وواسعاً. ومع أنني كنت أشتعل غضباً بين الحين والآخر، فقد كان يقبع دائماً تحت السطح. في البداية لم أشعر بالقلق كثيراً إزاء ذلك. فقد أكدّ لي البحث الذي أجريته أن هذا الغضب ليس شعوراً بالقلق أكثر من كونه شعوراً دائماً بالذنب أو الندم أو الإنكار يتبدد بسرعة

ويختفي. لكن في هذه الحالة، كما في معظم الحالات في علاجي لإيرين، فإن هذا البحث مضلل. فقد وجدت مرات كثيرة أن الحقيقة «ذات الدلالة الإحصائية» (باستثناءات في أحيان كثيرة - «القيم المتطرفة» - المستبعدة من الحساب لأسباب إحصائية) لا صلة لها تذكر بحقيقة لقائي الفريد بشخص من لحم ودم يجلس أمامي.

في إحدى جلساتنا في السنة الثالثة من العلاج، سألتها: «ما هي المشاعر التي نقلتها إلى البيت من جلستنا الأخيرة؟ أي أفكار عني خلال الأسبوع؟» في معظم الأحيان أطرح هذا النوع من الأسئلة كجزء من حملتي لتركيز الاهتمام العلاجي على «هنا والآن» في اللقاء بيني وبين المريض.

صمتت قليلاً، ثم سألت: «هل تفكّر بي بين الجلسات؟» مع أن هذا السؤال الموجه من مريض يخشاه معظم الأطباء المعالجين، ليس غير شائع، لم أتوقع أن أسمعه بشكل ما من إيرين. ربما لم أكن أتوقع منها أن تبدي اهتماماً، أو على الأقل، أن تقرّ بذلك.

«أنا - أنا - أفكّر كثيراً في حالتك «، تمتمتُ. إجابة خاطئة.

جلست للحظة، ثم نهضت واقفة، وقالت: «سأغادر الآن» وخرجت وصفقت الباب وراءها.

رأيتها عبر النافذة تذرع الحديقة وقد أشعلت سيجارة. جلستُ وانتظرت. قلت في نفسي، كم من السهل أن يتجاهل

المعالجون غير المتفاعلين جيداً، سؤالها، بأساليب من قبيل: «لماذا تسألين؟» أو «لماذا الآن؟» أو «ما هي تخيلاتك أو رغباتك إزاء ذلك؟» أما بالنسبة لمعالجين مثلي، يكرسون أنفسهم لعلاقة تتسم بمزيد من المساواة والشفافية للطرفين، فإن الأمر ليس بهذه السهولة. ربما لأن السؤال يكشف عن حدود المصداقية العلاجية: فمهما حاول أن يكون المعالج صادقاً، ومهما كان حميماً وصادقاً، تبقى هناك فجوة لا يمكن رأبها، عدم مساواة أساسية بين المعالج والمريض.

كنت أعرف أن إيرين تكره أن أفكّر بأنها «حالة» - وتكره أيضاً أنها جعلتني أعني الكثير بالنسبة لها. ربما كنت، بالطبع، أكثر حساسية، واستخدمت كلمة أكثر دفئاً وأكثر شخصية من كلمة «حالة». لكنّي أعتقد أن أي رد مناسب مني لن يمنحها ما تريد أن تسمعه. فقد كانت تريد أن أفكّر أفكاراً أخرى - حبّ، إعجاب، أفكار حسّية، أو ربما شغف. نعم، شغف - هذه هي الكلمة.

عندما أنهت سيجارتها، عادت إلى المكتب بمزيد من الثقة في نفسها، وجلست في كرسيها كما لو أن شيئاً غير عادي قد حدث، وواصلتُ مخاطبة إحساسها بالواقع.

«طبعاً»، قلت بنبرة عملية، «يفكّر المرضى غالباً بمعالجيهم أكثر مما يفكّر المعالجون بهم. فالمعالج يرى الكثير من المرضى، بينما يوجد للمريض معالج واحد فقط. وينطبق الشيء نفسه عليَّ عندما أكون في جلسة علاج، وألا

ينطبق هذا على المرضى الذين تجرين لهم عمليات جراحية وعلى طلابك؟ ألا تلوحين في أذهانهم أكثر مما يلوحون في ذهنك؟»

لم تكن الحالة واضحة تماماً. فلم أتحدّث عن حقيقة أن المعالجين يفكّرون بالمرضى بين الجلسات - لا سيما المرضى ذوي الإشكاليات الذين يثيرون حفيظة المعالج بطريقة أو بأخرى. فقد يفكّر المعالجون في ردود أفعالهم العاطفية القوية تجاه مريض، أو لا يعرفون تماماً ما هي أفضل وسيلة يجب اتباعها (يجب على المعالج الذي يجد أنه وقع في قبضة تخيّلات غاضبة، أو انتقامية، أو مشاعر حبّ، أو مشاعر إيروتيكية تجاه مريضته أن يسعى إلى مناقشة الأمر مع صديق - زميل أو مستشار محترف أو معالج شخصي).

بالطبع، لم أقل لإيرين إنني أفكّر فيها في أحيان كثيرة بين الجلسات. فهي تثير حيرتي، وأشعر بالقلق عليها. لماذا لا يطرأ أي تحسن على حالتها؟ إذ تبدأ حالة معظم الأرامل اللاتي عالجتهن بالتحسن بعد السنة الأولى من العلاج، وتظهر كلّ واحدة منهن تحسّناً ملحوظاً في نهاية العام الثاني. أما إيرين فلم تبدِ أي تحسّن، وظل شعورها باليأس وفقدان الأمل في ازدياد. فلم تكن تشعر بالفرح في حياتها، وبعد أن تضع ابنتها في سريرها مساء كل يوم، تبكي، ولم تتوقف عن الخوض في أحاديث طويلة مع زوجها المتوفى، وترفض جميع الدعوات التي توجه إليها للقاء أشخاص جدد، حتى

أنها ترفض التفكير في إمكانية إقامة علاقة جدية أخرى مع أي رجل.

أنا معالج نفسي قليل الصبر، وقد ازداد شعوري بالإحباط، وكذلك اهتمامي بإيرين: فقد بدأ حجم معاناتها يخيفني. وبدأت أشعر بالقلق من أن تقدم على الانتحار - وأنا على قناعة تامة بأنها كانت ستنتحر لولا وجود ابنتها. وقد أرسلتها مرتين إلى زملائي للتشاور حول حالتها بشكل رسمي.

ومع أنني كنت أشعر بالانزعاج كثيراً لنوبات غضب الحزن الشديدة التي تنتاب إيرين، كنت أجد صعوبة أكبر في التعامل مع نوبات غضبها المعتدلة لكن المعتادة أكثر، فقد كانت قائمة تذمرها مني طويلة وتتزايد باستمرار، وقلما كانت تمرّ ساعة من دون أن تعبّر عن بعض غضبها.

فقد غضبت مني لأنني حاولت أن أساعدها على أن تفك ارتباطها بجاك وتوجّه طاقتها إلى مكان آخر، ولأنني شجعتها على أن تتعرّف على رجال آخرين، وهي غاضبة مني لأنني لست جاك. ونتيجة أحاديثنا العميقة، والحميمية، والشجار الذي ينشب بيننا، واهتمام أحدنا بالآخر، كانت تقارب كثيراً معي المشاعر التي تكنّها لزوجها. وعند انتهاء الجلسة، لم تكن تحب أن تعود إلى حياة لا يوجد فيها جاك ولا أنا. وهذا ما كان يجعل نهاية كل جلسة صاخبة ومضطربة. وكانت تكره أن أذكّرها بأن هناك حدوداً رسمية

لعلاقتنا، ومهما أشرت إلى حالتنا في نهاية الجلسة، كانت تنفجر في كثير من الأحيان وتقول: «هل تسمي هذه علاقة حقيقية؟ إنها ليست حقيقية. فأنت تنظر إلى الساعة وتطردني، تلقي بي بعيداً».

في نهاية الجلسة، كانت تظل أحياناً جالسة في مكانها محدّقة وترفض أن تتحرك من مكانها. وكانت كل مناشداتي العقلية - بـأنه يوجد لديَّ برنامج محدد للمرضى، وأنني أنظر إلى الساعة مشيراً إلى انتهاء موعد الجلسة، وأكرر أن إعلاني عن انتهاء الجلسة لا يعني أنني أطردها - تقع على آذان صماء، وتغادر مكتبي وهي في حالة شديدة من الغضب.

كانت تغضب مني لأنني شخص مهم بالنسبة لها، وتغضب لأنني لم أفعل الأشياء التي كان يفعلها جاك، مثل أن أمتدحها وأثني على جميع مزاياها الجيدة - مظهرها، سعة حيلتها، وذكائها. وفي كثير من الأحيان، كانت تنشب بيننا معارك حول مديحها. فقد كنت أشعر بأن كيل المديح لها سيعيدها إلى الطفولة، لكنها كانت تركز على ذلك كثيراً، وتصرّ بشدة على ذلك إلى أن أمتثل لها أحياناً. وأسألها ماذا تريد أن أقوله لها، وأكرر عملياً كلماتها، أحاول دائماً أن أُقحم فيها بعض الملاحظات الأصلية. ومع ذلك، فقد كان ما يبدو لي تمثيلية غريبة، يرفع معنوياتها دائماً، لكن لفترة مؤقتة فقط، وفي الجلسة التالية، تصرّ على أن أعيد ذلك مرة أخرى.

وكانت تغضب لأنها تفترض أنني يجب أن أفهمها، وإذا حاولتُ أن أتصدّى لمشاعرها بالتشاؤم وأذكّرها بأنها في خضم عملية لها بداية ونهاية، وأؤكد لها بعض نتائج الأبحاث التي أجريتها، تجيب بغضب: «إنك تريد أن تسلبني شخصيتي. إنك تتجاهل الشي الفريد والمميّز في تجربتي».

كان أي تفاؤل أعبّر عنه يتعلق بشفائها، تحوّله دائماً إلى اتهام بأنني أريدها أن تنسى جاك.

وكان أي ذكر لإمكانية لقائها برجل آخر بمثابة حقل ألغام. ففي معظم الأحيان، كانت تحتقر الرجال الذين تقابلهم وتغضب مني لأنني أقترح عليها أن تدرس جيداً الأحكام التي تطلقها عليهم، وكان أي اقتراح عملي أقدّمه لها، يحدث انفجاراً قوياً، وتقول بغضب: «إذا أردت أن أواعد أحداً، فأنا أعرف جيداً كيف أفعل ذلك. لماذا أدفع لك مبلغاً كبيراً لكي تقدّم لي نصائح بأن ألتقي برجال في حين يستطيع أصدقائي أن يقدّموا لي هذه النصائح مجاناً؟»

وكانت تغضب إذا قدمت لها اقتراحات ملموسة حول أي شيء، وتقول: «توقف عن محاولة إصلاح الأشياء، فهذا ما كان أبي يحاول أن يفعله طوال حياتي».

وكانت تغضب من نفاد صبري بسبب تقدّمها البطيء وعدم إقراري بالجهود التي بذلتها لمساعدة نفسها (لكنها لم تذكرها لي قط).

كانت إيرين تريد أن أكون قوياً مفعماً بالصحة. فقد كان

أي مرض أو ضعف - ألم في الظهر، إصابة في الركبة تحتاج إلى جراحة في الغضروف المفصلي، نزلة برد، حالة إنفلونزا - يثير انزعاجها كثيراً. كنت أعرف أن ذلك كان يجعلها خائفة أيضاً، لكنها كانت تخفي ذلك.

وفوق كلّ ذلك، كانت تغضب لأنني ما أزال حياً بينما يرقد جاك ميتاً.

لم يكن أياً من هذه الأشياء سهلاً عليّ. فلم أستمتع قط بالمواجهات الغاضبة، وفي حياتي الشخصية فإني أتجنب عادة الأشخاص الغاضبين. وبما أنني مفكّر وكاتب، فإن المواجهة مع الآخرين تبطئ أفكاري، وقد رفضت طوال مسيرتي المهنية الجدال العام وثبطّتُ كل المحاولات لأن أصبح رئيس القسم في الجامعة.

إذن كيف كنتُ أتعامل مع غضب إيرين؟ لقد استندت إلى المثل العلاجي القديم الذي يقول على المرء أن يفصل بين دوره وشخصه. وفي معظم الأحيان، يرتبط غضب المريض تجاه المعالج بدوره كمعالج، لا بشخصه. ويُدرَّس المعالجون المبتدئون: «لا تأخذوا الأمر على محمل شخصي». أو على الأقل، ألّا يأخذوا كلّ شيء على محمل شخصي، وأن يحاولوا التمييز بين ما يتعلق بك شخصياً وما يتعلق بالدور الذي تقوم به. يبدو من الواضح أن الكثير من غضب إيرين يعود إلى مكان آخر - الحياة، القدر، الله، لامبالاة الكون - لكنها كانت تطلقها ببساطة على أقرب

هدف تجده أمامها: وهو أنا، معالجها. كانت إيرين تعرف أن غضبها يزعجني وكانت تجعلني أعرف ذلك بسبل شتى. ففي أحد الأيام مثلاً، عندما اتصلت بها سكرتيرتي لتحدّد موعداً آخر لأنني اضطررت للذهاب إلى طبيب الأسنان، أجابتها إيرين: «أوه، حسناً، ربما كانت رؤية طبيب الأسنان ممتعة أكثر من رؤيتي».

لكن ربما كان السبب الرئيسي في عدم تأثري بغضب إيرين هو أنني كنت أعرف دائماً أنه يخفي حزنها الكامن في أعماقها ويأسها وخوفها. وعندما كانت تعبّر عن غضبها تجاهي، كنت أستجيب أحياناً بانفعال انعكاسي ونفاد صبر، لكن في كثير من الأحيان، كنت أستجيب بعطف. ما تزال كثير من صور أو عبارات إيرين ماثلة في رأسي، أذكر إحداها على وجه الخصوص، أحد أحلامها في المطار (خلال السنتين الأوليتين من وفاة زوجها، كانت ترى المطارات كثيراً في أحلامها).

أراني أندفع في صالة المطار، أبحث عن جاك. لا أعرف ما هي شركة الطيران. لا أعرف رقم الرحلة. أشعر باليأس... أدقق قوائم الرحلات المغادرة لعلي أجد دليلاً - لكني لا أرى شيئاً - فجميع وجهات الرحلات مكتوبة في كلمات غامضة لا معنى لها. ثم ظهر أمل - أستطيع أن أقرأ لافتة مكتوبة فوق إحدى بوابات المغادرة: «ميكادو». هرعت إلى البوابة. لكن بعد فوات الأوان. فقد غادرت الطائرة، واستيقظت وأنا أبكي.

سألتها: «تلك الوجهة - ميكادو؟ ما هي تداعياتك بميكادو؟»

«لست بحاجة إلى تداعيات»، قالت، متجاهلة سؤالي، «أعرف لماذا حلمتُ بميكادو. فقد كنت أغني تلك الأوبريت عندما كنت طفلة، فيها لا زمة لا أنساها:

مع أن الليل قد يهبط في وقت قريب
أمامنا سنوات وسنوات من المساء.

صمتت إيرين ونظرت إليَّ، والدموع تلمع في عينيها. لم تعد هناك جدوى من قول شيء آخر. لا لها، ولا لي. لم يكن بالإمكان تهدئتها. ومنذ ذلك اليوم، بدأت عبارة «أمامنا سنوات وسنوات من المساء» تتردد في ذهني. لم تحصل هي وجاك على نصيبهما من فترة المساء، لذلك، يمكنني أن أغفر لها كلّ شيء.

أثبت درسي المتقدّم الثالث أن لغضب الحزن قيمة كبيرة في حالات سريرية أخرى. ففي حين كنت أتجنب الغضب في الماضي بسرعة، محاولاً أن أفهمه وأحلّه بأسرع ما يمكنني، تعلّمت الآن كيف أحتوي الغضب، وكيف أبحث عنه وأسبر أغواره. ووسيلة الدرس المحددة؟ من هنا يأتي اللون الأسود.

عندما توفي زوج أختي، وهددت إيرين بأنها ستغادر الجلسة، وتساءلت إن كنت أريد أن أكون مع شخص يكرهني لأن زوجتي ما تزال على قيد الحياة، أشارت إيرين إلى قار أسود. سألتني: «هل تذكر؟ لا يريد أحد أن يُلطَّخ بالقار الأسود، أليس كذلك؟» وهي استعارة كانت تستخدمها في معظم جلساتنا خلال العامين الأولين من العلاج.

ما هو القار الأسود؟ حاولت كثيراً أن تجد الكلمات الدقيقة لتعريفها: «إنها مادة سوداء، كريهة، لاذعة، ترشح مني وتنتشر من حولي في حوض سباحة. إن القار الأسود حقير وصاخب، يصدّ ويجعل كلّ من يقترب مني ينفر مني، لأنه يلطّخهم أيضاً، ويعرّض حياتهم لخطر كبير».

مع أن للقار الأسود معان عديدة، فهو يشير في المرتبة الأولى إلى غضب حزنها، ومن هنا نبعت كراهيتها لي لأن زوجتي ما تزال حيّة ترزق. كانت معضلة إيرين فظيعة: فقد كان بإمكانها أن تبقى صامتة، تكتم غضبها، وتشعر بوحدة يائسة، أو قد تنفجر غاضبة، وتُبعد الجميع عنها، وتشعر بالوحدة على نحو بائس.

وبما أن صورة القار الأسود محفورة بعمق في ذهنها، لا يمكن أن يزيحه المنطق أو الكلام المنمق، فقد استخدمتُ الاستعارة لتوجيه علاجي، ولكي أحلّه لم أكن بحاجة إلى الكلمة العلاجية وإنما إلى الفعل العلاجي.

بدأت أحاول أن أبقى قريباً منها عندما تغضب لكي أهدّئ من حدة غضبها - كما كان يفعل جاك. كان عليَّ أن أشركها في الحديث، وأتصارع مع غضبها، ولا أدعها تبعدني عنها. كان غضبها يتخذ أشكالاً عديدة - فقد كانت تختبرني وتنصب لي فخاخاً. وقد أتاح أحد الفخاخ فرصة جيدة للعمل العلاجي.

بعد عدة أشهر من الانفعال والإحباط الشديدين، جاءت إلى مكتبي ذات يوم تشعر بهدوء ورضاء لسبب غير مفهوم.

قلت لها: «من الرائع أن أراك هادئة جداً. ماذا حدث؟» فقالت: «اتخذت قراراً حاسماً. فقد تخلّيت عن كل التوقعات لتحقيق السعادة الشخصية أو تحقيق الذات. لم أعد أتوق إلى الحبّ والجنس والرفقة والإبداع الفني. ومن الآن فصاعداً، سأكرّس نفسي بالكامل لتحقيق عملي - أن أكون أمّاً وطبيبة جرّاحة».

قالت كلّ ذلك بهدوء ورصانة شديدتين.

خلال الأسابيع القليلة الماضية، ازداد قلقي حدة لتفاقم شعورها باليأس، وتساءلت إلى أي قدر يمكنها أن تتحمل أكثر مما تتحمله الآن. وعلى الرغم من التغيير الغريب والمفاجئ الذي ظهر عليها، كنت ممتناً جداً لأنها وجدت وسيلة لتقلل من حدة ألمها، لم أشأ أن أستفسر عن سبب ذلك. وإنما اعتبرته حدثاً مباركاً - ليس مثل السلام الذي

يحققه العديد من البوذيين الذين يخففون من حدة المعاناة بعزل أنفسهم بشكل منهجي عن جميع الرغبات الشخصية الملحة بممارسة التأمل.

صدقاً، لم أكن أتوقع أن يستمر تحوّل إيرين، لكنني كنت آمل أن تؤدي حتى فترة مؤقتة من الراحة من ألمها المتواصل إلى بدء دورة إيجابية أكثر في حياتها. فإذا مكنتها حالة الهدوء من أن تتوقف عن تعذيب نفسها، وتتخذ قرارات تكيفية، وتقيم صداقات جديدة، ربما حتى أن تتعرف على رجل مناسب، فإني أعتقد أنها أحدثت فرقاً صغيراً في الطريقة التي حققت مبدئياً تلك الحالة الذهنية: أصبح بإمكانها ببساطة أن تضع السلم وتصعد إلى المستوى التالي.

لكنها هاتفتني في اليوم التالي وقالت غاضبة: «هل تدرك ما الذي فعلته؟ أي معالج أنت؟ رعايتك لي كلها عبارة عن مظاهر، ادعاءات. الحقيقة أنك مستعد لأن تجلس وتراقبني بهدوء وأنا أتخلّى عن كلّ شيء حيوي في حياتي - كلّ الحبّ والفرح والإثارة - كلّ شيء! لا، لا، إنه أكثر من مجرد أن تجلس وتراقبني، إنك مستعد لأن تتواطأ على أن أرتكب جريمة وأقتل نفسي». وهددت مرة أخرى بأن تترك العلاج، لكنّي أقنعتها أخيراً بأن تعود في الجلسة التالية.

خلال اليومين التاليين، فكّرت في تسلسل الأحداث. كلّما فكّرت في الأمر، ازددت غضباً. ومرة أخرى، لعبت دور تشارلي براون الذي رأسه عبارة عن بالونة وهو يحاول

أن يركل الكرة التي كانت لوسي تُبعدها عنه دائماً في اللحظة الأخيرة. وعندما حلّ موعد جلستنا التالية، كان غضبي يماثل غضب إيرين. فقد كانت تلك الجلسة أشبه بمباراة مصارعة أكثر من كونها جلسة علاج. كانت أخطر معركة دارت بيننا. إذ بدأت الاتهامات تتدفق منها: «لقد تخلّيتَ عني. إنك تريد أن أتنازل بقتل أجزاء حيوية من نفسي».

لم أتظاهر بأنني تعاطفت أو فهمت موقفها، فقلت لها: «لقد سئمت وتعبت من حقول ألغامك. فقد سئمت من اختباراتها لي التي كنت أفشل في كثير منها، ومن بين جميع الاختبارات، فقد كان هذا أقذر اختبار وأخطرها.

وأنهيت كلامي بأن استشهدتُ بجملة قالها زوجها المرحوم: «لدينا عمل كثير يجب أن ننجزه يا إيرين. لا يوجد لدينا وقت لهذا الهراء».

كانت واحدة من أفضل الجلسات. ففي نهاية الجلسة (بعد، بالطبع، مناوشة أخرى حول إنهاء الجلسة في الوقت المحدد واتهامها لي بأنني أطردها من المكتب) ازداد تحالفنا العلاجي قوة. ولم أكن أحلم في كتبي الدراسية، ولا في إشرافي أو تدريسي أن أنصح أي طالب أن يشتبك بغضب مع مريض، ومع ذلك، فقد دفعت هذه الجلسة إيرين إلى الأمام.

كانت استعارة القار الأسود هي التي وجّهت هذه الجهود. فمن خلال التواصل، والتواصل العاطفي، والتصارع معها (أتحدّث هنا مجازياً، مع أنه مرت أوقات شعرت فيها

أننا أصبحنا على حافة اشتباك جسدي)، كنت أثبت مراراً وتكراراً أن القار الأسود خيال لا يلطّخني، ولا يصدّني ولا يعرّضني للخطر. وقد تشبثت إيرين بقوة بهذه الاستعارة إلى درجة أنها كانت مقتنعة كلما اقتربتُ من غضبها بأنني سأتخلّى عنها أو أنني سأموت.

وأخيراً، في محاولة لإثبات أن غضبها لن يدّمرني ولن يبعدني، أرسيتُ قاعدة أساسية جديدة في العلاج: «كلّما انفجرتِ في وجهي، سنحدد تلقائياً موعداً إضافياً في ذلك الأسبوع». وقد أثبت هذا الإجراء فعالية عالية. وعندما أتذكر ذلك، أعتبره شيئاً ملهماً.

كانت استعارة القار الأسود قوية جداً، ومُبالغ فيها: فقد كانت صورة واحدة ترضي وتعبّر عن ديناميكيات لا واعية مختلفة. وكان غضب الحزن أحد معانيها المهمة. لكن كانت هناك أشياء أخرى، مثل الاعتقاد بأنها سامة، مُلَوَّثة، تجلب النحس على نحو مميت. فقد قالت لي في إحدى الجلسات: «أي شخص يضع قدمه في القار الأسود، يوقّع وثيقة موته».

«إذاً لا تجرئين على أن تحبّي مرة أخرى لأنك لا تستطيعين إلّا أن تقدّمي حبّ ميدوسا الذي يدّمر أي شخص يقترب منك؟»

«مات جميع الرجال الذين كنت أحبّهم - زوجي وأبي وأخي وابني بالمعمودية وساندي الذي لم أخبرك عنه - صديق مريض عقلياً انتحر منذ عشرين سنة».

«صدفة مرة أخرى. يجب أن تنسي ذلك»، قلت لها بإلحاح، «إنه حظ سيء، ولا توجد له آثار سيئة على المستقبل. لا توجد للنرد ذاكرة».

«صدفة، صدفة - العبارة المفضّلة لديك»، قالت ساخرة، «المصطلح المناسب هو كارما، ومن الواضح أنه يقول لي إنني يجب ألّا أحبّ رجلاً آخر».

ذكّرتني صورتها التي تجلب النحس على ذاتها بشخصية جو بفستبلك في المسلسل الهزلي «ليل أبنر» الذي تحوم فوق رأسه سحابة شؤم سوداء إلى الأبد. كيف يمكنني أن أبدد إيمان إيرين بكارما ملعونة؟ قاربت الموضوع أخيراً كما قاربت موضوع غضبها. كانت هناك حاجة إلى أكثر من كلمات فقط: كان عليّ أن أقدّم لها علاجاً يتألف من تجاهل تحذيراتها، والاقتراب منها مرات عديدة، والدخول إلى الفضاء السام الجالب للنحس، والبقاء حياً وأتمتع بصحة جيدة.

كان معنى آخر للقار الأسود لا يزال في ذهن إيرين مرتبطاً بحلم رأته ذات يوم عن امرأة جميلة ذات عينين سوداوين في شعرها وردة حمراء، تستلقي على أريكة.

> عندما اقتربتُ أكثر، أدركتُ أن المرأة لم تكن كما كانت تبدو: فقد كانت الأريكة التي تستلقي عليها نعش، وعيناها داكنتان لا من الجمال وإنما من الموت، والوردة القرمزية ليست وردة وإنما جرح دموي مميت.

«أعرف أنني هي تلك المرأة، وأن أي شخص يقترب مني لا بد أنه سيموت - وهذا سبب آخر لعدم الاقتراب مني كثيراً».

ذكّرتني صورة المرأة التي تضع وردة حمراء في شعرها بحبكة رواية «الرجل في المتاهة»، وهي رواية غير عادية تتنبأ بالمستقبل كتبها فيليب ديك أُرسل فيها رجل إلى عالم مكتشف حديثاً ليتواصل مع نوع متقدّم من الكائنات. ومع أنه يستخدم كل وسيلة تواصل يمكن تخيّلها - رموز هندسية، ثوابت رياضية، موضوعات موسيقية، هتاف، صراخ، تلويح بالأذرع - يتم تجاهله بدرجة كبيرة. لكن جهوده عكّرت صفو الكائنات التي لم تسمح لغطرسته أن تمرّ بدون عقاب. وقبل أن يغادر ويعود إلى الأرض، أجروا له جراحة أعصاب غامضة. ولم يدرك عقوبته إلّا بعد فترة طويلة: فقد جعلت العملية الجراحية التي أجريت له من المستحيل أن يحتوي قلقه الوجودي. لم يعد يتملكه الرعب من الصدفة المطلقة وموته الحتمي فحسب، وإنما حُكم عليه بالعزلة، لأن أي شخص يقترب منه إلى مسافة مئات الأقدام تنتابه نفس الانفجارات المهلكة من الرهبة الوجودية.

مهما ألححت على إيرين بأن القطران الأسود ما هو إلّا وهم، كنت أقع في الحقيقة في الفخ في أحيان كثيرة. وخلال عملي مع إيرين، عانيت من مصير الذين اقتربوا من بطل رواية فيليب ديك كثيراً: صدمتني حقائقي الوجودية. ومرة بعد أخرى، جعلتني جلساتنا أواجه موتي. ومع أنني أعرف دائماً

أن الموت ينتظرني، يبعث طنيناً خافتاً تحت غشاء حياتي، تمكنت من أن أبعده عن تفكيري.

بالطبع توجد آثار مفيدة للحديث عن الموت. وأفهم أنه على الرغم من الحقيقة (الجسدية) بأن الموت يدمرنا، فإن فكرة الموت قد تنقذنا. إنها حكمة قديمة: لذلك، كان الرهبان يحتفظون منذ قرون بجماجم في مقصوراتهم، والسبب الذي جعل مونتين ينصح بالعيش في غرفة تطلّ على مقبرة. كان وعيي بالموت يساعدني منذ فترة طويلة على إضفاء حيوية على حياتي، ويساعدني على التقليل من أهمية الأشياء التافهة وتقدير الأشياء الثمينة حقاً. نعم، فأنا أعرف هذه الأشياء فكرياً، لكنني كنت أعرف أيضاً أنني لا أستطيع أن أعيش وأنا معرّض دائماً لحرارة رعب الموت البيضاء.

لذلك، كنت أضع في الماضي الأفكار المتعلقة بالموت في محرق وعيي الخلفي، أما عملي مع إيرين فلم يعد يسمح لي بذلك. ولم تكن جلساتي معها ترفع حساسيتي في أحيان كثيرة تجاه الموت وشعوري بقيمة الحياة فحسب، وإنما كانت تزيد حدّة قلقي من الموت أيضاً. وكنت أجد نفسي في أحيان كثيرة، أفكّر في حقيقة أن زوجها مات وهو في الخامسة والأربعين من عمره، بينما لن أبلغ الستين من عمري أبداً. أعرف أنني أقبع في منطقة الموت، فترة الحياة التي يمكنني أن أتلاشى فيها في أي لحظة.

من الذي قال إن المعالجين يتقاضون أجراً عالياً؟

مع تقدّم عملنا إلى السنة الثالثة، ازددت إحباطاً، فقد تعثّر العلاج بشكل محبط. وغرقت إيرين في الاكتئاب إلى درجة أنني لم أستطع أن أبعدها عنه قيد أنملة، ولم أتمكن من الاقتراب منها: وعندما سألتها عن شعورها بمدى قربها أو بعدها مني في الجلسة، أجابت: «أميال وأميال - حتى أنني لا أكاد أراك».

«إيرين، أعرف أنك ربما مللت من سماع ذلك، لكن علينا أن نفكّر في البدء بمضاد للاكتئاب. يجب أن نفهم ونحلّ مشكلة إصرارك على رفض الأدوية».

«نعرف كلانا ما الذي يعنيه الدواء».

«أوه؟»

«إنه يعني أنك تتخلى عن عملنا العلاجي. إني لا أتطلّع إلى الشفاء بسرعة».

«الشفاء بسرعة يا إيرين؟ ثلاث سنوات؟»

«أقصد أن تجعلني أشعر بتحسن ليس حلاً. إنه يؤجل فقط التعامل مع ما فقدته».

مهما استخدمت من حجج، لم أستطع أن أثنيها عن الإيمان بهذه المعتقدات، لكنها بدأت تسايرني في نهاية الأمر ودعتني أصف لها مضادات اكتئاب. لكن النتيجة كانت كما كانت في تجربتنا السابقة منذ عامين. فلم تكن ثلاثة أدوية

مختلفة غير فعالة فحسب، وإنما أحدثت آثاراً جانبية مزعجة: نعاس شديد؛ أحلام غريبة ومرعبة؛ فقدان النشاط الجنسي والشهوانية؛ شعور مخيف بعدم وجود شيء مهم، وانسلاخها عن نفسها وهمومها. وعندما اقترحت أن تستشير خبيراً في الآثار النفسية للعقاقير والأدوية، رفضت ذلك تماماً. يائساً، أعطيتها إنذاراً أخيراً، وقلت: «إما أن تزوري خبيراً استشارياً وتتبعي توصياته، وإما أنني لن أواصل العمل معك».

رمقتني إيرين من دون أن يرمش لها جفن. كالعادة، كانت دقيقة وصارمة، ولم تقدّم شيئاً إضافياً لا في كلامها أو في حركاتها، وقالت: «سأفكّر في الأمر وسأعطيك ردّي في الجلسة القادمة».

لكن في جلستنا التالية لم تستجب مباشرة للإنذار النهائي الذي أعطيته لها. وأعطتني عدداً من مجلة «نيويوركر»، مفتوحة على مقال للشاعر الروسي جوزيف برودسكي بعنوان «حول الحزن والعقل».

وقالت: «ستجد في هذه المقالة السبب الرئيسي للخطأ الذي جعل العلاج لا ينجح. وإذا لم تكتشفه، إذا قرأتها ولم تجد جواباً، فإني سأرى المستشار الذي تقول عنه».

في كثير من الأحيان، يطلب مني بعض المرضى أن أقرأ شيئاً يثير اهتمامهم - كتاب مساعدة ذاتية، أو مقال يتناول علاجاً جديداً، أو نظرية جديدة، أو قطعة أدبية تعبّر كثيراً عن حالتهم. وقد أعطاني أكثر من كاتب مريض

مخطوطة طويلة وقال لي: «ستعرف أشياء كثيرة عني عندما تقرأها». لكن لم تثبت صحة هذا الاقتراح قط: فقد كان بإمكان المريض دائماً أن يشرح لي فحوى المقالة شفهياً في فترة أقصر بكثير. وهم لا يريدون كذلك معرفة رأيي في الكتابة بصدق - بصورة عامة، كنت أبدو على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للمريض لكي أعطيه تعليقاً موضوعياً. ومن الواضح أنهم يسعون إلى شيء آخر - إبداء موافقتي وإعجابي - ولدى المعالج سبل مباشرة وفعالة أكثر للتعامل مع هذه الحاجة بدلاً من إمضاء ساعات طويلة في قراءة مقالة أو مخطوطة، لذلك، أبحث عادة عن أسلوب مهذب لأرفض طلبات كهذه - أو على الأكثر، أوافق على أن ألقي نظرة سريعة عليها. فأنا شخص أقدّر كثيراً وقت قراءتي الشخصية وأحميها لنفسي.

وعلى الرغم من ذلك، لم أشعر بأي عبء عندما بدأت أقرأ المقالة التي أعطتها لي إيرين. فأنا لا أحترم ذائقتها فحسب، وإنما أحترم صفاء عقلها أيضاً، لذلك، إذا كانت ترى أن هذه المقالة تحتوي على مفتاح الطريق المسدود أمامنا، فقد كنت واثقاً من أن الوقت الذي سأمضيه في قراءتها سيكون مفيداً. بالطبع، كنت أفضّل تواصلاً مباشراً أكثر، لكنني تعلّمت أن أتقبّل طريقة كلام إيرين غير المباشرة والشاعرية في معظم الأحيان - وهي لغة تعلّمتها من أمها. بعكس أبيها الذي كان نموذجاً للعقلانية الواضحة والذي كان يدرّس العلوم في مدرسة ثانوية صغيرة في المنطقة الوسطى

الغربية، كانت لأمها، الفنانة، قدرة رائعة على التواصل. وقد عرفت إيرين مزاج أمّها بشكل غير مباشر. ففي الأيام الجيدة، مثلاً، كانت أمها تقول: «أظن أنني سأضع بعض الزنابق في المزهرية الملونة بالأزرق والأبيض»، أو تعبّر عن مزاجها بالطريقة التي ترتب بها الدمى على سرير إيرين صباح كل يوم.

بدأت المقالة بتحليل برودسكي لأول مقطعين من قصيدة روبرت فروست «ادخل»:

عندما وصلتُ إلى حافة الغابة،
تغريد الشحرور - أنْصِتْ!
إذا كان الغسق في الخارج الآن،
ففي الداخل ظلام.
مع أن الغابة شديدة الظلمة
جثم الشحرور بخفة جناحيه وبراعته
فوق الغصن طوال الليل،
وظل قادراً على أن يغرّد.

كنت أرى دائماً قصيدة «ادخل»، جميلة وبسيطة تعبّر عن الطبيعة، وكنت قد حفظتها عن ظهر قلب عندما كنت مراهقاً، وطالما كنت أرددها بصوت عالٍ عندما أقود دراجتي الهوائية وأمرّ أمام حديقة بيت الجنود القدامى في واشنطن

العاصمة، أما هنا، وبتحليل رائع، بيتاً بيتاً، كلمة كلمة، أوضح برودسكي أن القصيدة تنقل معنى أكثر قتامة. ففي المقطع الأول مثلاً، ثمة شيء شرير في قدوم الشحرور (الشاعر، ناظم القصيدة نفسه) إلى حافة الغابة ويتأمل داخلها المظلم. وألا يبدو المقطع الثاني أكثر من مجرد لحن غنائي؟ في الواقع، إن ما يقصده الشاعر بقوله إن الظلام شديد في الغابة لشاعر بـ «خفة جناحية وبراعته» جثم طوال الليل؟ هل تشير «خفة جناحيه وبراعته» إلى طقس ديني، ربما الطقوس الأخيرة؟ هل يقول فروست نادباً إن الأوان قد فات، وأنه محكوم عليه باللعنة؟ وبالفعل، فإن المقاطع اللاحقة تؤكد هذا الرأي. باختصار، يقدم برودسكي حجة قوية ليس لأن القصيدة قاتمة فعلاً وإنما لأن فروست شاعر كئيب أكثر مما يدركه كثيرون.

كنت مفتوناً بها. فقد أظهر هذا النقاش سبب إعجابي الشديد بهذه القصيدة، مثل جميع أعمال فروست البسيطة المخادعة الأخرى، عندما كنت شاباً. لكن ما علاقة ذلك بإيرين؟ المفتاح لمشكلتنا في العلاج الذي ذكرته؟ تابعت القراءة.

ثم انتقل برودسكي إلى تحليل قصيدة سردية طويلة، قصيدة رعوية كئيبة بعنوان» «دفن البيت». تتحدّث القصيدة عن درج له درابزين في مزرعة صغيرة. عبارة عن محادثة، سلسلة من الحركات، رقصة باليه بين مزارع وزوجته. (بالطبع تذكرت على الفور والديّ إيرين اللذين كانا يعيشان في مزرعة

في منطقة الغرب الأوسط، والدرج الذي له درابزين والذي هبطت منه إيرين منذ ثلاثين سنة تقريباً لتردّ على الهاتف الذي نقل لها خبر وفاة ألين). تبدأ القصيدة:

رآها من أسفل الدرج
قبل أن تراه. كانت قد بدأت تهبط الدرج،
تنظر خلفها إلى خوف ما.

تقدّم المزارع من زوجته، وسألها: «ما الذي ترينه/ من هناك دائماً؟ - لأنني أريد أن أعرف». ومع أن الزوجة كانت مذعورة ورفضت أن تجيبه لأنها كانت واثقة من أنه لن يرى ما تراه، وسمحت له أن يصعد الدرج. عندما اقترب من النافذة في الطابق العلوي، نظر من النافذة واكتشف ما الذي تنظر إليه، ودُهش لأنه لم يلاحظ ذلك من قبل.

«المقبرة الصغيرة حيث يثوي أهلي!
النافذة صغيرة جداً لا يمكنها أن تريها بالكامل.
ليست أكبر من غرفة نوم، أليس كذلك؟
توجد ثلاث صخرات من الإردواز، وصخرة من الرخام،
وهناك ألواح صغيرة عريضة تحت أشعة الشمس
على المنحدر. يجب ألّا نعيرها اهتماماً.
لكنّي أفهم: إنها ليست الصخور،
وإنما أكمة الطفل...»

وتصيح «لا، لا، لا، لا».

تقول زوجته ذلك وتهبط الدرج إلى الطابق الأرضي، ثم تلتفت إليه «بتلك النظرة المرعبة»، وتتجه نحو الباب الخارجي، ثم يسألها مرتبكاً: «أليس بوسع الرجل أن يتحدّث عن طفله الذي فقده؟»

«ليس أنت»، تجيبه، ثم تضيف «وربما لا يستطيع أي رجل أن يفعل ذلك»، وتمدّ يدها لتتناول قبعتها.

يتابع المزارع الذي يطلب منها أن تدعه يشعر بحزنها، بهذه الكلمات المؤسفة:

«لكني أظن، أنك تبالغين قليلاً.
ما الذي يجعلك تفكرين
بفقدان أمك طفلها الأول
إنه حزن لا عزاء له - في وجه الحبّ.
تظنين أن ذكراه قد انتهت -»

عندما لم تُبد زوجته اهتماماً بما قاله، يقول: «يا إلهي، يا لها من امرأة! لقد وصل الأمر إلى هذا/ أن الرجل لا يستطيع أن يتحدّث عن ابنه الذي مات».

فتجيب زوجته بأنه لا يعرف كيف يتكلّم، وأنه عديم المشاعر. فقد شاهدته من نافذتها وهو يحفر قبر ابنهما بسرعة، «جاعلاً الحصى تقفز وتتطاير في الهواء». وبعد أن

انتهى من حفر القبر دخل إلى المطبخ، وتتذكّر:

«يمكنك أن تجلس هناك والبقع تلطّخ حذاءك
من التراب الندي من قبر طفلك
وتتحدّث عن همومك اليومية.
وقد أسندت المجرفة إلى الجدار
عند المدخل، لأنني رأيتها».

تصرّ الزوجة على أنها لن تعامل الحزن كما يفعل، ولن تدعه يذهب بخفة هكذا.

«لا، منذ أن يمرض المرء حتى يموت،
يكون وحده، ويموت وحده أكثر.
يدّعي الأصدقاء أنهم يسيرون خلفه إلى مثواه،
لكن قبل أن يُنزل إلى القبر، ينسون كل ذلك،
ويعودون إلى حياتهم
وإلى الناس الأحياء والأشياء التي يفهمونها،
أما شرّ العالم فلن أحزن عليه كثيراً،
لو كان باستطاعتي أن أغيّره.
أوه، لن أفعل، لن أفعل».

فيجيب الزوج بلطف بأنه يعرف إنه حالتها ستتحسن

لأنها قالت هذه الأشياء، ويقول إن الوقت قد حان لتُنهي حزنها. «لقد خرج [قلبك] منه: لماذا تحتفظين به؟»

وتنتهي القصيدة عندما تفتح الزوجة باب البيت لتغادره، لكن زوجها يقف في وجهها محاولاً أن يمنعها من أن تخرج:

«إلى أين ستذهبين؟ قولي لي أولاً.

سأتبعك وأعيدك بالقوة. سوف...»

قرأتُ المقالة كلها بإعجاب شديد، وفي النهاية كان عليَّ أن أذكّر نفسي السبب الذي دعاني لقراءتها. ما هو المفتاح للولوج إلى حياة إيرين الداخلية؟ تذكرت حلمها الأول الذي كان عليها أن تقرأ فيه نصاً سابقاً قبل أن تتمكّن من قراءة النص الآخر. من الواضح أن أمامنا مزيداً من العمل حول فقدان إيرين لأخيها الذي علمت للتو أن وفاته أدت، مثل لعبة الدومينو، إلى خسائر أخرى عديدة. فلم يعد بيتها كما كان: فلم تبرأ أمها من وفاة ابنها، وأصيبت باكتئاب مزمن، ولم تعد العلاقة بين والديها جيدة بعد ذلك.

ربما كانت القصيدة تصويراً صارخاً لما حدث في بيت إيرين بعد وفاة شقيقها، خصوصاً الخلاف بين أبويها لأن طريقة حزن أبيها كانت على نقيض طريقة حزن أمها تجاه فقدانهما ابنهما. وهذه الحالة ليست غير شائعة بعد موت أحد الأبناء: إذ يحزن الزوج بطريقة مختلفة عن الزوجة (خصوصاً

وفق القوالب النمطية التي تميّز الجنسين: ففي كثير من الأحيان، تتعامل الأنثى مع الحزن بطريقة علنية وانفعالية، بينما يتعامل الذكر مع الحزن بكبت مشاعره ومحاولة الانشغال بأشياء أخرى). ويتدّخل كلّ من هذين النموذجين بالنسبة للكثير من الأزواج بقوة - وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل الكثير من الزيجات تتفكك بعد فقدان أحد الأبناء.

فكّرت في علاقة إيرين بالصور الأخرى في قصيدة «دفن البيت» للشاعر فروست. كان مشهد حجم القبر المتغيّر استعارة رائعة: فهو بالنسبة للمزارع بحجم غرفة نوم وصغير جداً مؤطر بحجم النافذة، أما بالنسبة للأم، فهو كبير جداً حتى أنه لم يكن بإمكانها أن ترى شيئاً آخر. أما النوافذ، فقد انجذبت إيرين إليها. فقد قالت في إحدى المرات: «أريد أن أعيش بقية حياتي في شقة في ناطحة سحاب وأنظر من النافذة»، أو أنها كانت تتخيّل الانتقال إلى بيت كبير من الطراز الفيكتوري يقع على شاطئ البحر حيث «أقسّم وقتي فيه بين التحديق من النافذة إلى المحيط، وأذرع السطح كما تمشي الأرملة إلى الأبد».

إن رفض زوجة المزارع المرير للأصدقاء الذين عادوا فوراً إلى حياتهم اليومية بعد زيارتهم القبر لفترة وجيزة، كان موضوعاً مألوفاً لدى إيرين أثناء فترة العلاج. وفي إحدى المرات، لكي توضح هذه النقطة، أحضرت إيرين نسخة من لوحة بيتر بروغيل «سقوط إيكاروس»، وقالت لي: «انظر إلى

هؤلاء الفلاحين وهم يعملون، لا يكترثون لأن ينظروا إلى الصبي وهو يسقط من السماء»، حتى أنها استحضرت وصف «أودن» للوحة في قصيدة:

في لوحة بيتر بروغيل «إيكاروس» مثلاً: كيف يبتعد كلّ شيء
ببطء عن الكارثة، فقد يكون الحارث قد سمع
صوت الارتطام، الصرخة البعيدة،
لكن ذلك لم يكن إخفاقاً كبيراً هاماً له.
فقد أشرقت الشمس كما ينبغي لها أن تشرق
على تلك الساقين البيضاوين وتلاشت في الماء الخضراء؛
والسفينة الهزيلة الغالية التي لابد أنها رأت
شيئاً مذهلاً، صبياً يسقط من السماء،
سقط في مكان ما وأبحر بهدوء.

هل توجد جوانب أخرى تتعلق بإيرين في قصيدة فروست «دفن البيت»؟ تمسّك الأمّ بالحزن وواقعية الأب ونفاد صبره منها لأنها ترفض أن تتخلّى عن حزنها: وهذا ما سمعته أيضاً منها عندما وصفت أسرتها.

لكن مهما كانت هذه الملاحظات واضحة وغنية بالمعلومات، فإنها لم توضح بشكل كاف لماذا أولت إيرين كلّ هذه الأهمية لأقرأ المقالة. «المفتاح لمعرفة الخطأ الذي حدث في العلاج»: كانت هذه كلماتها، وعدها. شعرت

بالإحباط. قلت في نفسي ربما بالغت في تقديرها. فلأول مرة أخطأت الهدف.

في الجلسة التالية، دخلت إيرين المكتب، وكدأبها، سارت أمامي واتجهت إلى كرسيها مباشرة دون أن تنظر إليَّ. جلست في كرسيها، ووضعت حقيبتها على الأرض بجانبها، ثم - بدلاً من أن تحدّق من النافذة بصمت لبضع لحظات كما تفعل عادة - التفتت إليَّ على الفور، وسألتني: «هل قرأت المقالة؟»

«نعم، قرأتها. إنها مقالة ممتازة. شكراً لأنك أعطيتني إياها».

«و...؟» قالت تحثّني.

«إنها مقالة آسرة. سمعتك تتكلمين عن حياة والديك بعد موت شقيقك ألين. لقد ذكرتني القصيدة بذلك بقوة غير عادية. فهمت الآن بوضوح شديد لماذا لم تتمكني من العودة لتعيشي معهما، ومدى تماهيك مع أسلوب أمك وصراعها مع أبيها و...»

لم أستطع أن أكمل. فقد أوقفتني تعابير عدم التصديق المتزايد التي لاحت على وجه إيرين. كانت نظرتها المندهشة تشبه نظرة معلّمة أمام تلميذ غبي وهي تتساءل كيف نجح وجاء إلى فصلها الدراسي.

أخيراً، هسهست إيرين من بين أسنانها المطبقة: «إن

المزارع وزوجته في هذه القصيدة ليسا أمي وأبي، بل نحن - أنت وأنا». صمتت قليلاً، تستجمع نفسها، ثم أضافت بصوت خافت، «أقصد، قد تكون لهما صفات أمي وأبي، لكن المزارع وزوجته، بشكل أساسي، هما أنت وأنا في هذه الغرفة».

شعرت برأسي يدور. طبعاً! طبعاً! أخذ كلّ بيت من قصيدة «دفن البيت» على الفور معنى جديداً. لم يعمل عقلي بهذه السرعة كما الآن.

«إذاً أنا الذي جلب المجرفة المكسوة بالتراب إلى البيت؟»

هزّت إيرين رأسها بسرعة.

«وأنا الذي دخل إلى المطبخ وحذائي مليء بالوحل؟»

هزّت إيرين رأسها مرة أخرى، لكن بدون قسوة هذه المرة.

«وأنا الذي وبخك لأنك لم تتخلّي عن الحزن وما تزالين تتمسكين به؟ الذي قال إنك تبالغين في حزنك، والذي سأل: «لماذا تبقينه بينما ذكراه يجب أن تكون قد انتهت الآن؟» أنا الذي حفر القبر بسرعة حتى بدأ الحصى يقفز في الهواء؟ أنا الذي تشي كلماته بالإساءة باستمرار؟ وأنا الذي حاول أن يحول بينك وبين حزنك؟ وبالتأكيد أنا الذي سدّ الطريق عند الباب وحاول أن يجعلك تبلعين دواء الحزن بالقوة؟»

هزّت إيرين رأسها، وترقرقت الدموع في عينيها، وسالت على خديها. هذه أول مرة خلال سنوات اليأس الثلاثة تبكي فيها في وجودي. أعطيتها منديلاً ورقياً، وتناولت منديلاً لي. مدّت يدها إليَّ. عدنا معاً مرة أخرى.

كيف أصبح أحدنا بعيداً جداً عن الآخر؟ عندما أعوذ بذاكرتي، أرى أنه كان لدينا تضارباً أساسياً في طريقة تفكيرنا: فأنا شخص عقلاني وجودي، وهي رومانسية يغمرها الحزن. ربما كان الصدع حتمياً. ربما كان أسلوب كلّ واحد منّا في التعامل على نقيض الآخر من حيث الجوهر. كيف يمكن للمرء أن يواجه حقائق الحياة الوجودية القاسية بطريقة أفضل؟ أظن أن إيرين ترى في قرارة نفسها أنه توجد وسيلتان فقط، ليستا مستساغتين وهما: تبنّي شكلاً من أشكال الإنكار، أو العيش في وعي قلق لا يطاق. ألم يعبّر سرفانتس عن هذه المعضلة من خلال سؤاله الخالد «للدون»: «أيهما تريد: جنون حكيم أم عقل أحمق؟»

لديّ تحيّز يؤّثر كثيراً على نهجي في العلاج: فلم أومن قط بأن الوعي يؤدي إلى الجنون، أو أن الإنكار يفضي إلى سلامة العقل، وأعتبر دائماً أن الإنكار هو العدو، وأدحض ذلك كلما كان ذلك ممكناً في طريقة علاجي وفي حياتي الشخصية. ولم أحاول أن أتخلص من كلّ الأوهام الشخصية التي تضيّق رؤيتي وتعزز الضآلة والتبعية فحسب، وإنما أشجّع مرضاي على أن يفعلوا الشيء نفسه. وأنا مقتنع بأنه على الرغم من أن المواجهة الصادقة مع حالة الفرد الوجودية قد

تثير مخاوفه وتجعله يرتجف، فهي طريقة شافية تماماً ومثرية في نهاية الأمر. لذلك فإن النهج الذي أتبعه في العلاج النفسي يتمثّل في تعليق توماس هاردي: «إذا كان هناك طريق إلى الأفضل، فإنه يتطلب إلقاء نظرة شاملة على الأسوأ».

لذلك، منذ بداية العلاج، كنت أكلّم إيرين بصوت العقل، وأشجعها على أن تستعيد معي الأحداث التي تحيط بوفاة زوجها والتي تلتها.

«كيف ستعلمين متى سيموت؟

«هل ستكونين معه عندما يموت؟

«كيف ستشعرين؟

«بمن ستتصلين؟»

وبنفس الطريقة، أعدنا، أنا وهي، أحداث جنازته. قلت لها إنني سأحضر الجنازة، وأنه إذا لم يبق أصدقاؤها معها في المقبرة، فإني سأبقى معها، وإذا كان الآخرون يخشون سماع أفكارها الفظيعة، فإني سأشجعها على أن تحكيها لي. حاولت أن أخلّصها من كوابيسها المرعبة.

وكلما انتقلت إلى عوالم غير عقلانية، كان عليَّ أن أواجهها، مثل إحساسها بالذنب إذا وجدت متعة مع رجل آخر، لأنها تعتبر أي متعة في الحياة خيانة لجاك. فإذا ذهبت مع رجل إلى شاطئ أو إلى مطعم كانت قد ذهبت إليه مع جاك ذات يوم، يتملكها شعور بأنها تخونه بانتهاك خصوصية

حبّهما. ومن الناحية الأخرى، فإن الذهاب إلى مكان جديد لم يذهبا إليه من قبل، يثير فيها شعوراً بالذنب لأنها ظلت على قيد الحياة: «لماذا يجب أن أكون على قيد الحياة وأستمتع بتجارب جديدة بينما جاك يرقد ميتاً؟» وكانت تشعر بالذنب أيضاً لأنها لم تكن زوجة جيدة. ونتيجة للعلاج النفسي، طرأت عليها تغييرات عديدة: فقد أصبحت أكثر ليونة وأكثر تجاوباً ووداً، وكانت تقول: «أليس من غير المنصف بالنسبة لجاك أن أكون قادرة على أن أمنح شيئاً من نفسي لرجل آخر أكثر مما كنت قد منحته له».

مرة إثر مرة، كنت أدحض أقوالها هذه، وعندما أسألها: «أين جاك الآن؟» كانت تجيب دائماً: «إنه في اللا مكان - إلّا في الذاكرة» - في ذاكرتها وفي ذاكرة الآخرين. لم تكن لديها معتقدات دينية، ولم تؤمن قط باستمرار الوعي، أو بأي شكل آخر من أشكال الحياة الآخرة، لذلك كنت ألحّ عليها بعقلانية: «إذا لم يكن واعياً ولا يرى ما تفعلينه، فكيف يمكن أن تؤذي مشاعره بوجودك مع رجل آخر؟» وأذكّرها بأن جاك كان قد عبّر صراحة قبل موته عن رغبته بأن تعيش حياة سعيدة وأن تتزوج مرة أخرى. «هل يريد أن تغرقي أنتِ وابنته في الحزن؟ وحتى لو كان وعيه ما يزال حياً، فإنه لن يشعر بالخيانة، وإنما سيكون سعيداً بشفائك. وفي كلتا الحالتين، «سواء أكان جاك واعياً أم لا، فإنه لا يوجد معنى لمفاهيم مثل ليس من الإنصاف والخيانة».

كانت ترى إيرين في بعض الأحيان أحلاماً مفعمة

بالحيوية بأن جاك ما يزال حياً يرزق - وهي ظاهرة شائعة بين الأشخاص الثكالى - تستيقظ عندما تسمع صوت خبطة فتدرك أنه مجرد حلم. وفي أحيان أخرى، كانت تبكي بحرقة لأنه يعاني «هناك»، وعندما تزور المقبرة، تبكي «للفكرة المروعة» بأنه يرقد في نعش بارد، وعندما تفتح الثلاجة ترى جاك في شكل مصغر، عيناه مفتوحتان على وسعيهما، تحدّقان بها. وكنت أذكّرها دائماً بقناعتها بأنه ليس هناك، وأنه لم يعد موجوداً ككائن واعٍ، وأذكّرها أيضاً بأمنيتها بأن بإمكانه أن يراها. وفي تجربتي، فإن كل شخص فقد زوجه، يعاني من الشعور بأن حياته أو حياتها ليست ملحوظة.

كانت إيرين ما تزال تحتفظ بالعديد من أغراض جاك الشخصية، وتفتش دائماً في أدراج مكتبه عن أشياء تذكّرها به كلما احتاجت إلى هدية عيد ميلاد لابنتها. لذلك، كانت محاطة بذكريات مادية من جاك حتى أنني بدأت أقلق بأن تصبح إيرين مثل الآنسة هافيشام في رواية ديكنز «آمال عظيمة»، امرأة غارقة في الحزن (فقد نُبذت عند المذبح) وعاشت لسنوات في أتون الفقد، فلم تخلع فستان زفافها أو تنظّف المائدة المعدّة لحفل زفافها قط. لذلك كنت أحثّ إيرين طوال فترة العلاج على أن تهجر الماضي وتعود إلى الحياة وتنهي علاقاتها مع جاك: «أزيلي بعض صوره. جدّدي ديكور منزلك. اشتري سريراً جديداً. نظّفي أدراج المكتب، وتخلّصي من تلك الأشياء. سافري إلى مكان جديد. افعلي شيئاً لم تفعلينه من قبل. توقفي عن التحدّث كثيراً مع جاك».

لكن ما كنت أدعوه العقل والمنطق، تسمّيه إيرين خيانة، وما أدعوه العودة إلى الحياة، تصفه بأنه خيانة للحبّ، وما أدعوه فكّ علاقتها بالموتى، تصفه بأنه تخلٍّ عن حّبها له.

كنت أرى أنني الشخص العقلاني الذي تحتاج إليه، لكنها ترى أنني ألوّث نقاوة حزنها. كنت أرى أنني أحاول أن أعيدها إلى الحياة، لكنها ترى أنني أجبرها على أن تدير ظهرها لجاك. كنت أرى أنني ألهمها لكي تصبح بطلة وجودية، لكنها ترى أنني مراقب متغطرس أتفرّج على مأساتها وأنا جالس باسترخاء في مقعد آمن في مسرح.

صعقني عنادها. تساءلت لماذا لا تستجيب؟ لماذا لا تستطيع أن تفهم أن جاك قد مات فعلاً، وأن وعيه قد انطفأ؟ وأنه ليس ذنبها؟ وأنها لا تجلب النحس، وأنها لن تتسبب في موتي أو في موت الرجل التالي الذي ستحبّه؟ وأنه لم يُقدَّر لها أن تعيش مأساة إلى الأبد؟ وأنها تتشبث بمعتقدات اختلقتها لأنها تخشى البديل: الاعتراف بأنها تعيش في عالم غير مبالٍ تماماً إزاء إن كانت سعيدة أم تعيسة.

وكانت تُدهش لبلادتي. لماذا لا يستطيع إيرف أن يفهم؟ لماذا لا يرى أنه يشوّه ذاكرتي عن جاك، ويلوّث حزني بخوضه في وحل القبر وترك المجرفة في المطبخ؟ لماذا لا يفهم أنني أريد أن أنظر من النافذة إلى قبر جاك؟ وأنه يثير غضبي عندما يحاول أن يجرّني ويبعدني عن قلبي؟ وأنه توجد

أوقات، على الرغم من حاجتي إليه، بأنني يجب أن أبتعد عنه تماماً، وأتنشق هواء نقياً؟ وأنني أغرق، وأتمسّك بحطام حياتي، بينما يحاول هو أن يُبعد أصابعي عنها؟ لماذا لا يفهم أن جاك مات بسبب حبّي المسموم له؟

في ذلك المساء، بينما كنت أستعرض الجلسة في ذهني، خطرت ببالي مريضة أخرى كنت قد رأيتها منذ عقود. فخلال فترة مراهقتها، خاضت صراعاً مريراً طويلًا مع أبيها الذي لم يكن يتوقف عن التذمر. وعندما غادرت البيت لأول مرة، أخذها معه بالسيارة إلى الجامعة، وكعادته أفسد عليها رحلتها لأنه لم يتوقف عن التذمر من الجدول القبيح المليء بالأوساخ على جانب الطريق، في حين كانت ترى جدولاً ريفياً جميلاً نظيفاً. وبعد سنوات، بعد أن مات، صادف أن مرّت في الطريق نفسه مرة أخرى، ولاحظت أنه يوجد جدولان، جدول على جانبي الطريق. وقالت بحزن: «لكن هذه المرة كنت أنا التي أقود السيارة، وكان الجدول الذي رأيته من نافذة السائق قبيحاً ومليئاً بالأوساخ كما وصفه أبي».

إن جميع مكوّنات هذا الدرس - طريقي المسدود مع إيرين، وإصرارها على أن أقرأ قصيدة فروست، وتذكّري قصّة مريضتي في رحلتها بالسيارة - كانت مفيدة جداً. فقد فهمت الآن بوضوح شديد أن الوقت قد حان لكي أنصت، وأضع جانباً رأيي الشخصي، وأتوقف عن فرض أسلوبي وآرائي على مريضتي. حان الوقت لأنظر من نافذة إيرين.

الدرس السادس:
لا ترسل أبداً لتعرف لمن تُقرع الأجراس

في أحد الأيام، في السنة الرابعة من العلاج، وصلت إيرين وهي تحمل حقيبة كبيرة. وضعتها على الأرض، وفتحتها ببطء، وأخرجت لوحة جنفاص كبيرة، وأبقت ظهرها نحوي لكي لا أرى اللوحة.

«هل قلت لك إنني كنت أتلقى دروساً في الفن؟» سألتني بطريقة مرحة غير معهودة.

«لا. هذه أول مرة أسمع ذلك، وأظن أن هذا شيئاً رائعاً».

لم أنزعج لأنها قالت ذلك بطريقة عرضية، إذ يعتاد جميع المعالجين النفسانيين على أن ينسى المرضى أن يذكروا الأشياء الجيدة في حياتهم. قد يكون ذلك سوء تفاهم، افتراض خاطئ من جانب المرضى بأنه بما أن العلاج موجّه لكشف المرض، فإن المعالجين لا يريدون أن يسمعوا إلّا المشكلات. وقد يتعمّد بعض المرضى الذين يعتمدون على العلاج إخفاء التطورات الإيجابية لكي لا يستنتج المعالجون أنهم لم يعودوا بحاجة إلى المساعدة.

بعد أن أخذت أيرين نَفَساً عميقاً، أدارت وجه اللوحة. لمعت أمامي لوحة طبيعة صامتة، صحن خشبي بسيط فيه ليمونة وبرتقالة وحبة أفوكادو. ومع أنني أُعجبت بمهارتها في الرسم، أحسست بخيبة أمل من موضوع اللوحة الذي كان بسيطاً جداً ومسطحاً لا معنى له. فقد كنت أتمنى أن أرى

لوحة لها صلة بعملنا، لكني تظاهرت بأنني مهتم بها، وكنت مقنعاً في حماستي في الثناء عليها.

لكن سرعان ما أدركت أنني لم أكن مقنعاً كما ظننت. ففي الجلسة التالية، قالت: «لقد سجلّت في دورة فنية لمدة ستة أشهر أخرى».

«رائع. نفس المعلّم؟»

«نعم، نفس المعلّم، ونفس الدورة».

«تقصدين دورة في رسم الطبيعة الصامتة؟»

«أظن أنك لا تأمل ذلك. من الواضح أن هناك شيئاً لم تقله لي».

«مثل ماذا؟» سألتها وبدأت أشعر بعدم الارتياح، «ماذا تقصدين؟»

«أرى أنني قد أصبت شيئاً»، قالت إيرين مع ابتسامة عريضة، «ففي العادة فإنك لا تلجأ إلى الممارسة التقليدية بالإجابة على سؤال بسؤال».

«إنك لا تغفلين عن شيء يا إيرين. حسناً، الحقيقة هي أنه انتابني شعوران مختلفان تماماً حول اللوحة». هنا استحضرتُ أسلوباً أدرّسه دائماً لطلابي: عندما يضعك شعوران متناقضان في ورطة، فإن أفضل وسيلة تكمن في اللجوء إلى التعبير عن كلا الشعورين والمعضلة. قلت: «أولاً، كما قلت لك، فقد أُعجبت باللوحة كثيراً، وأنا لا

أملك أي موهبة فنية ومفعم بالاحترام لعمل بهذه الجودة».
تردّدت، لكن إيرين حثتني على أن أواصل كلامي:

«لكن...»

«لكن... حسناً... ممم... أنا مسرور جداً لأنك وجدت متعة في الرسم إلى درجة أنني خشيت أن أبدو منتقداً قليلاً، لكنّي أظن أنني كنت آمل أن تفعلي شيئاً بفنك قد يتناسب أكثر - ممم - كيف يمكنني أن أصيغها؟ - مع علاجنا».

«يتناسب؟»

«إن أحد الأشياء التي أحبّها في عملنا معاً هو أنكِ تجيبين دائماً بشيء جوهري كلما سألتك ماذا يدور في ذهنك، يكون ردّك أحياناً فكرة، لكنك تصفين عادة بعض الصور الذهنية. بإحساسك البصري المميّز، كنت آمل أن تتمكني من الجمع بين فنك والعلاج بطريقة تكافلية. لا أعرف - ربما كنت آمل أن تكون اللوحة تعبيرية أكثر، أو تفريغين فيها مشاعرك، أو تنويرية أكثر. حتى أنه كان بإمكانك أن تعبّري عن بعض مشاكلك المؤلمة في اللوحة. أما الطبيعة الصامتة، مع أنها رائعة من الناحية الفنية، فهي هادئة جداً، بعيدة جداً عن الصراع والألم».

عندما رأيت عينا إيرين تزوغان، أضفت: «لقد سألتني عن مشاعري، وقلتها لك. إني لا أدافع عنها. في الواقع أظن أنني ارتكبت خطأ بانتقاد أي نشاط يوّفر لك فترة من الراحة والسلام».

«إيرف، لا أظن أنك تعرف الكثير عن الرسم. هل تعرف ماذا يسمي الفرنسيون لوحة الطبيعة الصامتة؟»

هززت رأسي.

«*Nature morte*».

«طبيعة ميتة».

«صحيح. إن رسم الطبيعة الصامتة يعني التأمل في الموت والتفسخ. فعندما أرسم فاكهة، لا يمكنني ألّا ألاحظ كيف تموت نماذج الطبيعة الصامتة التي أرسمها وتتعفن يوماً بعد يوم. عندما أرسم، أكون قريبة جداً من علاجنا، وأدرك تماماً عبور جاك من الحياة إلى التراب، وأدرك تماماً وجود الموت ورائحة العفن والتفسخ في كلّ شيء حيّ».

غامرت وسألتها: «كل شيء؟»

هزّت رأسها.

«أنتِ؟ أنا؟»

فأجابت: «كل شيء، خاصة أنا».

أخيراً. فكّرت في آخر عبارة قالتها إيرين، أو شيئاً يشبهها، منذ بداية العلاج التي آذنت بمرحلة جديدة في العلاج، كما أدركت من الحلم القوي الذي ذكرته بعد أسبوعين.

أنا جالسة إلى طاولة - تشبه طاولة مجلس تنفيذي.

وهناك أشخاص آخرون أيضاً، وأنت تجلس عند رأس الطاولة. نعمل جميعاً على شيء ما - لعلنا نستعرض مقترحات المنحة. تطلب مني أن أحضر لك بعض الأوراق. إنها غرفة صغيرة، ولكي أصل إليك أضطر إلى أن أسير بلصق صف من النوافذ المفتوحة حتى أصل إليك. كان بإمكاني أن أقع من النافذة بسهولة، ثم استيقظت وفكرة قوية تدور في رأسي: كيف يمكنك أن تعرّضني لخطر شديد كهذا؟

هذا الموضوع العام - كونها معرضة للخطر وعدم حمايتي لها - سرعان ما اكتسب زخماً. وبعد بضع ليال، رأت حلمين مرافقين، الأول يتبع الآخر مباشرة. (قد تنقل الأحلام المرافقة الرسالة نفسها. غالباً ما يسلّي صديقنا القزم نفسه بكتابة الحلم بتنويعات عديدة حول موضوع آسر).

«الحلم الأول:

«أنت قائد المجموعة. ثمة شيء خطير على وشك أن يحدث - لستُ متأكدة مما سيحدث، لكنك تقود المجموعة إلى الغابة إلى بقعة أكثر أماناً. أو من المفترض أن تكون كذلك. لكن الدرب الذي تأخذنا منه يصبح مليئاً بالصخور ويزداد ضيقاً وظلمة، ثم يختفي الدرب تماماً. ثم تختفي أنت، ونضيع ويتملكنا الذعر.

الحلم الثاني:

نحن - المجموعة نفسها - جميعنا في غرفة في فندق، ومرة أخرى هناك خطر ما. ربما دخلاء، وربما إعصار. مرة أخرى، تقودنا لنخرج من الخطر. تأخذنا من سلم النجاة ذي الدرجات المعدنية السوداء. نتسلق ونتسلق السلم، لكننا لا نصل إلى أي مكان. ثم ينتهي بنا المطاف في السطح، ويتعين علينا جميعاً أن نعود.

تبعتهما أحلام أخرى. في أحد تلك الأحلام، نأخذ أنا وهي امتحاناً معاً، ولا يعرف أحد منا الإجابات على الأسئلة. وفي حلم آخر، تنظر إلى نفسها في المرآة وترى بقعاً حمراء من التفسخ على خديها. وفي حلم آخر ترقص مع شاب نحيف جداً يتركها فجأة على حلبة الرقص. تلتفت نحو مرآة وتجفل عندما ترى وجهها مكسواً بجلد أحمر مترهل مليء بالدمامل البشعة وبثور الدم.

كانت الرسالة التي تنطوي عليها هذه الأحلام شديدة الوضوح: الخطر والتفسخ لا مفر منهما. وأنا لست منقذاً - بل على العكس، فأنا شخص غير موثوق به وعاجز. وسرعان ما أضاف حلم قوي مكوناً آخر.

أنت دليلي السياحي في موقع ناء في بلد أجنبي - ربما اليونان أو تركيا. تقود سيارة جيب مفتوحة، نتجادل حول الأماكن التي يجب أن نزورها. أريد أن أرى بعض الآثار الكلاسيكية القديمة الجميلة، وأنت تريد أن

> تأخذني إلى المدينة الحديثة، المبتذلة، المهلهلة. تبدأ تقود السيارة بسرعة كبيرة فينتابني الخوف. ثم تتعطل سيارة الجيب، فنتأرجح، ونتمايل إلى الأمام والوراء فوق حفرة ضخمة. أنظر إلى الأسفل ولا أستطيع أن أرى القاع.

بالطبع، يعكس هذا الحلم الذي يشمل الانقسام بين الآثار القديمة الجميلة والمدينة الحديثة المبتذلة، نقاشنا المستمر حول «الخيانة مقابل العقل». ما الطريق الذي يجب أن نسلكه؟ الأطلال القديمة الجميلة (النص الأول) من حياتها القديمة؟ أم الحياة الجديدة القبيحة المؤسفة التي رأتها تمتد أمامها؟ لكنه يقترح أيضاً جانباً جديداً من عملنا معاً. ففي الأحلام السابقة، أنا غير كفؤ: أضيع في درب الغابة، وآخذ إيرين إلى سلم النجاة الذي يؤدي إلى سطح لا يوجد فيه منفذ للهرب. ولا أعرف الإجابات على أسئلة الامتحان. أما في هذا الحلم، فلم أكن غير كفؤ ولم أتمكن من حمايتها فحسب، وإنما أصبحت خطراً عليها أيضاً - فأنا أقود إيرين إلى حافة الموت.

«بعد بضع ليال، حلمتْ أننا نعانق ونقبل بعضنا بلطف. لكن ما بدأ بلطف يتحول إلى رعب عندما يُفتح فمي أكثر وأكثر وأبدأ ألتهمها. وقالت: «كنت أكافح وأكافح، لكنني لم أستطع أن أتحرر من قبضتك».

«لا ترسل أبداً لتعرف لمن تقرع الأجراس. إنها تقرع

من أجلك». لذلك، كما لاحظ جون دون منذ قرابة أربعمائة عام في هذه السطور المألوفة الآن، فإن جرس الجنازة لا يُقرع للموتى فحسب وإنما يُقرع لك ولي أيضاً - نحن اللذان بقينا على قيد الحياة، نعم، لكن لفترة محدودة من الزمن. إن هذه الفكرة قديمة قدم التاريخ. فقد أدرك جلجامش في ملحمة بابلية منذ أربعة آلاف سنة أن موت صديقه إنكيدو ينذر بموته هو: «أصبح إنكيدو مظلماً ولم يعد يسمعني. عندما أموت ألن أكون مثل إنكيدو؟ الحزن يتسرب إلى قلبي. إني خائف من الموت».

إن موت الآخر يواجهنا بموتنا. هل هذا شيء جيد؟ هل ينبغي تشجيع مواجهة كهذه في العلاج النفسي حول الحزن؟ سؤال: لماذا تخدش في المكان الذي لا توجد فيه حكة؟ لماذا تأجج شعلة القلق من الموت لدى الثكالى الذين انحنوا أمام فقدهم وخسارتهم؟ الجواب: لأن المواجهة مع موت أحدهم قد تُحدث تغييراً شخصياً إيجابياً.

أدركت الإمكانات العلاجية لمواجهة الموت في علاج الحزن لأول مرة منذ عقود عندما وصف لي رجل في الستين من عمره كابوسه الرهيب في الليلة التي أعقبت معرفته بأن سرطان عنق الرحم قد انتشر بشكل خطير في جسد زوجته، ولم تعد قابلة للشفاء. ففي الكابوس رأى أنه يركض في بيت قديم متداع - نوافذه محطمة، وبلاطه مكسور، والماء

يتسرّب من السقف - يلاحقه الوحش فرانكشتاين. وراح يدافع عن نفسه: يضرب الوحش ويركله ويطعنه ثم ألقى به من فوق السطح. لكن - وهذه هي رسالة الحلم الأساسية - لا يمكن وقف الوحش: إذ يعود ويظهر من جديد على الفور، ويواصل مطاردته له. ولم يكن الوحش غريباً عليه، فقد غزا أحلامه لأول مرة عندما كان صبياً في العاشرة من عمره، بعد فترة قصيرة من وفاة أبيه. وقد بث الرعب في نفسه لأشهر عديدة، ثم اختفى فجأة، ثم عاد وظهر مرة أخرى بعد خمسين سنة عندما سمع خبر مرض زوجته القاتل. عندما سألته عن أفكاره حول الحلم، كانت كلماته الأولى: «توجد لديّ مائة ألف ميل أيضاً». عندها فهمت أن موت الآخر - أولاً موت أبيه والآن موت زوجته الوشيك - أصبح يواجهه بموته هو. كان وحش فرانكشتاين تجسيداً للموت، والمنزل الآيل للسقوط يدل على شيخوخة الجسد وانهياره.

من تلك المقابلة، ظننت أنني اكتشفت مفهوماً جديداً رائعاً ينطوي على آثار مهمة بالنسبة للعلاج النفسي لمعالجة الحزن. فبدأت أبحث في هذا الموضوع في كلّ مريض مفجوع، ولاختبار هذه الفرضية، قبل بضع سنوات من رؤيتي لأيرين، شرعنا أنا وزميلتي مورتون ليبرمان في مشروع بحثنا حول الفجيعة.

من بين الثمانين زوجاً من الأزواج الثكالى الذين درسناهم، ذكرت نسبة كبيرة - تصل إلى الثلث - بأنهم أصبحوا يعون موتهم على نحو متزايد، وأن هذا الوعي بدوره

مرتبط بقوة بزيادة النمو الشخصي. ومع أن العودة إلى مستوى الأداء السابق تعتبر عموماً نقطة نهاية الفجيعة، فإن بياناتنا تشير إلى أن بعض الأرامل من الرجال والنساء يفعلون أكثر من ذلك: يصبحون نتيجة هذه المواجهة الوجودية، أكثر نضجاً، وأكثر وعياً، وأكثر حكمة.

«قبل نشوء علم النفس بزمن طويل باعتباره اختصاصاً مستقلاً، كان الكتّاب العظماء هم علماء النفس العظماء. إذ توجد في الأدب أمثلة غنية عن الوعي بالموت الذي يحفّز التحوّل الشخصي. لنأخذ على سبيل المثال علاج إبنزر سكروج الوجودي بالصدمة في رواية تشارلز ديكنز «أنشودة عيد الميلاد». فلم ينجم التغيير الشخصي المذهل لسكروج عن بهجة عيد الميلاد وإنما عن اضطراره لمواجهة موته. ويستخدم رسول ديكنز (شبح عيد الميلاد الذي لم يأت بعد) علاجاً قوياً بالصدمة الوجودية: إذ يأخذ الشبح سكروج إلى المستقبل حيث يرى ساعاته الأخيرة، ويسمع آخرين يرفضون موته برفق، ويرى غرباء يتشاجرون للحصول على ممتلكاته المادية. ويحدث تحوّل سكروج بعد المشهد مباشرة الذي يركع فيه في فناء الكنيسة ويلامس الحروف المحفورة على شاهد قبره.

أو لنأخذ مثلاً بيير في رواية تولستوي «الحرب والسلام»، تلك الروح الضائعة التي تتعثر بلا هدف في الصفحات التسعمائة الأولى من الرواية حتى تأسره قوات نابليون، ويشاهد بأمّ عينيه الرجال الخمسة المصطفين أمامه

وهم يُعدمون رمياً بالرصاص، وفي آخر دقيقة، يحصل على عفو. هذا الاقتراب من الموت يحوّل بيير الذي يمضي في الثلاثمائة صفحة الأخيرة بحماسة، وإصرار، وتقدير شديد لقيمة الحياة. والأكثر أهمية، إيفان إيليش في رواية تولستوي، البيروقراطي اللئيم الذي شعر بارتياح شديد عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة من السرطان الذي أصيب به أسفل بطنه من خلال بصيرة مدهشة: «إني أموت بطريقة سيئة لأنني عشت حياة سيئة». وفي الأيام القليلة التي تبقت في حياته، يطرأ تغيير داخلي غير عادي على إيفان إيليش، وبلغ مرحلة من الكرم والتعاطف والتكامل لم يكن يعرفها من قبل.

وهكذا، فإن مواجهة الموت الوشيك قد تدفع المرء إلى الحكمة، وإلى عمق جديد لكينونته. فقد قدت مجموعات عديدة مؤلفة من مرضى يحتضرون، رحبّوا بحضور طلاب طب في جلساتهم لأنهم شعروا أن لديهم أشياء كثيرة يريدون أن يعلّموها لهم عن الحياة. «يا للأسف»، سمعت هؤلاء المرضى يقولون، «لقد انتظرنا كل هذا الوقت إلى أن تفشّى السرطان في أجسادنا حتى بدأنا نعرف كيف نعيش». وفي مكان آخر من هذا الكتاب، في فصل «رحلات مع باولا»، وصفت عدداً من الأفراد الذين يواجهون سرطاناً قاتلاً والذين زادت حكمتهم عندما بدأوا يواجهون موتهم.

لكن ماذا عن المرضى العاديين الذين يتمتعون بصحة جسدية جيدة والذين يخضعون للعلاج النفسي - رجال ونساء لا يواجهون مرضاً عضالاً أو حكماً بالإعدام؟ كيف يمكننا

نحن الأطباء أن نعرّضهم لحقيقة وضعهم الوجودي؟ أحاول أن أستفيد من بعض المواقف الملحة، التي يُطلق عليها غالباً «التجارب الحدّية»، والتي توفر نافذة على مستويات وجودية أعمق. من الواضح أن مواجهة موت شخص هي أقوى تجربة حدية، لكن هناك تجارب عديدة أخرى - المرض أو إصابة خطيرة، أو الطلاق، أو الفشل في العمل، أو المعالم الحياتية (التقاعد، الأبناء الذين يغادرون البيت، منتصف العمر، أعياد الميلاد المهمة) وبالطبع تجربة وفاة شخص مهم آخر.

بناء على ذلك، تمثلت طريقتي الأصلية في علاج إيرين في استخدام تأثير المواجهة الوجودية كلما استطعت. وحاولت جاهداً أن أحوّل انتباهها من موت جاك إلى حياتها وموتها هي. وعندما كانت تتحدث مثلاً بأنها تعيش من أجل ابنتها فقط، وأنها ترحب بالموت، وتريد أن تمضي بقية حياتها وهي تحدّق من النافذة إلى مقبرة الأسرة، كنت أقول لها تلقائياً شيئاً من قبيل: «لكن ألا تعملين على هدر حياتك؟ الحياة الوحيدة التي ستعيشينها؟»

«بعد وفاة جاك، كانت تحلم إيرين في أحيان كثيرة أحلاماً تتعرض فيها أفراد أسرتها إلى مصيبة ما: غالباً ما يكون حريقاً تزيد الريح من اشتعاله. وكانت ترى أن هذه الأحلام تعكس موت جاك ونهاية أسرتهما، وكنت أجيبها: «لا، لا، إنك تتجاهلين شيئاً، فهذا الحلم ليس عن جاك والأسرة فحسب، وإنما هو أيضاً حلم عن موتك أنت».

خلال السنوات الأولى، كانت إيرين ترفض على الفور هذه التعليقات، وتقول: «إنك لا تفهم. فقد تعرضت إلى خسارات كبيرة، وصدمات كثيرة، ووفيات كثيرة». وكانت تسعى لأن تحصل على راحة من الألم، وبدت لها فكرة الموت حلاً أكثر منه تهديداً. وهذا موقف ليس نادراً وغير مألوف: إذ يعتبر العديد من الأشخاص المكلومين أن الموت مكان سحري مليء بالسلام. لكن الموت ليس حالة سلام، وليس حالة يواصل فيها المرء حياته بدون ألم. إنه وعي خامد.

ربما لم أكن أحترم توقيتها. ربما ارتكبت خطأ، كما أفعل غالباً، في أن أستبق مريضي. أو ربما لا تستطيع إيرين أن تواجه حالتها الوجودية. وعندما وجدت أنني لن أصل معها إلى أي نتيجة، تخلّيت أخيراً عن هذا المسار، وبحثت عن طرائق أخرى لمساعدتها. وبعد بضعة أشهر، عندما لم أكن أتوقع ذلك، جاءت قصة لوحة الطبيعة الصامتة، ثم تلتها سلسلة من الصور والأحلام المليئة بقلق الموت.

«أصبح التوقيت مناسباً الآن، وبدأت تتقبل تفسيراتي. ثم ظهر حلم آخر، حلم آسر لم تتمكن من إبعاده عن تفكيرها.

> أنا في غرفة يحجبها ستار في كوخ صيفي متداع... ثم رأيت وحشاً ضخماً مرعباً له فم ضخم ينتظرني على مسافة بضع أقدام من الباب الخارجي. كنت أرتعد من

> شدة خوفي. وكنت أخشى أن يحدث شيء لابنتي، فقررت أن أحاول استرضاء الوحش بأن أقدم له أضحية ما، فألقيت إلى خارج الباب حيواناً محشواً أحمر اللون. أخذ الوحش الطُعم لكنه ظل واقفاً مكانه. عيناه اللاهبتان مثبتتان عليَّ. فقد كنت أنا الفريسة.

حدّدت إيرين على الفور الحيوان المحشو الأحمر اللون الذي ألقت به كأضحية، وقالت: «إنه جاك. وهذا لون البيجاما التي كان يرتديها في الليلة التي مات فيها». كان الحلم قوياً جداً إلى درجة أنه لم يبرح تفكيرها لعدة أسابيع، وشيئاً فشيئاً، بدأت تفهم أنه مع أنها نقلت مخاوفها من الموت أولاً إلى ابنتها، فقد كانت في الحقيقة هي فريسة الموت. وقالت مترددة: «أنا هي التي يراقبني ذلك المخلوق بشراسة، وهذا يعني أن لا توجد إلّا طريقة واحدة لتفسير هذا الحلم»، وأضافت، «يقول الحلم إنني رأيت موت جاك بدون وعي مني بأنه الأضحية لأتمكن من مواصلة العيش.» صُدمت من فكرتها هذه، لا بل من إدراكها بأن الموت يتربص بها هي، لا بالآخرين، لا بابنتها، وإنما هي فقط.

باستخدام الإطار المرجعي الجديد هذا، أعدنا تدريجياً فحص بعض المشاعر الأكثر إلحاحاً وإيلاماً التي تراود إيرين. فبدأنا بشعورها بالذنب الذي يعذّبها كما يعذّب معظم الأزواج الثكالى. فقد عالجت ذات يوم أرملة لم تبرح جانب سرير زوجها الراقد في المستشفى الفاقد الوعي لأسابيع إلّا نادراً. وفي أحد الأيام، خلال غيابها لبضع دقائق عندما

ذهبت إلى متجر الهدايا في المستشفى لتشتري صحيفة، مات زوجها. فتملكها شعور بالذنب لأنها تركته في تلك اللحظة. وكذلك إيرين التي لم تتوقف عن العناية بجاك: فقد أحاطته برعايتها بتفان غير عادي ورفضت كل طلباتي لأن تمنح نفسها فترة من الراحة بنقله إلى المستشفى أو بإحضار ممرضة تعتني به. لكنها استأجرت سرير مستشفى، ووضعته بجانب سريرها وظلت بجانبه حتى لحظة وفاته. ومع ذلك، لم تستطع أن تتخلّص من فكرة أنه كان عليها أن تفعل المزيد: «كان يجب ألّا أتركه أبداً. كان يجب أن أكون أكثر لطفاً، وأكثر عطفاً، وأكثر حميمية».

«قد يكون الشعور بالذنب وسيلة لإنكار الموت»، قلت أحثها، «قد يكون المعنى المبطّن لقولك: كان يجب أن أفعل المزيد هو أنك لو كنت قد فعلت أشياء بطريقة مختلفة، لكان من الممكن أن تمنعي موته».

وربما كان إنكار الموت أيضاً هو المعنى المبطّن للعديد من معتقداتها اللا العقلانية الأخرى وهي: أنها هي السبب الوحيد لموت جميع من أحبّوها، وأنها تجلب النحس، وتنبعث منها هالة سوداء سامة قاتلة، وأنها شريرة، ملعونة، وأن حبّها قاتل؛ وأن أحداً أو شيئاً يعاقبها لأنها ارتكبت جريمة لا تُغتفر. ربما ساهمت كلّ هذه المعتقدات في طمس حقائق الحياة الوحشية. فإذا كانت تجلب النحس أو مسؤولة عن موت هؤلاء بالفعل، فإن ذلك يعني أن الموت ليس حتمياً، وأن سببه بشري يمكن تفاديه، وأن الوجود ليس

نزواتياً عشوائياً، وأنه لا يُلقى كل فرد إلى الوجود وحده، وأنه يوجد نمط كوني شامل، حتى لو كان غير مفهوم، وأن الكون يراقبنا ويحكم علينا.

مع مرور الوقت، أصبحت إيرين قادرة على أن تتحدّث بصراحة أكبر عن خوفها من الوجود وتعيد صياغة الأسباب الكامنة وراء رفضها إقامة علاقات جديدة مع أشخاص آخرين، لاسيما الرجال. وادّعت أنها تتفادى إقامة علاقات، بما في ذلك معي، لكي تتجنب ألم خسارة أخرى. وبدأت تدرك الآن أنها لم تكن تخشى خسارة الآخر فقط، وإنما كلّ ما يذكّرها بزوال الحياة.

قدّمتُ لإيرين بعض آراء أوتو رانك حول الفرد المصاب برهاب الحياة. ففي قوله إن «بعض الأفراد يرفضون القرض الذي قدمته لهم الحياة ليتجنبوا تسديد دَيْن الموت»، فإن رانك، تلميذ فرويد الواعي وجودياً، يصف معضلة إيرين بدقة. «انظري إلى الطريقة التي ترفضين فيها الحياة»، قلت لها موبخاً، «تنظرين إلى ما لا نهاية من النافذة، تتجنبين مشاعر المحبة، وتتفادين إقامة علاقة مع أحد، وغارقة في ذكريات جاك والأشياء التي خلّفها. ترفضين أن تأخذي رحلة في المحيط لأن أسلوبك سيفسد الرحلة ويجعلها غير ممتعة. لماذا تشغلين نفسك في أي شيء، لماذا تكوّنين صداقات، ولماذا تهتمين بأي شخص، إذا كانت الرحلة ستنتهي في النهاية؟»

إن رغبة إيرين المتزايدة في قبول وجودها المحدود ينذر بحدوث تغييرات عادية. ففي حين أنها تحدّثت ذات مرة عن مجتمع سرّي من الثكالى، اقترحت الآن مجتمعاً ثانياً متداخلاً يتألف من أولئك الأشخاص المستنيرين الذين، على حد تعبيرها، «يدركون الوجهة التي يقصدونها».

«من بين جميع التغييرات التي طرأت عليها، كان أكثر التغييرات ترحيباً رغبتها المتزايدة في المشاركة معي. فقد كنت مهماً بالنسبة لإيرين. لم يكن لديَّ شك في ذلك: وقد مرت شهور كانت تقول فيها إنها تعيش من أجل جلساتنا فقط. ومع أننا كنا قريبين جداً من أحدنا الآخر، كنت أظن دائماً بأننا نلتقي بشكل غير مباشر، وأننا نفتقد دائماً إلى لقاء «أنا - أنت» حقيقي. لقد حاولت كما قالت في بداية فترة العلاج، أن تبقيني خارج الزمن، وأن تعرف أقل قدر ممكن عني، وأن تتظاهر بأنه لا توجد لديَّ قصة حياة لها بداية ونهاية. أما الآن فقد تغير ذلك.

في بداية العلاج، عندما زارت والديها، رأت إيرين كتاباً قديماً مصوراً بقلم فرانك بوم أوز قرأته عندما كانت طفلة. وعندما عادت، قالت إنني أشبه «ساحر أوز» من الناحية الجسدية كثيراً. والآن، بعد مضي ثلاث سنوات على العلاج، نظرت إلى الصورة مرة أخرى ووجدت أن التشابه بيننا أصبح أقل. شعرت أن شيئاً مهماً كان يحدث عندما قالت: «ربما لست أنت الساحر. ربما لا يوجد ساحر»، ومضت تقول، لنفسها أكثر من قولها لي، «ربما يجب أن

أقبل فكرتك بأنك أنت وأنا لسنا سوى رفيقين مسافرين في هذه الحياة، ننصت كلانا إلى الجرس وهو يقرع».

لم يكن لديَّ أدنى شك في أن مرحلة جديدة من العلاج قد بدأت عندما جاءت إلى مكتبي بعد ظهر يوم في السنة الرابعة من العلاج، ونظرت إليَّ مباشرة، وجلست، ثم عادت ونظرت إليَّ، وقالت: «يا له من أمر غريب يا إيرف، لكن يبدو أنك أصبحت أصغر حجماً بكثير».

«لم تكن جلستنا الأخيرة مميّزة باستثناء حدثين اثنين. الأول أنه كان على إيرين أن تتصل بي بالهاتف لتسأل عن موعد جلستها. ومع أن موعد جلساتنا يمكن أن يتغيّر أحياناً بسبب جدول العمليات الجراحية التي تجريها، لم تنس موعد أي جلسة طوال السنوات الخمس. والثاني، أنني أصبت بصداع شديد قبل بدء الجلسة، وبما أنني نادراً ما أصاب بالصداع، أظن أن صداعي كان مرتبطاً بشكل ما، بورم دماغ جاك الذي أعلن حضوره بصداع شديد.

بدأت إيرين بالقول: «كنت أتساءل طوال الأسبوع عن شيء. هل تنوي أن تكتب عن أي جانب من جوانب عملنا معاً؟»

لم أكن قد فكّرت في أن أكتب عنها شيئاً، فقد كنت مشغولاً حينذاك في التخطيط لكتابة رواية. قلت لها ذلك، وأضفت: «وفي جميع الأحوال، لم أكتب قط عن علاج يجري حالياً كما نفعل الآن. ففي رواية «جلاد الحبّ»، أنتظر عادة سنوات، وأحياناً عشر سنوات أو أكثر، بعد انتهاء علاج مريض قبل أن أكتب عنه. وأؤكد لك إنني لو فكّرت في أن أكتب عنك، فإني سأحصل على موافقتك قبل أن أبدأ...»

فقاطعتني وقالت: «لا، لا، يا إيرف، أنا لست قلقة بشأن كتاباتك، وإنما قلقة إذا لم تكتب. أريد أن تُحكى قصتي. فهناك أشياء كثيرة لا يعرفها المعالجون عن علاج

الثكالى. لا أريد أن تخبر المعالجين الآخرين بما تعلّمته أنا فقط، وإنما بما تعلّمته أنت أيضاً».

في الأسابيع التي أعقبت انتهاء جلساتنا، لم أفتقد إيرين فقط، وإنما وجدت نفسي أفكّر كثيراً بكتابة قصتها. وسرعان ما تضاءل اهتمامي بمشاريع كتابات أخرى، وبدأت أضع الخطوط العريضة، في البداية بشكل غير مترابط، ثم بشعور متزايد من الالتزام.

«ألتقينا أنا وإيرين بعد عدة أسابيع في جلسة استعراض لما أنجزناه أخيرة. قالت إنها حزينة لأن علاقتنا توقفت، وقالت أيضاً إنها تحلم بأننا لا نزال نلتقي، وتتخيّل أحاديث تدور بيننا، وتتخيّل أنها ترى وجهي في وسط جمع من الناس، أو تسمع صوتي يناديها. لكن عندما التقينا، انتهى حزنها مع انتهاء جلسات العلاج، وبدأت تستمتع بالحياة، وقالت إنها تصالحت مع نفسها ومع الآخرين. وأبدت دهشتها للتغيير الذي طرأ عليها في إدراكها البصري: فقد عاد كل شيء إلى طبيعته، وعادت إلى محيطها الذي كان يبدو لها لسنوات كما لو كان مسرحاً ثنائي الأبعاد. وقالت إن علاقتها مع رجل اسمه كيفن تعرّفت عليه في الأشهر القليلة الماضية من العلاج، لم تدم فحسب، وإنما بدأت تتطور وتزدهر، وعندما قلت لها إنني غيّرت رأيي وأصبحت مهتماً بالكتابة عن جلسات علاجنا، بدت مسرورة ووافقت على أن تقرأ المسودات المبكرة التي سأكتبها.

بعد عدة أسابيع أرسلت إلى إيرين مسوّدة أول ثلاثين صفحة كتبتها، واقترحت عليها أن نلتقي لمناقشتها في مقهى في سان فرانسيسكو. عندما دخلت إلى المقهى ونظرت حولي أبحث عنها، شعرت بشيء من التوتر. رأيتها قبل أن تراني. انتظرت قليلاً قبل أن أتوجّه إليها. فقد أردت أن أتأملها من بعيد - كنزتها ذات الألوان الفاتحة وبنطالها، وجلستها المريحة وهي ترشف كوب الكابتشينو، وتتصفح صحيفة سان فرانسيسكو. دنوت منها. عندما رأتني نهضت، وعانقنا بعضنا وقبّل أحدنا الآخر على الخدين مثل صديقين عزيزين قديمين - كحالنا. طلبتُ كوب كابتشينو أيضاً. بعد أول رشفة، ابتسمت إيرين ومدّت يدها ومسحت بمنديلها الرغوة البيضاء التي علقت بشاربي. أحببت أن تعتني بي وانحنيت إلى الأمام قليلاً لأشعر بضغط منديلها بالكامل.

ثم قالت: «هكذا أفضل الآن، فلم يعد لك شارب أبيض - لا أريد أن تشيخ قبل الأوان». ثم أخرجت مخطوطتي من حقيبتها، وقالت: «أحببت ما كتبته. هذا تماماً ما كنت آمل أن تكتبه».

«وهذا ما كنت آمل أن أسمعه منك. لكن أولاً، ألّا ينبغي أن نرجع قليلاً ونتحدّث عن المشروع ككل؟» وقلت لها إنني سأحرص أثناء المراجعة على إخفاء هويتها حتى لا يعرفها أي من معارفها، وسألتها: «ما هو شعورك لو أنني صوّرتك بأنك تاجر لوحات فنية ذكر؟»

«هزّت رأسها، وقالت: «أريدها كما أنا فعلاً. لا يوجد لديّ شيء أخفيه، أو شيء أخجل منه. نعرف كلانا أنني لم أكن مضطربة عقلياً: كنت أعاني فقط».

كان ثمة شيء يقلقني حول هذا المشروع، وقررت أن أُخرجه من صدري، وقلت: «إيرين، دعيني أحكي لك هذه القصّة».

ثم حكيت لها عن ماري، إحدى صديقاتي، طبيبة نفسّية على قدر كبير من النزاهة والعطف، عالجت المريض هوارد لمدة عشر سنوات. وكان هوارد قد تعرّض لسوء معاملة فظيعة عندما كان طفلاً، وبذلت ماري جهداً جباراً لعلاجه. وفي السنوات الأولى من العلاج، أُدخل إلى المستشفى ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة بسبب محاولات الانتحار وتعاطي المخدرات وفقدان الشهية العصابي الشديد. وقفت إلى جانبه، وأدت عملاً رائعاً، وساعدته في كلّ شيء، بما في ذلك مساعدته على أن يتخرّج من المدرسة الثانوية ثم من الجامعة، وتخرّج أخيراً من كلية الصحافة.

وقلت: «لم يكن تفانيها في علاجها عادياً، فقد كانت تلتقي به أحياناً سبع مرات في الأسبوع - لقاء رسوم لا تكاد تذكر. وقد حذرتها كثيراً بألّا تستنزف طاقتها ووقتها معه، وأنها يجب أن تحمي حياتها الخاصة. كان مكتبها في منزلها، وكان زوجها يعترض على تطفّل هوارد في حياتهما أيام الأحد، وعلى الوقت والجهد اللذين تنفقهما ماري في علاجه. كان هوارد حالة تعليمية ممتازة، وكانت ماري تجري

معه لقاء كلّ سنة أمام طلاب كلية الطب كجزء من دروسهم الأساسية في الطبّ النفسي. ولفترة طويلة، ربما لمدة خمس سنوات، اشتغلت ماري على تأليف كتاب دراسي عن العلاج النفسي شكّل فيه علاجها لهوارد جزءاً مهماً. واستند كل فصل من فصول الكتاب إلى أحد جوانب عملها معه (بالطبع بصورة مقنّعة كثيراً لكي لا يُعرف من هو المريض الذي تتحدث عنه). وبعد تلك السنوات العديدة، كان هوارد ممتناً لماري وأعطاها الإذن الكامل لأن تقدّمه إلى طلاب كلية الطب والأطباء المقيمين والكتابة عنه.

«عندما انتهى الكتاب أخيراً وأصبح جاهزاً للنشر، سحب هوارد موافقته فجأة (الذي أصبح الآن صحفياً يعمل خارج البلاد، وتزوج وعنده طفلان). وفي رسالة قصيرة، أوضح فيها أنه يريد فقط أن يضع هذا الشطر من حياته وراءه. وعندما طلبت منه ماري أن يوضح سبب ذلك، رفض أن يعطيها تفاصيل أخرى، وفي النهاية قطع اتصاله بها تماماً. كانت ماري مذهولة - كل تلك السنوات التي كرستها لكتابة الكتاب - وفي النهاية لم يكن لديها من خيار سوى أن تدفنه. وظلّت تشعر بالمرارة والاكتئاب لسنوات طويلة».

«إيرف، إيرف، فهمت قصدك»، قالت إيرين وهي تربت على يدي لتهدّئ من روعي، «فهمت أنك لا تريد أن يحصل لك كما حصل لماري. لكن دعني أؤكد لك: فأنا لا أمنحك الإذن لكتابة قصتي فحسب، وإنما أطلب منك أن تكتبها، وسأصاب بخيبة أمل إذا لم تكتبها».

«هل أنت متأكدة؟»

«إني أعني ما أقوله. أعني ما قلته بأنه لا توجد لدى الكثير المعالجين أدنى فكرة عن معالجة الأشخاص الثكالى والمفجوعين بفقدان أعزاء عليهم. لقد تعلّمت من عملنا معاً، تعلّمت أشياء كثيرة، ولا أريد أن ينتهي ذلك بك».

عندما لاحظت إيرين ارتفاع حاجبيَّ، أضافت: «نعم، نعم، لقد فهمتها أخيراً. استوعبتها تماماً. فلن تبقى معي إلى الأبد».

«حسناً»، قلت وأخرجتُ دفتر ملاحظات، «أوافق بأنني تعلّمت الكثير من عملنا معاً، وقد وضعت نسختي مما تعلمته في هذه الصفحات. لكني أريد أن أكون متأكداً من أن يكون صوتك مسموعاً يا إيرين. هل يمكنك أن تأخذي بضع لحظات وتلخصي النقاط الأساسية، الأجزاء التي يجب ألّا أحذفها؟»

فقالت إيرين معترضة: «إنك تعرفها كما أعرفها».

«أريد أن أسمع صوتك. إن خياري الأول، كما قلت في أوقات أخرى، أن نكتب معاً، لكن بما أنك لن تفعلي ذلك، حاولي الآن. تداعي حر - أفكار من قمة رأسك. أخبريني، من وجهة نظرك، ما هو المركز الحقيقي، جوهر عملنا؟»

فقالت على الفور: «المشاركة. كنت دائماً هناك، تنحني

إلى الأمام، تقترب أكثر. تماماً كما فعلت عندما مسحتِ رغوة الكابتشينو من شاربك منذ دقيقة...»

«في وجهك، تقصدين؟»

«صحيح! لكن بطريقة جيدة، وليس بأي طريقة ميتافيزيقية متخيّلة. لم أكن بحاجة إلّا إلى شيء واحد وهو أن تبقى معي وأن تكون مستعداً لأن تكشف نفسك أمام الأشياء المميتة التي تشّع مني. كان هذا عملك».

وأردفت: «إن المعالجين لا يفهمون ذلك بصورة عامة. لم يستطع أحد أن يفعل ذلك غيرك. لم يستطع أصدقائي البقاء معي لأنهم كانوا منهمكين بالحزن على جاك، أو ليبعدوا أنفسهم عن القار الذي ينبعث مني، أو يدفنون الخوف من موتهم، أو يطالبون - وأنا أعني ذلك - بأن أشعر أنني أصبحت على ما يرام بعد السنة الأولى».

وأضافت: «هذا أفضل ما فعلته حقاً». كانت تتكلم بسرعة، بطلاقة، ولم تكن تتوقف إلّا عندما ترشف من كوب الكابتشينو، «كانت لديك قوة جيدة على التحمل. كنت تجلس بجانبي. لا بل أكثر من البقاء بجانبي فقط، فقد كنت تدفعني أكثر وأكثر، تحثني على أن أتحدّث عن كل شيء، مهما كان بشعاً ومرعباً. وعندما لم أكن أفعل ذلك، كنت تخمّن - بدقة شديدة، بأنني سأقول لك - ما الذي أشعر به.

«وكانت تصرفاتك مهمة - لم يكن بوسع الكلمات وحدها أن تفعل ذلك. لذلك كان أحد أفضل الأشياء الفردية

التي فعلتها هو أن تطلب مني أنني يجب أن أراك في جلسة إضافية كلما غضبت منك».

عندما صمتت، رفعت عينيَّ عن ملاحظاتي، وسألتها: «هل هناك ملاحظات مفيدة أخرى؟»

«قدومك إلى جنازة جاك. اتصالك بي بالهاتف عندما تسافر في رحلات طويلة لتطمئن عليَّ. عندما كنت تمسك يدي عندما أكون بحاجة إلى ذلك. كان ذلك شيئاً ثميناً، خصوصاً عندما كان جاك على فراش الموت. كنت أشعر أحياناً أنني سأنجرف إلى عالم النسيان لو لم تكن يدك تثبّتني في حياتي. إنه أمر مضحك، كنت أفكّر غالباً أنك ساحر - شخص يعرف مسبقاً ما الذي سيحدث تماماً. بدأت تلك الرؤية عنك تتلاشى منذ بضعة أشهر فقط عندما بدأ حجمك يصغر. ومع ذلك، كان ينتابني طوال الوقت شعور متناقض، ساحر يمكنه أن يحوّل نفسه إلى حيوان، شعور - شعور بأنه لا يوجد لديك مخطط على الإطلاق، ولا قواعد، ولا إجراءات محددة. كان الأمر كما لو كنت ترتجل في تلك اللحظة».

«ما هو شعورك بهذا الارتجال؟» سألتها، وأنا أخربش بسرعة.

«في بعض الأحيان، مخيف جداً. كنت أريد أن تكون الساحر أوز. كنت ضائعة وأردت أن تعرف طريق العودة إلى كانساس. كنت أشك أحياناً بعدم يقينك. كنت أتساءل إن كان

ارتجالك حقيقياً أم أنه ادعاء بالارتجال، فقط مثل ساحرك.

«هناك شيء آخر: كنت تعرف مدى إصراري على معرفة كيف يمكنني أن أصلح الأشياء بنفسي. لذلك كنت أظن أن ارتجالك معي كان خطة - خطة بارعة - لكي تجرّدني من سلاحي».

«فكرة أخرى... هل تريدني أن أثرثر هكذا يا إيرف؟»

«تمامًا كما تفعلين - استمري».

«عندما كنت تحدّثني عن أرامل أخريات، أو عن نتائج أبحاثك، كنت أعرف أنك تحاول أن تطمئنني، وكان ذلك يساعد من حين لآخر على إدراك أنني كنت في خضم عملية سأمرّ من خلالها عبر حالات عقلية معينة كما كانت تفعل نساء أخريات، لكن هذا النوع من التعليقات كان يجعلني أشعر بالضعف. كان ذلك يبدو كما لو أنك كنت تجعلني امرأة عادية. لم أشعر قط بأنني عادية عندما كنا نرتجل. ثم كنت أرى نفسي مميّزة. كنّا نجد طريقنا معاً».

«وهل هناك أشياء أخرى مفيدة؟»

«مرة أخرى، أشياء بسيطة. حتى أنك قد لا تتذكرها، لكن في نهاية إحدى جلساتنا الأولى، عندما هممت لأخرج من الباب، وضعت يدك على كتفي، وقلت: «سأرى هذا معك». لا أنسى أبداً هذه العبارة - كانت أداة دعم قوية».

«أذكر ذلك يا إيرين».

«وقد ساعدني كثيراً عندما كنت تتوقف أحياناً عن محاولة إصلاح شيء أو تحليله أو تفسيره، وكنت تقول شيئاً بسيطاً ومباشراً: 'إيرين، إنك تمرين بكابوس - أحد أسوأ الأشياء التي يمكنني تخيّلها' وكان أفضل شيء على الإطلاق عندما كنت تضيف - وهذا أمر لا يحدث غالباً - أنك معجب بي وتحترمني على شجاعتي في المثابرة».

عندما فكّرت في أن أقول شيئاً عن شجاعتها الآن، رفعتُ عينيَّ ورأيتها تنظر إلى ساعتها وسمعتها تقول: «يا إلهي، يجب أن أذهب الآن».

ها هي تنهي الجلسة. إلى أي مدى سقط الجبابرة. لوهلة، اعتراني شعور بأن أتظاهر بالغضب وأتهمها بأنها تريد أن تطردني، لكنني قررت ألّا أسلك سلوكاً طفولياً.

«أعرف بمَ تفكر يا إيرف».

«بمَ؟»

«ربما وجدت العكس ممتعاً - وهو أنني أنا، ولست أنت، التي أنهيت الجلسة».

«صحيح يا إيرين. كالعادة».

«ستبقى هنا لبضع دقائق؟ سألتقي كيفن في آخر الشارع لنتناول الغداء، ويمكنني أن آتي به إلى هنا ليقابلك. أود أن أفعل ذلك».

أثناء انتظاري لتعود إيرين مع كيفن، حاولت أن أطابق

روايتها عن العلاج مع روايتي. فكما قالت، فقد ساعدتها بشكل رئيسي بإشراكها، بالابتعاد عن أي شيء تقوله أو تفعله. وقد ساعدتها أيضاً لأنني كنت أمسك بيدها، ومن خلال الارتجال، والتأكيد على شدة محنتها، وبالوعد برؤيتها مرة أخرى.

لقد تأثرت بهذا التبسيط. من المؤكد أن نهجي في العلاج كان أكثر تعقيداً وتطوراً، لكن كلّما فكّرت في الأمر، رأيت أن إيرين محقة تماماً.

من المؤكد أنها محقة بشأن «المشاركة» - المفهوم الرئيسي في علاجي النفسي. فقد قررت منذ البداية أن المشاركة هي أكثر الأشياء فعالية التي يمكنني أن أقدّمها لإيرين. وهذا لا يعني ببساطة الاستماع الجيد، أو التشجيع على التنفّيس، أو مواساتها. وإنما يعني أنني يجب أن أقترب منها بقدر ما أستطيع، وأن أركّز على «المسافة بيننا» (وهي عبارة كنت استخدمها في كلّ ساعة أرى فيها إيرين تقريباً) وعلى «هنا والآن»: أي العلاقة بيني وبينها هنا (في هذا المكتب) والآن (في اللحظة الحالية).

إن التركيز على «هنا والآن» مع المرضى الذين يسعون للعلاج بسبب مشاكل في العلاقات شيء، وطلبي من إيرين أن تفحص «هنا والآن» شيء آخر تماماً بالنسبة لي. فكّر في الأمر: أليس من العبث والفظاظة أن تتوقع امرأة على حافة الموت (امرأة رأت أمامها زوجها المصاب بورم في الدماغ على فراش الموت، وحزينة أيضاً لأنها فقدت أمها وأباها

وشقيقها وابنها بالمعمودية) أن تلفت انتباهها إلى أدق الفروق الدقيقة لعلاقة مع شخص مهني لا تكاد تعرفه؟

وهذا ما فعلته. فقد بدأت ذلك منذ الجلسات الأولى، ولم أتوقف عن ذلك قط. ففي كل جلسة كنت أستسفر عن بعض جوانب علاقتنا. «ما مدى شعورك بالوحدة وأنتِ معي في الغرفة؟» «ما مدى بعدك، ما مدى قربك مني اليوم؟» فإذا قالت، كما تقول غالباً، «أشعر أنني بعيدة عنك أميالاً»، كنت أتطرّق إلى هذا الشعور مباشرة. «في أي نقطة بالتحديد من جلستنا لاحظتِ ذلك لأول مرة اليوم؟» أو، «ماذا قلتُ أو فعلتُ حتى ازدادت المسافة اتساعاً؟» والأهم من كل ذلك، «ما الذي يمكننا أن نفعله حتى نقلّص هذه المسافة؟»

«حاولت أن أحترم إجاباتها. فإذا أجابت: «إن أفضل طريقة لنصبح أقرب هي أن تذكر لي اسم رواية جيدة لأقرأها»، وكنت أذكر لها دائماً عنوان رواية، وإذا قالت إن شعورها باليأس طاغ ولم تعد تستطيع أن تسمع كلمات، كان أقصى ما يمكنني أن أفعله هو أن أمسك بيدها، أقرّب كرسيَّ منها وأمسك بيدها أحياناً لمدة دقيقة أو دقيقتين، وأحياناً لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة. كنت أشعر أحياناً بعدم الارتياح عندما أمسك يدها، لا بسبب المحظورات القانونية التي تمنع لمس المريض: إن تسليم حكم الفرد السريري والإبداعي لمثل هذه المخاوف أمر سيء، وإنما كنت أشعر بعدم الارتياح لأن إمساك اليد كان فعالاً باستمرار: فقد كان ذلك يجعلني أشعر أنني مشعوذ، شخص يتمتع بقدرات خارقة

لا أفهمها. وفي النهاية، بعد بضعة شهور من دفن زوجها، لم تعد إيرين تطلب مني أن أمسك يدها.

طوال فترة العلاج، كنت أصرّ على فكرة المشاركة. وكنت أرفض أن تبعدني. فأنا بالنسبة لها «لست مبالياً. لا أريد أن أتكلّم. لا أعرف لماذا أنا هنا اليوم»، فأجيبها بتعليقات مثل،» لكنك هنا. جزء منك يريد أن يكون هنا، وأنا أريد أن أكلّم ذلك الجزء اليوم».

«وكلما كان ذلك ممكناً، كنت أترجم الأحداث إلى ما يعادلها من «هنا والآن». ومثال على ذلك، عندما تبدأ الجلسة وتنتهي. فقد كانت إيرين تدخل مكتبي في معظم الأحيان وتتجه بخفة إلى كرسيها من دون حتى أن تنظر إليَّ. وكنت نادراً ما أدع ذلك يمرّ. فقد أقول: «أوه، إذاً ستكون واحدة من تلك الجلسات»، وأركّز على عدم نظرها إليَّ. وكانت تجيب أحيانًا: «إذا نظرت إليك فإنك تصبح حقيقياً، وهذا يعني أنك ستموت في وقت قريب»، أو، «إذا نظرت إليك، فإن ذلك يجعلني أشعر بأنني عاجزة وأمنحك قوة كبيرة عليّ»، أو «إذا نظرت إليك، فقد أشعر بالرغبة في أن أقبلّك»، أو «أرى عينيك تطلبان مني أن أشفى بسرعة».

كانت كلّ جلسة تنتهي بمعضلة حقيقية: فقد كانت تكره أن يكون لديّ قدر كبير من السيطرة، وتتردد في مغادرة مكتبي. كانت نهاية كلّ جلسة أشبه بالموت. وخلال أصعب الفترات التي مرّت بها، لم تكن قادرة على الاحتفاظ بصور

في ذهنها وتخشى إذا ابتعدتُ عن نظرها، ألّا يعود لي وجود. وكانت تعتبر أيضاً أن نهاية الجلسة رمز عن مدى ضآلة ما تعنيه بالنسبة لي، ومدى قلة اهتمامي بها، ومدى السرعة التي يمكنني أن أستغني عنها. وكانت إجازاتي أو رحلاتي المهنية تسبب لها مشاكل كبيرة فكنت أتصل بها بالهاتف مرات عديدة لأبقى على تواصل معها.

أصبح كل شيء طاحونة لمطحنة «هنا والآن»: رغبتها بأن أمتدحها، وأقول لها إنني أفكّر بها أكثر مما أفكّر بمرضاي الآخرين، وأن أعترف لها بأننا لو لم نكن معالجاً ومريضة، لرغبت بها كامرأة.

تركّز «هنا والآن» في العلاج النفسي عادة على مزايا عديدة. فهي تضفي إحساساً بآنية جلسة العلاج، وتقدّم بيانات أكثر دقة من الاعتماد على آراء المرضى غير الكاملة والمتغيرة باستمرار عن الماضي. وبما أن أسلوب المرء في التواصل في «هنا والآن» نموذج اجتماعي مصغّر لنمط المرء في العلاقة بالآخرين، في الماضي والحاضر، فإن مشاكل المرء المتعلقة بالتواصل تُكشف على الفور، بألوان حية، بينما تتكشف العلاقة مع المعالج. علاوة على ذلك، يزداد العلاج قوة وحماسة - لا توجد جلسة فردية أو جماعية تركّز على «هنا والآن» مملة على الإطلاق. فضلاً عن أن «هنا والآن» توفر مختبراً، ساحة آمنة، يستطيع المريض فيها أن يختبر سلوكيات جديدة قبل أن يجرّبها في العالم الخارجي.

والأهم من كل هذه الفوائد، فإن نهج «هنا والآن» يسرّع أيضاً من إقامة علاقة وطيدة بيننا. فقد كان سلوك إيرين الخارجي - الفاتر، الزاجر، الواثق، المتعالي - يمنع اقتراب الآخرين منها. وهذا ما حدث بالتحديد عندما وضعتها في مجموعة علاجية مدتها ستة شهور عندما كان زوجها على فراش الموت. ومع أن إيرين كسبت احترام الأعضاء الآخرين بسرعة وقدّمت لهم مساعدة كبيرة، لم تتلق سوى القليل لقاء ذلك. فقد كان الشعور بالاكتفاء الذاتي التام الذي كانت تبثّه يقول لأعضاء المجموعة الآخرين إنها ليست بحاجة إلى شيء منهم.

كان زوجها الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه اختراق سلوكها الفظيع هذا، الوحيد الذي كان يتحدّاها ويطالبها بسلوك عميق وحميمي. ومعه فقط كانت تبكي وتطلق العنان لتلك الفتاة الصغيرة التائهة في داخلها. وبموت جاك فقدت إيرين حَجَرة الاحتكاك الحميمة. كنت أعرف أنها غطرسة منها، لكنّي أردت أن أصبح تلك الحَجَرة بالنسبة لها.

هل كنت أحاول أن أحلّ محلّ زوجها؟ يا له من سؤال أحمق وصادم. لا، لم أفكّر قط بأن أفعل ذلك. لكنني كنت أطمح لأن أعيد إنشاء جزيرة من الحميمية لمدة ساعة أو ساعتين في الأسبوع، مكان يمكنّها من أن تتخلّص فيه من حالتها العقلية بأنها الطبيبة الجرّاحة الخارقة، وأنها امرأة هشة يمكن تحديها. وشيئاً فشيئاً، وتدريجياً، استطاعت أن تعترف بمشاعر العجز وأن تلجأ إليَّ لتشعر بالارتياح.

عندما مات أبوها بعد فترة قصيرة من وفاة زوجها،

أزعجتها فكرة أن تعود إلى بيت والديها لتحضر جنازة أبيها. فلم يعد بإمكانها أن تتحمّل رؤية أمها المصابة بمرض الزهايمر، ورؤية قبر والدها المفتوح بجانب شاهدة قبر شقيقها. وافقت ونصحتها بقوة بألّا تذهب. وبدلاً من ذلك، حدّدت لها موعد الجلسة التالية في موعد الجنازة، وطلبت منها أن تجلب صور أبيها، وأمضينا الجلسة في تذكّر ذكرياتها عنه. كانت تجربة غنية وقوية، وشكرتني إيرين بعد ذلك لأننا فعلنا ذلك.

أين كان الخط الفاصل بين الحميمية والإغواء؟ هل ستعتمد عليَّ كثيراً؟ هل ستكون قادرة على الابتعاد؟ هل سيثبت انتقال الزوج القوي أنه لا يمكن حلّه؟ ظلّت هذه الفكرة تلازمني، لكنّي قررت أن أفكّر فيها لاحقاً.

لم يكن من الصعب الإبقاء على التركيز على «هنا والآن» في عملي مع إيرين. فقد كانت مجتهدة ومخلصة إلى درجة كبيرة. فلم أسمع قط، ولا مرة واحدة طوال فترة عملي معها، تعليقات مقاومة، أو توقع تعليقات من قبيل، «هذا لا معنى له... إنه خارج عن الموضوع... لستَ أنتَ المشكلة... أنتَ لست حياتي - فأنا لا أراك إلّا ساعتين في الأسبوع، فقد مات زوجي منذ أسبوعين - لماذا تضغط على مشاعري تجاهك؟ -هذا جنون... كل هذه الأسئلة حول الطريقة التي أنظر بها إليك، أو الطريقة التي أدخل بها إلى هذا المكتب - إنها أمور تافهة جداً للتحدّث عنها. أشياء كثيرة وكبيرة تحدث في حياتي». على العكس من ذلك، فقد فهمت إيرين على

الفور ما كنت أحاول أن أفعله وبدت طوال فترة العلاج ممتنة لجميع محاولاتي لإشراكها في الحديث.

كانت ملاحظات إيرين حول علاجي «الارتجالي» ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي. وقد وجدت نفسي فيما بعد أقول: «يجب على المعالج الجيد أن يخلق علاجاً جديداً لكل مريض». إنه موقف متطرف، أكثر تطرفاً من اقتراح يونغ منذ سنوات طويلة بأننا نستحدث لغة علاجية جديدة لكل مريض. لكن يجب أن نستحدث مواقف جذرية لهذه الأوقات الراديكالية.

تشكل حركة إدارة الرعاية المعاصرة في مجال الرعاية الصحية تهديداً قاتلاً لمجال العلاج النفسي الذي ينبني على ثلاثة أسس: (1) أن العلاج قصير بشكل غير واقعي، ويركّز فقط على الأعراض الخارجية بدلاً من أن يركز على الصراعات الأساسية التي تسبب تلك الأعراض؛ (2) أن العلاج غير مكلف بشكل غير واقعي (ويشكل ذلك عقوبة للمهنيين الذين استثمروا السنوات الضرورية اللازمة للتدريب المتعمق وللمرضى الذين يُرغمون على استشارة معالجين غير مدربين تدريباً كافياً)؛ (3) أن يقلّد المعالجون النموذج الطبي ويمضون في صياغة أهداف طبية دقيقة وإجراء تقييمات أسبوعية عنها؛ و (4) أن يستخدم المعالجون العلاجات المثبتة تجريبياً، وبالتالي أن يفضّلوا الأنماط السلوكية المعرفية المختصرة والدقيقة التي تُظهر تخفيف حدة الأعراض.

«لكن من بين كل هذه الاعتداءات الكارثية المبنية على أحكام خاطئة في مجال العلاج النفسي، لا شيء أكثر خطورة

من الاتجاه نحو العلاج المبني على البروتوكول. لذلك، فإن بعض الخطط الصحية والهيئات المعنية بالصحة تقضي بأن يتبع المعالج خطة محددة لمسار العلاج، وفي بعض الأحيان، تحديد جدول زمني للعناصر التي يجب تغطيتها في كل جلسة من الجلسات المسموح بها. ويفترض مديرو الرعاية الصحية الجشعون الذين يسعون إلى تحقيق الربح ومستشاروهم المهنيون المضلَلون أن العلاج الناجح هو المعلومات التي يتم الحصول عليها أو الاستغناء عنها، وليس نتيجة العلاقة بين المريض والمعالج. وأن يُعتبر ذلك خطأً جسيماً.

ومن بين الثمانين رجلاً وامرأة الثكالى الذين درستهم في بحثي قبل أن أرى إيرين، لم يكن أحد منهم مثلها. فلم يتعرض أحد منهم لنفس الخسائر الأخيرة (والتراكمية) - الزوج، الأب، الأم، الصديق، الابن بالمعمودية، مثلها - ولم يصب أحد منهم بصدمة نفسية كما حدث لها عندما فقدت شقيقاً عزيزاً. ولم تكن لدى أحد منهم علاقة متبادلة قوية مثل العلاقة التي كانت تربطها بزوجها. ولم يشاهد أحد منهم زوجاً يتحلل جسدياً، قطعة قطعة، يلتهمه ورم في الدماغ بشكل فظيع وقاس. ولم يكن أي منهم طبيباً يفهم جيداً طبيعة مرض زوجها ويعرف مسار المرض.

لا، لقد كانت حالة إيرين فريدة من نوعها، وكانت تتطلب علاجاً فريداً أيضاً، علاج كان علينا، أنا وهي، أن نستنبطه ونستكشفه معاً. لم يكن علاجاً نستكشفه معاً، ثم نشرع في تطبيقه - بل على العكس تماماً: فإن مشروع

استنباط علاج جديد، فريد من نوعه، هو العلاج نفسه.

نظرتُ إلى ساعتي. أين أيرين؟ خطوت نحو باب المقهى ونظرت إلى الخارج. رأيتها تسير بجانب رجل لا بد أنه كيفن. أيرين ورجل يداً بيد. هل هذا ممكن؟ تذكّرت كلّ تلك الساعات التي لا تعد ولا تحصى التي أمضيتها معها محاولاً أن أؤكد لها بأنه ليس مقدراً لها أن تكون وحيدة، وأنه سيكون هناك رجل آخر في حياتها في نهاية الأمر. يا إلهي، كم كانت عنيدة، وكانت الفرص كثيرة: فقد كان هناك طابور طويل من الرجال الجذابين والمناسبين الذين تقدموا إليها في بداية فجيعتها.

كانت ترفض كلّ رجل بسرعة لسبب أو أكثر، مما كان يبدو أنها قائمة لا نهاية لها من الأسباب. «لا أجرؤ على أن أحبّ مرة أخرى لأنني لا أستطيع أن أتحمّل خسارة أخرى» (ذلك الموقف الذي كان يتصدر القائمة دائماً جعلها ترفض رفضاً تاماً أي رجل يكبرها في السن قليلاً، أو أي رجل ليس في حالة جسدية ممتازة). «لا أريد أن أحكم على أي رجل بالموت بأن أحبّه»، «أرفض أن أخون جاك». كانت تقارن كلّ رجل بشكل سلبي مع جاك الذي كان الشريك المثالي المُقَدّر لها مسبقاً (فقد كان يعرف أسرتها، وقد اختاره لها شقيقها، وكان يمثّل آخر صلة بشقيقها المتوفي وأبيها وأمّها اللذين كانا على فراش الموت). وكانت إيرين مقتنعة أيضاً بأنه لا يوجد رجل يستطيع أن يفهمها، ولا يوجد رجل لن يجلب، مثل المزارع فروست، المجرفة إلى المطبخ، ربما ما عدا

أحد أعضاء جمعية الثكالى الذي انضم إليها مؤخراً، ولديه وعي قوي بهدفه النهائي وقيمة الحياة.

انتقائية، نَيِّقة، صعبة الإرضاء. وافر الصحة. رياضي. قوي البنية، أصغر منها سناً، فَقَد زوجته منذ فترة قصيرة، يتمتع بحساسية مرهفة للفن والأدب وله اهتمامات وجودية. لقد نفد صبري من أيرين ومن المعايير المستحيلة التي وضعتها. فكّرت في جميع الأرامل الأخريات اللاتي عملت معهن، واللاتي كن على استعداد لتقديم أي شيء لقاء أي اهتمام يبديه لهن أي رجل من الرجال الذين كانت ترفضهم أيرين على الفور. بذلت كل ما بوسعي لأن أحتفظ بهذه المشاعر لنفسي، لكنها لم تكن تدع شيئاً يفوتها، حتى أفكاري التي لم أكن أفصح عنها، وكانت تغضب لأنني كنت أطلب منها أن تتعرف على رجل، وتتهمني وتقول: «إنك تحاول أن ترغمني على أن أقدّم تنازلات».

«ربما كانت تشعر أيضاً بقلقي المتزايد بأنها لن تدعني أذهب. أظن أن تعلّقها بي كان عاملاً رئيسياً في رفضها أن تتعرّف على رجل آخر. يا إلهي، هل سأتحمّل عبئها إلى الأبد؟ ربما كان هذا جزائي لأنني نجحت في أن أصبح شخصاً مهماً بالنسبة لها.

ثم دخل كيفن حياتها. منذ البداية عرفت أنه الرجل الذي كانت تبحث عنه. أُعجبتُ بيقينها - تبصّرها. فكّرت في كلّ تلك المعايير السخيفة والمستحيلة التي كانت قد حددتها.

حسناً، فقد لبّى جميع الصفات التي كانت تحددها: شباب، صحة جيدة، مرهف الحسّ - حتى أنه كان عضواً في جمعية الثكالى السرّية. فقد توفيت زوجته منذ سنة، وفهم هو وإيرين حزن بعضهما وتعاطفا معه. لقد حدث كلّ شيء فوراً، وشعرت بسعادة غامرة من أجل إيرين ومن أجل تحرري منها. فقبل أن تتعرف على كيفن، كانت قد استعادت مستوى أدائها العالي في العالم الخارجي، لكن بقي هناك حزن داخلي عميق واستسلام لا يمكن وصفه. وها قد حُلَّت هذه المشكلة الآن بسرعة أيضاً. هل تحسنت نتيجة لقائها بكيفن؟ أم أنها أصبحت قادرة على الانفتاح عليه لأنها تحسنت؟ بعض من كلّ ذلك؟ لن أكون متأكداً من ذلك أبداً.

«وها هي الآن تجلب معها كيفن لتعرّفني عليه.

ها هما يدخلان إلى المقهى. يسيران نحوي. لماذا أشعر بالتوتر؟ انظر إلى ذلك الرجل: إنه وسيم، طويل القامة، قوي البنية، يبدو كما لو أنه يمارس رياضة الجري كل يوم قبل الإفطار، وهذا الأنف... شيء لا يصدق... أين يمكنك أن تشتري أنفاً كهذا؟ كفى يا كيفن، اترك يدها. هذا يكفي. لا بد أن هناك شيئاً لا يعجبك في هذا الرجل. سأضطر إلى مصافحته. لماذا تعرّقت يدي هكذا؟ هل سيلاحظ؟ من يهتم بأي شيء يمكن أن يلاحظه؟

«إيرف»، سمعت صوت إيرين تقول: «هذا كيفن. كيفن، هذا إيرف».

«ابتسمتُ ومددت يدي وحييته بفكين مشدودين. اللعنة عليك، قلت في نفسي، من الأفضل أن تعتني بها جيداً. واللعنة، من الأفضل ألّا تموت.

5

التعرية المزدوجة

«إذاً لهذا السبب أشعر بالاستسلام يا دكتور لاش. فلا يوجد رجال هناك، وإذا كانوا لا يزالون عُزَّاباً وهم في الأربعينات من عمرهم، فلا بد أن هناك خطأً ما - فاقدو الحسّ، رافضون، مريضون - لم ترغب بهم نساء أخريات وطردوهم، ونظفّوهم أيضاً. لا يحصل آخر ثلاثة رجال خرجتُ معهم على راتب تقاعدي. لا شيء. من يمكنه أن يحترمهم؟ هل يمكنك أنت؟ أراهن أنك تدّخر نقوداً كثيرة من أجل تقاعدك، هه؟ أوه، لا تقلق، أعرف أنك لن تجيب على ذلك. عمري خمسة وثلاثون سنة. أستيقظ وأنا أفكّر بالصفات الشخصية الرئيسية الخمس. في منتصف الطريق هناك. كلما أتذكّر زوجي السابق، أدرك أنه قتلني. قتل عشر سنوات من عمري، أهم عشر سنوات. عشر سنوات - لا أستطيع أن أتصوّر ذلك. إنه حلم مزعج، وعندما يخرج، أستيقظ، وأنظر حولي، عمري خمسة وثلاثون سنة، لقد حُكم عليَّ بالإعدام، ولم يبق أحد من الرجال المحترمين».

(بضع ثوانٍ من الصمت)

«إلى أين تذهب أفكارك يا ميرنا؟»

«يخطر لي إنني وقعت في فخ - أفكّر في الذهاب إلى ألاسكا حيث نسبة الرجال إلى النساء أفضل، أو إلى كلية إدارة الأعمال التي توجد فيها نسبة جيدة من الرجال».

«ابقي هنا في الغرفة معي يا ميرنا. كيف كان شعورك هنا اليوم؟»

«ماذا تقصد؟»

«ما أقصده دائماً. حاولي أن تتحدّثي عما يجري هنا، بيننا».

«شيء محبط. مئة وخمسون دولاراً أخرى، ولا أشعر بأي تحسّن».

«إذن فشلتُ اليوم مرة أخرى. أخذتُ نقودك ولم أساعدك. قولي لي شيئاً يا ميرنا. لنرى إذا...»

ضغطت ميرنا على الفرامل بقوة، وانحرفت لتتفادى الاصطدام بشاحنة تجاوزت الخط الذي يقسم الطريق واتجهت نحوها، فأسرعت وتجاوزتها، وصاحت في السائق: «أحمق، حقير».

أوقفت الشريط وأخذت نَفَساً عميقاً عدة مرات. منذ بضعة أشهر، بعد جلساتهما القليلة الأولى، بدأ طبيبها النفسي الجديد، الدكتور إرنست لاش، يسجّل جلساتهما وأعطاها الشريط لتسمعه وهي في طريقها إلى الجلسة التالية

الأسبوع القادم. كانت تعيد له كلّ أسبوع الكاسيت ليسجّل عليه الجلسة الجديدة فوق الجلسة القديمة. قال لها إنها طريقة جيدة لاستغلال الوقت وهي في طريق عودتها من لوس ألتوس إلى سان فرانسيسكو. لم تكن متأكدة من ذلك. فقد كانت الساعات محبطة، وكان سماعها للشريط مرة أخرى يزيدها إحباطاً. عندما اقتربت الشاحنة منها، أشعل السائق أضواء الشاحنة الأمامية لكي يتجاوزها. توقفت على جانب الطريق، ولعنت سائق الشاحنة الذي رفع لها إصبعه الوسطى. لنفترض أنها تعرضت لحادث لأنها كانت مشتتة الفكر، تستمع إلى الشريط؟ هل يمكنها أن تقاضي طبيبها النفسي؟ أن تجرّ مؤخرته إلى المحكمة؟ رسمت هذه الفكرة ابتسامة على شفتي ميرنا، ثم انحنت وضغطت على زر «الإرجاع» لبضع ثوان، ثم ضغطت على زر «التشغيل».

«ابقي معي في الغرفة يا ميرنا. كيف كان شعورك هنا اليوم؟»

«ماذا تقصد؟»

«ما أقصده دائماً. حاولي أن تتحدّثي عما يجري هنا، بيننا».

«شيء محبط. مئة وخمسون دولاراً أخرى، ولا أشعر بأي تحسن».

«إذن فشلت اليوم مرة أخرى. أخذتُ نقودك ولم أساعدك. قولي لي شيئاً يا ميرنا. لنرى إذا كان بإمكانك أن

تتذكّري الساعة التي أمضيناها معاً وأجيبي على هذا السؤال: ماذا كان بإمكاني أن أفعله اليوم؟»

«كيف لي أن أعرف؟ لهذا السبب أدفع لك نقوداً، أليس كذلك؟ ومبلغاً كبيراً أيضاً».

«أعرف أنك لا تعرفين يا ميرنا، لكني أريد أن تغوصي في مخيلتك. هل استطعت أن أساعدك اليوم؟»

«كان بإمكانك أن تعرّفني على أحد مرضاك الأغنياء العزّاب».

«هل ترين على قميصي عبارة 'مكتب مواعدة'؟»

«ابن الحرام»، تمتمت وضغطت على زر التوقف، «فأنا أدفع لك مئة وخمسين دولاراً لكل ساعة من أجل هذا الخراء؟» ثم ضغطت على زر «الترجيع» وأعادت تشغيل الحديث.

«... هل كان بإمكاني أن أساعدك اليوم؟»

«كان بإمكانك أن تعرّفني على أحد مرضاك الأغنياء العزّاب».

«هل ترين على قميصي عبارة 'مكتب مواعدة'؟»

«لم أقل شيئاً مضحكاً يا دكتور».

«لا، أنت محقة. أنا آسف. ما كان يجب أن أقول إنك تظلين بعيدة جداً عني - ولا تقولين ما هي مشاعرك تجاهي».

«أنت، أنت، أنت. لماذا دائماً مشاعري تجاهك؟ أنت لست المشكلة يا دكتور لاش. لن أواعدك أنت - مع أنني قد أستفيد من مواعدتك أكثر مما نفعله هنا».

«لنستعرض الأمر مرة أخرى يا ميرنا. لقد أتيت لترينني في الأصل وقلتِ إنك تريدين أن تفعلي شيئاً بشأن علاقاتك مع الرجال. وقلت لك في جلستنا الأولى إنني أستطيع أن أساعدك بأفضل ما يمكن بفحص علاقاتك مع الآخرين بالتركيز على علاقتنا هنا في هذا المكتب. هذا الحيّز في مكتبي هنا هو، أو ينبغي أن يكون، مكاناً آمناً، حيث آمل أن تتمكني من أن تتكلمي بحرية أكبر من أي مكان آخر. ويمكننا أن نفحص في هذا المكان الآمن الطريقة التي يتواصل بها أحدنا بالآخر. هل هذا شيء يصعب فهمه؟ لذلك، لننظر مرة أخرى إلى مشاعرك تجاهي هنا».

«قلت لك للتو إنه محبط».

«حاولي أن تجعلي الأمر شخصياً أكثر يا ميرنا».

«محبط هو أمر شخصي».

«نعم، بطريقة ما فهو أمر شخصي، إنه يخبرني عن حالتك الداخلية. أعرف أن الأمور تدور في ذهنك في شكل دائرة. تدور في شكل دائرة عندما تكونين هنا أيضاً. وأشعر بالدوار معك. وأشعر بإحباطك. لكن كلمة محبطة لا تشي بشيء عنا. فكّري في الحيّز هنا، بيننا. حاولي أن تبقي فيه لمدة دقيقة أو دقيقتين. كيف يبدو الحيّز اليوم؟ ماذا عن

تعليقك قبل بضع دقائق بأنك قد تستفيدين من مواعدتي أكثر مما تستفيدين من العلاج؟

«قلت لك منذ قليل، لا شيء. الحيّز فارغ. لا يوجد إلّا إحباط».

«هذا - إن ما يحدث الآن، في هذه اللحظة - هو ما أقصده تماماً عندما أقول إنك تتحاشين التواصل الحقيقي بي».

«أنا مضطربة، ضائعة».

«انتهى وقتنا يا ميرنا، لكن جربي شيئاً قبل أن نتوقف، نفس التمرين الذي كنت قد طلبته منك منذ بضعة أسابيع. لدقيقة أو دقيقتين فقط، فكّري في شيء يمكننا أن نفعله معاً. أغمضي عينيك. دعي مشهداً، أي مشهد، يلوح أمامك. صفيه لي كما يحدث».

[صمت]

«ماذا ترين؟»

«لا شيء».

«اجعلي شيئاً يحدث بالقوة».

«حسناً، حسناً. أرى أننا نسير معاً. نتحدّث. نستمتع. في أحد شوارع سان فرانسيسكو، ربما شارع تشيستنات. سأمسك بيدك وآخذك إلى حانة العزّاب. إنك متردد، لكنك تأتي معي. أريدك أن تراه... انظر المشهد... انظر بأمّ عينيك أنه لا يوجد

رجال مناسبون هناك. إما حانات العزّاب وإما خدمات التعارف على الإنترنت التي ذكرتها لي الأسبوع الماضي. الإنترنت - إنه أسوأ من الحانات. أتحدّث عن اللا ذاتِيَّة، اللا شخصية. لا أصدّق أنك تقترح عليَّ ذلك حقاً. تتوقع أن أقيم علاقة على شاشة الكمبيوتر، حتى من دون أن أرى الشخص الآخر... ولا حتى...»

«عودي إلى مخيّلتك. ثم ماذا ترين بعد ذلك؟»

«بهتت الصورة، وأصبحت سوداء... وبدأت تتلاشى»

«بهذه السرعة. ما الذي منعك من أن تبقي فيها؟»

«لا أعرف. شعرت بالبرد والوحدة».

«كنتِ معي. أمسكتِ يدي. ما هي المشاعر التي انتابتك؟»

«ما زلت أشعر بالوحدة».

«يجب أن تتوقفي يا ميرنا. سؤال أخير. هل كانت الدقائق الأخيرة مختلفة عن الجزء الأول من الساعة؟»

«لا. الشيء نفسه. محبطة».

«شعرتُ بمزيد من المشاركة، وحيّز أقل يفصل بيننا. ألم تشعري بأي من ذلك؟»

«ربما. لست متأكدة. وما زلت لم أر المغزى مما نفعله».

«لماذا أشعر دائماً أنه يوجد شيء في داخلك يقاوم رؤية هذه النقطة؟ نفس الوقت يوم الخميس القادم؟»

سمعت ميرنا صوت كراسي تتحرك، خطواتها تعبر الغرفة، والباب يُغلق. انعطفت إلى الطريق السريع 1-280. هدر للوقت والنقود، قالت في نفسها. الأطباء النفسانيون. إنه مثل الآخرين جميعاً. لا، ليس تماماً. على الأقل، فهو يتحدّث إليَّ. للحظة، تخيّلت وجهه: يبتسم، يمدّ ذراعيه إليها، يدعوها لأن تقترب. الحقيقة هي إنني أحبّ دكتور لاش. إنه هناك معي - على الأقل يبدو أنه يهتم بما يحدث لي، وهو نشيط: يحاول أن يُبقي الأمور تسير - إنه يذهب إلى منتصف الطريق، ولا يتركني جالسة صامتة مثل الطبيبين النفسانيين الأخيرين. أبعدت هذه الصور من ذهنها بسرعة. إنه يلّح عليها دائماً لأن تواصل أحلام يقظتها، خصوصاً تلك التي تراها وهي تقود سيارتها في طريقها إلى جلسة العلاج وفي طريق العودة، ولن تخبره بهذه الأمور التافهة.

فجأة سمعت صوته على الشريط مرة أخرى.

> «مرحباً. أنا إرنست لاش يردّ على مكالمتك. آسف لأنني افتقدتك يا ديزموند. أرجو أن تحاولي الاتصال بي على الرقم 1735- 767 بين الساعة الثامنة والعاشرة هذا المساء أو في مكتبي أول شيء صباح الغد».

ما الذي يجري هنا؟ تساءلت. تذكّرت فجأة أنها بعد أن غادرت مكتبه في نهاية آخر جلسة، وقادت سيارتها بضعة

أمتار، تذكرت أنه نسي أن يعطيها الشريط وعادت لتأخذه. ركنت سيارتها بجانب سيارة أخرى أمام المنزل الفيكتوري وصعدت بسرعة الدرج الطويل إلى مكتبه في الطابق الثاني. وبما أنها كانت آخر ساعة له في ذلك اليوم، فلن يكون عنده مريض آخر. كان باب مكتبه موارباً. عندما دخلت، وجدت الدكتور لاش يُملي نصاً على جهاز الإملاء. عندما أخبرته عن سبب عودتها، أخرج الكاسيت من جهاز التسجيل الموجود على الطاولة بجانب الكرسي الذي يجلس عليه المرضى. أعطاه لها وقال: «أراكِ الأسبوع المقبل». من الواضح أنه نسي أن يوقف جهاز التسجيل عندما غادرت مكتبه أول مرة، وظلّ يسجّل قليلاً قبل انتهاء الشريط.

عندما رفعت ميرنا الصوت، سمعت أصواتًا خافتة: ربما صوت قرقعة فناجين قهوة عندما بدأ يرفعها من طاولة مكتبه. ثم سمعت صوته مرة أخرى وهو يتكلم بالهاتف مع شخص يرتبان موعداً للعب التنس. وقع خطوات، صوت احتكاك كرسي بأرضية المكتب، ثم سمعت شيئاً مثيراً للاهتمام أكثر.

«أنا الدكتور لاش أُملي ملاحظات من أجل الحلقة الدراسية «الانتقال المقابل»*، ملاحظات عن ميرنا، يوم الخميس 28 آذار (مارس)».

(*) الانتقال المقابل (countertransference): ظاهرة نفسية تحدث عندما يدع الطبيب المعالج مشاعره تشكل الطريقة التي يتعامل من خلالها أو يتفاعل معها أثناء العلاج. وفي معظم الأحيان، لا تكون هذه العملية واعية، ولا يدرك الطبيب والمريض حدوثها.

ملاحظات عني؟ لا يمكنني أن أصدّق ذلك. أصخت السمع، وقد اعتراها القلق والفضول، انحنت إلى الأمام، وقرّبت أذنها من المسجّلة. انحرفت السيارة فجأة وكادت أن تفقد السيطرة عليها. توقفت بجانب الطريق السريع، وأخرجت الشريط بسرعة، وأخرجت جهاز التسجيل الصغير من صندوق التابلوه، وألقمت الشريط فيه، وأرجعته قليلاً، ووضعت سماعات في أذنيها، ثم عادت إلى الطريق السريع، ورفعت الصوت.

«أنا الدكتور لاش، أملي ملاحظات من أجل الحلقة الدراسية «الانتقال المقابل»، ملاحظات عن ميرنا، يوم الخميس 28 آذار (مارس). كانت جلسة نموذجية محبطة متوقعة. أمضت معظم الجلسة وهي تتذمر كعادتها لعدم وجود رجال عزّاب. بدأت أفقد صبري... ازدادُ غضباً - فقدتُ أعصابي للحظة، وقلت لها عبارة غير مناسبة: «هل ترين على قميصي عبارة 'مكتب مواعدة'؟» كان ذلك حقاً شيئاً هجومياً من جانبي - وهذا بعكس ما أتصف به - لا أذكر آخر مرة لم أبدِ فيها احتراماً لأي مريض. هل إنني أحاول أن أُبعدها؟ لم أقل لها قط شيئاً داعماً أو إيجابياً. حاولت، لكنها تجعل الأمر صعباً عليَّ. إنها تثير أعصابي... إنها مملّة جداً، خشنة، فظة، ضيّقة الأفق. كلّ ما تفكّر فيه هو أن تجني مليونيّ دولار من خيارات الأسهم وأن تجد رجلاً. لا شيء آخر... ضيّقة الأفق، ضيّقة الأفق، ضيّقة الأفق... لا أحلام، لا مخيّلة، ولا خيال. لا عمق. هل قرأت قط رواية جيدة؟ هل قالت

يوماً شيئاً جميلاً؟ أو مثيراً للاهتمام... فكرة واحدة مثيرة للاهتمام فقط؟ يا إلهي، كم أوّد أن أراها تكتب قصيدة - أو تحاول أن تكتب قصيدة - سيكون ذلك تغييراً علاجياً جيداً لها. إنها تستنزف طاقتي. أشعر كما لو كنت حلمة ثدي كبيرة. نعيد ونكرر مرة بعد أخرى الموضوع نفسه. إنها تصدّع رأسي بالمبلغ الذي تدفعه لي لقاء الجلسات. أسبوعاً بعد أسبوع، ينتهي بي الأمر بأنني أفعل الشيء نفسه - لقد مللت من نفسي.

«كالعادة، حثثتها اليوم على أن تتفحّص دورها في محنتها، وكيف أنها تساهم في عزلتها. إنها ليست فكرة صعبة، لكن يبدو أنني أكلّمها باللغة الآرامية. ببساطة لا تستطيع أن تفهم ذلك. حتى أنها اتهمتني بأنني لا أصدّق أن مشهد العزّاب سيء بالنسبة للنساء. وكما تفعل غالباً، فقد عبّرت مازحة عن رغبتها في أن تواعدني، لكن عندما أحاول أن أركّز على ذلك، على مشاعرها تجاهي، أو كيف تجعل نفسها وحيدة هنا في هذه الغرفة معي، تزداد الأمور سوءاً. فهي ترفض أن تفهم ذلك، ولا تريد أن تتواصل معي، ولا تعترف بأنها تفعل ذلك، وتصرّ على أن لا علاقة لذلك بموضوعنا. لا يمكن أن تكون غبية. فهي خريجة جامعة ويليسلي - تعمل في مجال الغرافيك على مستوى عال - تتقاضى راتباً ضخماً، أكثر مما أتقاضاه أنا بكثير - نصف شركات البرمجيات في وادي سيليكون تتنافس عليها - لكنّي أشعر بأنني أتحدّث إلى امرأة غبية. كم مرة يجب أن أشرح

لها لماذا من المهم أن ننظر إلى علاقتنا؟ وكل تلك الأمور بأنها لا تحصل لقاء ما تدفعه لي - أشعر بالمهانة. إنها سيدة مبتذلة، تفعل كل شيء ممكن لتقضي على أي ذرة تقارب بيننا. لا يوجد شيء جيد أفعله بالنسبة لها. إنها تضغط..»

أيقظها صوت زمور سيارة عابرة على أن سيارتها بدأت تتمايل. بدأ قلب ميرنا يخفق بقوة. إنه شيء خطير. أوقفت جهاز التسجيل وانعطفت إلى شارع جانبي، وركنت سيارتها بجانب الرصيف، وأرجعت الشريط، وبدأت تستمع:

«... أشعر بالمهانة. إنها سيدة مبتذلة. تفعل كل شيء ممكن لتقضي على أي ذرة تقارب بيننا. لا يوجد شيء جيد أفعله لها. إنها تضغط على العديد من أزراري وبدأت أظن أنه يوجد فيها شيء من أمي. كلما سألتها عن علاقتنا العلاجية، تنظر إليَّ تلك النظرة الحذرة كما لو أنني أراودها عن نفسها. هل أفعل ذلك؟ ولا ذرة من ذلك عندما أدقق في مشاعري. هل كان من الممكن أن أفعل ذلك لو لم تكن مريضتي؟ فهي امرأة جميلة - يعجبني كثيراً شعرها البراق الذي يلمع - معتدلة القامة - صدرها رائع، تكاد تلك الأزرار أن تتفجر - من المؤكد أن هذه ميزة إضافية. أشعر بالقلق عندما أحدّق بهذين الثديين، لكن لا أظن أنني أفعل ذلك، بفضل أليس. عندما كنت في المدرسة الثانوية كنت أتحدّث ذات يوم مع فتاة اسمها أليس ولم أدرك أنني كنت أحدّق في ثدييها إلى أن وضعت يدها تحت ذقني ورفعت وجهي إلى الأعلى

وقالت: 'يو - هوو، يو - هوو. أنا هنا' لا أنسى ذلك أبداً. لقد أسدت لي أليس تلك معروفاً كبيراً.

«يدا ميرنا كبيرتان جداً، وهذا ينفرّني. لكنّي أحبّ كثيراً صوت حفيف جوربها المثير عندما تلّف ساقاً على ساق. نعم، أظن أنه تنتابني بعض المشاعر الإيروتيكية. لو كنت قد التقيت بها عندما كنت عازباً، هل كنت سأُغرم بها؟ ربما نعم، كنت سأنجذب إليها جسدياً إلى أن تفتح فمها وتبدأ تتذمر أو تطلب أشياء، عندها أريد أن أبتعد عنها بسرعة. لا توجد فيها رقة أو ليونة. شديدة التركيز على ذاتها، كلها زوايا حادة - المرفقان، الركبتان، لا تستسلم...

[صوت نقرة عندما انتهى الشريط].

بذهول، شغلّت ميرنا السيارة، وسارت بضع دقائق، ثم انعطفت يميناً إلى شارع ساكرامنتو، على مسافة بضع شوارع من مكتب الدكتور لاش. مندهشة، لاحظت أن جسمها يرتعش. ما الذي يجب أن تفعله؟ ما الذي يجب أن تقوله له؟ بسرعة، بسرعة - لم يبق سوى بضع دقائق حتى تبدأ ساعته اللعينة تحسب الـ 150 دولاراً.

ثمة شيء واحد مؤكد، قالت لنفسها، وهو أنه من المستحيل أن أعيد له الشريط كما أفعل عادة. يجب أن أسمعه مرة أخرى. سأكذب عليه وأقول إنني نسيته في البيت. ثم يمكنني أن أسجّل تعليقاته على شريط آخر وأعيد له الشريط الأصلي الأسبوع المقبل، أو قد أقول له إنني أضعت

الشريط. وإذا لم يعجبه ذلك - فليذهب هذا الخراء إلى الجحيم.

كلما فكّرت في الأمر، ازداد يقينها بأنها لن تقول له إنها سمعت ما أملاه على الشريط. لماذا تتخلّى عن إثبات يوجد بحوزتها؟ قد تخبره الحقيقة في وقت ما في المستقبل. وربما لن تخبره أبداً. ابن الحرام هذا. توجهت إلى مكتبه. الساعة الرابعة. وقت الكلام.

«ميرنا ادخلي من فضلك». كان إرنست يناديها دائماً ميرنا، وهي تناديه الدكتور لاش، مع أنه أشار إليها في أحيان كثيرة أن تناديه باسمه الأول. في ذلك اليوم، كان يرتدي كعادته سترته الزرقاء الكاشفة، وكنزة بيضاء ذات ياقة عالية. ألا توجد لديه ثياب غير هذه؟ تساءلت. وهذا الحذاء المهترئ. إن ارتداء ثياب غير رسمية شيء، وارتداء ثياب مهلهلة شيء آخر. ألم يسمع شيئاً عن تلميع الأحذية؟ وهذه السترة التي لا تخفي الدولاب الاحتياطي الذي يلّفه حول خصره. قالت لنفسها، لو كنت ألعب معك التنس، سأوجّه لك ضربة تقتلك، وسآخذ قطع لحم الخنزير الصغيرة السميكة هذه التي يضخّها جسدك.

«لا توجد مشكلة»، قال بلطف عندما اعترفت له أنها نسيت الشريط، «أحضريه الأسبوع القادم. لديَّ شريط جديد»، وأخرج شريطاً جديداً، وألقمه في جهاز التسجيل.

أعقب ذلك الصمت المعتاد. تنهدت ميرنا.

«يبدو أنك مضطربة»، قال إرنست معلقاً.

أنكرت ميرنا ذلك وقالت: «لا، لا»، قالت لنفسها، يا له من دجّال، مخادع، يتظاهر بأنه قلق، لكنك لا تبدي أي اهتمام سواء كنتِ مضطربة أم لا. أعرف ما هي مشاعرك تجاهي.

مزيد من الصمت.

«أشعر بوجود مسافة كبيرة بيننا»، قال إرنست، «هل تشعرين بذلك أيضاً؟»

هزّت ميرنا كتفيها بلا مبالاة، وقالت: «لا أعرف».

«إني أتساءل يا ميرنا عن الأسبوع الماضي، هل نقلتِ معك إلى البيت أي مشاعر قوية من جلستنا؟»

«لا شيء غير عادي». لديَّ اليد العليا، قالت ميرنا لنفسها، وسأجعله يعمل جاهداً لكي يحصل على نقوده اليوم. أريد أن أراه ينضح عرقاً. ثم صمتت طويلاً قبل أن تسأله: «هل يجب أن أفعل ذلك؟»

«ماذا؟»

«هل يجب أن تكون لديَّ مشاعر قوية حول الجلسة الأخيرة؟»

لاحت دهشة على وجه إرنست. نظر إلى ميرنا. بادلته النظرة من دون أن يرمش لها جفن، ثم قال: «حسناً، كنت أتساءل إن كانت لديك أي مشاعر. ربما بعض ردود الأفعال

على تعليقي حول القميص وعبارة مكتب المواعدة؟»

«هل كانت لديك أي مشاعر تجاه هذا التعليق يا دكتور لاش؟»

اعتدل إرنست في كرسيه - انتابه أغرب شعور حول جرأتها اليوم، وقال متردداً: «نعم، كانت لديَّ مشاعر كثيرة حيال ذلك»، وأضاف، «لكنها ليست مشاعر جيدة. شعرت أنني كنت عديم الاحترام تجاهك. يمكنني أن أتخيّل أنك غاضبة مني».

«حسناً، كنت غاضبة».

«وشعرتِ بأنني جرحت مشاعرك؟»

«نعم».

«فكّري في هذا الشعور. هل أخذك إلى مكان آخر؟ في وقت آخر؟»

أوه، لا، أيتها الدودة، قالت ميرنا لنفسها، محاولة أن تتهرب من الإجابة، وأنت تلقي عليَّ كلّ هذه الأسابيع محاضرات عن البقاء في الحاضر. «دكتور لاش، هل يمكنني أن أبقى معك هنا في هذا المكتب؟» قالت بصراحتها الجديدة، «أريد أن أعرف لماذا قلت ذلك، لماذا، على حد تعبيرك، لا تحترمني».

ألقى إرنست نظرة أخرى على ميرنا. نظرة أطول هذه المرة. فكّر في الخيارات المتاحة له. واجبه تجاه مريضته،

يأتي أولاً. واليوم، بدا أن ميرنا مستعدة لمشاركته أخيراً. فقد كان يحثّها ويحثّها منذ شهور، ويتوسل إليها لأن تبقى في «الآن وهنا»، وقال لنفسه: إذن شجّع جهودها. وابق صادقاً معها.

الصدق قبل كل شيء. كان إرنست متشككاً إلى درجة كبيرة في جميع الأمور الأخرى. فقد كان يؤمن بحماسة أصولية بقوة الصدق في العلاج. فقد كان تعليمه المسيحي يدعو إلى الصدق، لكنه صدق مُلَطَّف وانتقائي. صدق مسؤول رؤوف: صدق في خدمة الرعاية والاهتمام. فلن يبوح لها أبداً، مثلاً، عن مشاعره القاسية والسلبية - لكن الصادقة - تجاهها التي عبّر عنها قبل يومين عندما عرض قضية ميرنا في الحلقة الدراسية حول الانتقال المقابل.

كانت تلك الحلقة الدراسية قد بدأت منذ سنة كمجموعة دراسة تضم عشرة معالجين يلتقون مرة كلّ أسبوعين لتعميق فهمهم لردود أفعالهم الشخصية تجاه مرضاهم. وفي كل اجتماع، يناقش أحد الأعضاء مريضاً بالتركيز بشكل كامل تقريباً على المشاعر التي أثارها المريض لدى المعالج أثناء جلسات العلاج. ومهما كانت مشاعرهم تجاه بعض المرضى - لا عقلانية، بدائية، محبّة، كارهة، جنسية، عدوانية - يلتزم الأعضاء بالتعبير عنها بصراحة واستكشاف معناها وجذورها.

ومن بين الأهداف العديدة لهذه الحلقة، لم يكن هناك

شيء أهم من الشعور بالانتماء المجتمعي الذي توفره هذه الحلقة. فالعزلة هي الخطر المهني الرئيسي الذي يواجه المعالج النفسي في عيادته الخاصة، لذلك يتصدى لها المعالجون بالانضمام إلى منظمات وهيئات محددة من قبيل الحلقة الدراسية حول «الانتقال المقابل»، ومعاهد تدريب متقدّمة، ورابطات العاملين في المستشفيات، وطائفة متنوعة من الهيئات والمنظمات المهنية المحلية والوطنية.

كان لهذه الحلقة الدراسية أهمية كبيرة في حياة إرنست، وكان يتطلع إلى اجتماعاتها كلّ أسبوعين - لا لتوطيد روح الصداقة بين المعالجين المشاركين فحسب، وإنما للتشاور بينهم أيضاً. فقد أنهى إرنست في العام الماضي تجربة إشراف طويلة مع المحلل النفسي التقليدي، المارشال سترايدر، وأصبحت هذه الحلقة الآن المكان الوحيد الذي يناقش فيه حالات المرضى مع زملائه. ومع أن التركيز الرسمي للمجموعة ينصب على الحياة الداخلية للمعالج، وليس على العلاج نفسه، فإن المناقشة تؤثّر دائماً على مسار العلاج. إن مجرد معرفة أنك ستعرض حالة مريض ستؤّثر حتماً على طريقة علاجك لهذا المريض. وخلال جلسته مع ميرنا اليوم، تخيّل إرنست أن أعضاء المجموعة يراقبونه بصمت وهو يفكّر في سؤالها عن سبب عدم احترامه لها. وحرص على ألّا يقول شيئاً يجعله يتردد في نقل ذلك لأعضاء المجموعة.

«لستُ متأكداً من جميع الأسباب يا ميرنا، لكني أعرف أنه قد نفد صبري معك في الجلسة الماضية عندما قلت ذلك.

كنتِ عنيدة. اعتراني شعور بأنني أطرق على بابك وأنت ترفضين أن تفتحيه.

«كنت أبذل كل ما بوسعي».

«أظن أن ذلك لم يُفلح. بدا لي أنك تعرفين سبب أهمية التركيز على «هنا والآن»، وعلى العلاقة بيننا، ومع ذلك فإنك تتظاهرين بأنك لا تعرفين. يعلم الله أنني حاولت أن أوضح لك ذلك مرات كثيرة. هل تذكرين في جلستنا الأولى عندما تحدّثتِ عن الأطباء الذين عالجوك سابقاً؟ قلتِ إنهم كانوا بعيدين جداً، وغير مهتمين ومعنيين جداً، وقلتُ لك إنني سأشاركك، وأن معظم مهمتنا هنا تكمن في دراسة هذه المشاركة؟ وقلتِ إنكِ ترحبين بذلك؟

«لا معنى لهذا الكلام. إنك تظن أنني أتعمّد معارضتك. قل لي إذاً، لماذا آتي أسبوعاً بعد أسبوع، وأقطع كل تلك المسافة وأدفع مائة وخمسين دولاراً للقاء جلسة مدتها ساعة؟ قد يكون هذا مبلغاً صغيراً بالنسبة لك، لكنه ليس كذلك بالنسبة لي».

«على أحد المستويات، يبدو أن لا معنى له يا ميرنا، لكن على مستوى آخر فإنه يبدو أن له معنى ومنطقي. إني أرى الأمر بهذه الطريقة. إنك غير سعيدة في حياتك، وحيدة، وتشعرين بأنك غير محبوبة. وقد جئتِ إليَّ تطلبين مساعدتي - وتبذلين جهداً كبيراً - وتقطعين مسافة طويلة، وهي مكلفة أيضاً - إني أسمعك يا ميرنا. لكن هناك شيئاً غريباً يجري

هنا، أظن أنه الخوف. أظن أن الاقتراب منك كثيراً يجعلك تشعرين بعدم الارتياح، فتتراجعين، وتغلقين على نفسك الباب، وتجدين خطأً فيَّ، وتسخرين من كلّ ما نفعله. لا أقصد أنك تفعلين ذلك عمداً».

«إذا كنت تفهمني جيداً، فلماذا قلت ذلك التعليق عن القميص؟ لم تجب على هذا السؤال بعد».

«قلت ذلك عندما ذكرت أنه نفد صبري».

«لا تبدو هذه إجابة. حقيقية».

ألقى إرنست نظرة طويلة أخرى على مريضته وقال في نفسه: هل أعرفها حقاً؟ من أين جاء هذا الانفجار من الصراحة؟ لكنها ريح قوية مُرَّحب بها - وأي شيء أفضل مما كنا نفعله. سأحاول الإبحار في ذلك قدر الإمكان.

«لقد فُهمت وجهة نظرك جيداً يا ميرنا. فالتعليق الذي قلته حول القميص لم يكن ملائماً على الإطلاق. كان تعليقاً غبياً، ومؤذياً. أنا آسف لأنني قلته. لست متأكداً من أين خطر لي. أتمنى أن أتذكر ما الذي دفعني لأن أقوله».

«أتذكّر من الشريط...»

«ظننت أنك لم تسمعي الشريط».

«لم أقل ذلك. قلت إنني نسيت أن أحضر الشريط، لكنّي استمعت إليه في البيت. جاء تعليق القميص بعد أن قلتُ إن كنت تستطيع أن تعرّفني على أحد مرضاك الأغنياء العزّاب».

«صحيح، صحيح، تذكّرت. أنا مندهش من ذلك يا ميرنا. بشكل ما كان لديَّ شعور بأن جلساتنا لم تكن تعني لك كثيراً تجعلك تتذكرينها جيداً. دعيني أعود إلى مشاعري في تلك الساعة الأخيرة. هناك شيء واحد أتذكّره بالتأكيد - ذلك التعليق بأن أعرّفك على أحد مرضاي الأغنياء أزعجني كثيراً. وأظن أنني سألتك قبل ذلك مباشرة ما الذي يمكنني أن أقدّمه لك، وكان ذلك ردّك. شعرت بالإحباط: تعليقك جرحني. ينبغي أن أكون فوق ذلك، لكن لديّ نقاط ضعف - ونقاط عمياء أيضاً».

«جرحت مشاعرك؟ ألسنا حساسين بعض الشيء؟ كانت مجرد مزحة».

«ربما. لكنه ربما كان أكثر من مجرد مزحة. ربما كنتِ تعبرين عن إحساسك بأن لديّ قيمة قليلة يمكنني أن أقدمها لك - في أفضل الأحوال - أن أعرّفك على رجل آخر. لذلك شعرت بأنني غير مرئي. قليل القيمة. وأظن أن هذا هو السبب الذي جعلني أقول لك ذلك».

«يا لك من مسكين»، تمتمت ميرنا.

«ماذا؟»

«لا شيء، لا شيء، نكتة أخرى».

«لن أسمح لك بأن تشتتي أفكاري بهذا النوع من التعليقات. في الواقع، أتساءل إن كان ينبغي لنا أن نلتقي

أكثر من مرة في الأسبوع. أما اليوم، فيجب أن نتوقف. لنستعرض ما فعلناه اليوم بسرعة. لننطلق من هذه النقطة الأسبوع المقبل».

كان إرنست سعيداً بانتهاء جلسة ميرنا، لكن ليس للأسباب المعتادة: فلم يشعر بالملل والانزعاج منها، وإنما كان مرهقاً. مضطرباً كأنه تلقى لكمات كثيرة على رأسه. كان يترنح. يسير على حبل مشدود.

لكن ميرنا لم تنه لكماتها، وقالت: «إنك لا تحبني، أليس كذلك؟» وحملت حقيبتها وهمّت بالنهوض.

«بالعكس»، قال إرنست، مصمماً على أن يبقى مع مريضته، «فقد شعرت بأنني قريب منك جداً في هذه الجلسة. كان اليوم مخيفاً وصعباً، لكننا قمنا بعمل جيد».

«ليس هذا ما سألتك إياه بالتحديد».

«لكن هذه هي الطريقة التي أشعر بها. في بعض الأحيان أشعر أنني بعيد عنك، وفي أحيان أخرى أشعر أنني قريب منك».

«لكنني لا أعجبك؟»

«الإعجاب ليس شعوراً عاماً. في بعض الأحيان تفعلين أشياء لا تعجبني، وفي أحيان أخرى تفعلين أشياء تعجبني كثيراً».

نعم نعم. مثل ثدييَّ الكبيرين وحفيف جوربي، قالت

ميرنا لنفسها وهي تُخرج مفاتيح سيارتها. عند الباب، كعادته، مدّ إرنست يده. تراجعت قليلاً. كان الاتصال الجسدي به آخر ما ترغب به، لكنها لم تجد طريقة لأن ترفض. أخذت يده بخفة وتركتها بسرعة، ثم غادرت من دون أن تلتفت إلى الوراء.

في تلك الليلة، هبط النوم على ميرنا ببطء. استلقت مستيقظة، غير قادرة على أن تمحو من ذهنها الفكرة التي سجلها الدكتور لاش عنها. «متذمرة»، «مملة»، «لها زوايا حادة»، «ضيّقة الأفق»، «مبتذلة» - وظلت عباراته تدور وتدور في رأسها. كلمات فظيعة - لكن لم تجرحها أي من هذه الأوصاف كما جرحها تعليقه بأنها لم تقل قط شيئاً مثيراً للاهتمام أو جميلاً، وآلمها قوله إنه يأمل بأن تكتب قصيدة، وبدأت الدموع تترقرق في عينيها.

تذكّرت حادثة كانت قد نسيتها منذ زمن بعيد. فعندما كانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، كتبت أشعاراً كثيرة، لكنها أبقت ذلك سراً - خصوصاً عن أبيها الفظّ الذي كان ينتقدها دائماً والذي طُرد من برنامج التدريب كطبيب جراح قبل أن تولد لأنه كان مدمناً على الكحول، وعاش بقية حياته طبيباً محبطاً نصف سكير في بلدة صغيرة، وكانت عيادته في منزله، وكان يمضي مساء كلّ يوم أمام جهاز التلفزيون يحتسي ويسكي البوربون. ولم تتمكن قط من أن تجعله يبدي اهتماماً بها، ولم يعبّر لها قط، ولا مرة في حياتها، عن حبّه لها.

عندما كانت طفلة، كانت متلصّصة مدمنة. وفي أحد الأيام، بينما كان والدها يقوم بجولة منزلية على المرضى، راحت تفتش في أدراج طاولة مكتبه القابلة للطي المصنوعة من خشب الجوز، ووجدت، تحت كومة من تقارير المرضى، حزمة من رسائل حبّ اصفرّ لونها، بعضها من أمّها وبعضها الآخر من امرأة تدعى كريستين. وفوجئت عندما وجدت بعض قصائدها مكتوبة على أوراق بدت رطبة بشكل غريب مدفونة تحت الرسائل. استعادتها، وبدون تفكير، سرقت الرسائل التي أرسلتها كريستين لأبيها أيضاً. وبعد بضعة أيام، بعد ظهر يوم خريفي ملبد بالغيوم، دفنتها مع قصائدها في وسط كومة من أوراق شجرة جميز جافة وأشعلت فيها عود ثقاب. وجلست طوال فترة بعد الظهر تراقب الريح وهي تنفذّ إرادتها مع رماد قصائدها.

ومنذ ذلك الحين، هبط ستار كثيف من الصمت بينها وبين أبيها لا يمكن اختراقه. ولم يعترف قط بأنه انتهك خصوصيتها، ولم تعترف قط بأنها انتهكت خصوصيته. ولم يذكر لها قط الرسائل المفقودة، ولم تتحدّث هي قط عن قصائدها المفقودة. ومع أنها لم تكتب قصيدة أخرى بعد ذلك، بدأت تتساءل منذ ذلك الحين لماذا احتفظ بصفحات قصائدها تلك ولماذا كانت رطبة. وفي أحلام يقظتها، كانت تتخيّل أباها يقرأ قصائدها أحياناً ويذرف الدموع فوق جمالها. ومنذ بضع سنوات، اتصلت بها أمها بالهاتف وأخبرتها أن والدها أصيب بسكتة دماغية حادة. ومع أنها

هرعت إلى المطار واستقلّت الطائرة التالية إلى بلدتها، لكن عندما وصلت إلى المستشفى، وجدت غرفته فارغة، والمرتبة مغطاة بغطاء بلاستيكي شفاف. كان الممرضون قد نقلوا جثمانه.

عندما التقت بالدكتور لاش لأول مرة، أُخذت بطاولة مكتبه العتيقة القابلة للطي التي تشبه طاولة أبيها، وكانت تجد نفسها تحدق فيها كثيراً خلال فترات صمتها الطويلة. لم تخبر الدكتور لاش شيئاً عن طاولة المكتب وعن أسرارها، أو عن قصائدها، أو عن الصمت الطويل الذي ساد بينها وبين أبيها.

ولم ينم إرنست جيداً أيضاً في تلك الليلة، فلم يتوقف عقله عن مراجعة ما سيقوله عن ميرنا لفريق الحلقة الدراسية التي اجتمعت منذ بضعة أيام في عيادة أحد أعضاء المجموعة في شارع كوتش رو، الذي يُعرف باسم شارع ساكرامنتو أبر. وبدأت الجلسات دون أن يرأسها أحد، لكن عندما بدأت المناقشات تزداد حدّة وتحوّلت إلى تهديد شخصي، قرروا أن يعينّوا الدكتور فريتز فيرنر، المحلل النفسي المتقدّم في العمر الذي قدّم مساهمات هامة في أدبيات التحليل النفسي حول « الانتقال المقابل»، وقد أثارت القصة التي حكاها إرنست عن ميرنا نقاشاً محتدماً. ومع أن أعضاء المجموعة أثنوا عليه لجرأته في البوح عن نفسه بكل هذه الصراحة، انتقد الدكتور فيرنر طريقة العلاج التي يتبعها بشدة، خصوصاً التعليق المتعلق بالقميص.

«لماذا أنت ضيق الصدر؟» سأله الدكتور فيرنر وهو ينظّف غليونه، ثم حشاه بتبغ البلقان سوبراني ذي الرائحة النفاذة، وأشعله. عندما دُعي لأول مرة، اشترط بأنه سيدّخن غليونه أثناء الجلسات.

«إذاً، إنها تكرر نفسها؟» تابع قائلاً، «إذاً، فهي تتأفف كثيراً؟ إذاً، هي تطلب منك طلبات مستحيلة؟ إذاً، إنها تنتقدك ولا تتصرّف كمريضة جيدة وممتنة؟ يا إلهي، أيها الشاب، لم ترها إلّا منذ أربعة شهور. ما هذا - ما مجموعه خمس عشرة أو ست عشرة جلسة؟ لماذا، فأنا أرى حالياً مريضة ظلت تكرر نفسها طوال السنة الأولى كلها - أي أربع مرات في الأسبوع، مئتا ساعة - تكرر دائماً نفس النواح والرثاء، نفس الشوق لآباء مختلفين، وأصدقاء مختلفين، ووجه مختلف، وجسد مختلف - نفس الشوق الذي لا ينتهي. وفي النهاية، ملّت من الاستماع إلى نفسها، سئمت من تكرار نفسها. وأدركت أنها لم تكن تضيّع وقت جلسات التحليل فقط، وإنما تهدر حياتها كلها أيضاً. لا يمكنك أن تُلقي الحقيقة في وجه مريضك: فالحقيقة الوحيدة هي الحقيقة التي نكتشفها بأنفسنا.

ثم أضاف بحزم: «الاهتمام المعلّق بشكل متساوٍ*، أيها الشاب. هذا ما يجب أن تقدّمه للمريضة. الاهتمام المعلّق

(*) استماع الطبيب المعالج إلى المريض بعيداً عن الافتراضات النظرية والأهداف العلاجية.

بشكل متساوٍ، كلمات صحيحة الآن كما كانت صحيحة عندما قالها فرويد لأول مرة. هذا هو المطلوب منا - أن نستمع إلى كلمات المريض بدون صياغة مسبقة، وبدون تحيّز، وبدون ردود أفعال شخصية تحدّ من رؤيتنا. إنها قلب وروح المشروع التحليلي برمته. إذا أزلت ذلك فإن العملية ستُفلس بكاملها».

في تلك اللحظة، انفجر الاجتماع، وبدأوا جميعهم يتكلمون في وقت واحد. فقد كان انتقاد الدكتور ويرنر لإرنست بمثابة مانع صواعق جذب إليه التوتر الذي يتراكم منذ أشهر. فقد غضب المشاركون الذين كانوا متحمسين لتحسين مهاراتهم، مما اعتبروه نخبوية متعجرفة من مستشارهم العجوز. فهم الجنود الذين يكسوهم الوحل ويتناثر فوقهم الخراء والذين يعملون في الخنادق. ففي كل يوم يواجهون الظروف السريرية التي تفرضها شركات التأمين، وغضبوا من لامبالاة الدكتور فيرنر الشديدة الوضوح تجاه حقائق ممارستهم، أحد أولئك المحظوظين الذين لم تمسهم كارثة إدارة الرعاية الصحية، والذي لم يكن يقبل التأمين الصحي لدى مرضاه، ولا يرى إلّا المرضى الأثرياء أربع مرات في الأسبوع، وبإمكانه أن يدير جلسات العلاج بتأن وبطء شديد حتى تضعف مقاومة المريض. وغضب أعضاء المجموعة من تمسكه الصارم بخط التحليل النفسي المتشدد، بالإضافة إلى يقينه وعجرفته، وقبوله المطلق للعقيدة التي كرستها المؤسسة التي يرفضونها أيضاً بالمرارة والحسد الذي

ينتاب المتشككين القلقين دائماً تجاه المؤمنين المبتهجين.

«كيف يمكنك أن تقول إن إرنست رآها أربع عشرة جلسة فقط؟» سأله أحدهم، «فأنا محظوظ لأن شركة التأمين سمحت لي بثماني زيارات. وإذا تمكنت فقط من إقناع مريضي بإحدى الكلمات السحرية التالية: الانتحار، أو الانتقام، أو الحرق العمد، أو القتل - ستتاح لي الفرصة لأن أستجدي بضع جلسات إضافية من موظف غير مدرّب سريرياً تنحصر وظيفته في رفض أكبر عدد من هذه الطلبات».

وقال آخر: «لست متأكداً مثلك يا دكتور فيرنر من أن إرنست ارتكب خطأً. ربما لم تكن مسألة القميص خطأً فادحاً. ربما كان ذلك ما تحتاج إلى أن تسمعه هذه المريضة. لقد تحدثنا هنا بأن ساعة العلاج هي صورة مصغرة عن حياة المريضة. فإذا جعلت إرنست يشعر بالملل والإحباط، فلا بد أنها تفعل ذلك مع أي شخص آخر. ربما قدّم لها معروفاً عندما قال لها ذلك. ربما لا توجد لديه مئتا ساعة حتى ينفد صبرها من نفسها».

وقال آخر: «في بعض الأحيان، يكون هذا الإجراء التحليلي الدقيق كثيراً جداً يا دكتور فيرنر، ثميناً جداً، وبعيداً جداً عن الواقع. إن سلوك المريض التعاطفي اللاوعي يثير مشاعر المعالج دائماً- أنا لست مقتنعاً بذلك. بشكل عام يكون مرضاي في أزمة. يأتون مرة واحدة في الأسبوع، لا أربع مرات في الأسبوع مثل مرضاك، إذ تكاد أمورهم

الحياتية الخاصة تخنقهم، لا يستطيعون أن يتكيفوا مع الفروق الدقيقة لمزاجي. يثير هذا اللاوعي مشاعر المعالج - لا يوجد لدى مرضاي الوقت، ولا توجد لديهم الرغبة».

لم يستطع الدكتور فيرنر ترك هذه الملاحظة تمرّ هكذا، فقال: «أعرف أن هذه الحلقة حول موضوع الانتقال المقابل، وليس حول تقنية العلاج، لكن لا يمكنكم الفصل بينهما. لا يهم إن كانت جلسة واحدة أم سبع جلسات في الأسبوع. لا يهم إن كانت ممارسة الانتقال المقابل تؤثر على العلاج دائماً. فعلى مستوى معين، تنتقل مشاعر المعالج عن المريض .لم أرها تفشل قط» قال وهو يلوّح بغليونه لتأكيد كلماته، «ولذلك يجب أن نفهم، وأن نعمل، ونقلل من استجاباتنا العصبية تجاه المرضى».

«لكن هنا» تابع الدكتور ويرنر، «في هذا المثال عن القميص، فإننا لا نأخذ في الاعتبار حتى الفروق الدقيقة. إننا لا نتعامل مع تصورات المريضة الدقيقة نحو مشاعر المعالج. لقد أهان الدكتور لاش المريضة علناً - لا حاجة للتخمين الدقيق هنا. ولا يمكنني أن أتنصّل من مسؤوليتي وأصف ذلك بأنه خطأ علاجي فادح، وهو خطأ يهدد أسس التحالف العلاجي. لا تدع روح كاليفورنيا المتمثّلة في أن «كلّ شيء يمرّ، كلّ شيء مباح» يلوّث علاجك. فلا تنسجم الفوضى والعلاج بشكل متبادل. ما هي خطوتك الأولى في العلاج؟ عليك أن تضع إطاراً آمناً. كيف بحق السماء يمكن لمريضة الدكتور لاش، بعد هذه الحادثة، أن تتواصل معه بحرية؟

كيف يمكنها أن تثق بالمعالج بأنه سيأخذ كلماتها باهتمام معلّق بشكل متساوٍ؟

«هل الاهتمام المعلّق بشكل متساوٍ ممكن لأي معالج؟» سأل رون، المعالج ذو اللحية الكثيفة الطويلة، وأحد أصدقاء إرنست المقربين. وقد ارتبط أحدهما بالآخر منذ أن كانا في كلية الطب لإيمانهما بتحطيم الأيقونات والمعتقدات التقليدية. «لا يتعلق الأمر بفرويد. انظر إلى حالاته: دورا، الرجل الجرذ، هانز الصغير. كان يدخل دائماً إلى حياة مرضاه. لا أعتقد أن الحفاظ على موقف حيادي ممكن إنسانياً. هذا ما يتناوله كتاب دونالد سبنس الجديد. لن تفهم أبداً تجربة المريض الحقيقية».

فقال الدكتور ويرنر: «لا يعني هذا أن تتخلّى عن محاولة الاستماع من دون أن تدع مشاعرك الشخصية تلوّث المشهد»، وأضاف، «كلما كنت حيادياً أكثر، اقتربت أكثر من المعنى الأصلي للمريض».

فردّ رون: «المعنى الأصلي؟ إن اكتشاف المعنى الأصلي لشخص آخر وهم. انظر إلى مسار الاتصال المتسرّب. أولاً، تتحول بعض مشاعر المرضى إلى صور خاصة عنهم ثم تنتقل إلى مفرداتهم المفضّلة...»

فسأله الدكتور فيرنر: «لماذا تقول 'بعض'؟»

«لأن الكثير من مشاعرهم عصية على الوصف. لكن دعني أُنهي كلامي. كنت أتحدّث عن المرضى الذين يحوّلون

الصور إلى كلمات: حتى هذه العملية ليست نقية - إذ إن اختيار الكلمات يتأثر بقوة بالعلاقة المتخيلة بين الفرد والشخص الذي يستمع إليه. وهذا ليس إلّا الجزء المرسل. ثم يجب أن يحدث العكس: فإذا أراد المعالجون أن يفهموا معنى كلمات المرضى، عليهم أن يعيدوا ترجمة الكلمات إلى صورهم هم، ثم يحولونها إلى مشاعرهم. وفي نهاية العملية، ما هو نوع التطابق الممكن؟ ما هي فرصة أن يتمكّن أحد من فهم تجربة الآخر فهماً حقيقياً؟ أو بعبارة أخرى، أن يسمع شخصان مختلفان شخصاً آخر بنفس الطريقة؟»

فقاطعه إرنست وقال: «إنها مثل لعبة الكلمات 'الهاتف' التي كنا نلعبها عندما كنا صغاراً. إذ يهمس أحدهم عبارة في أذن شخص آخر، ويهمس هذا الشخص في أذن شخص آخر، وهكذا دواليك حتى تكتمل الدائرة. وعندما تعود العبارة إلى الشخص التي أرسلها في الأصل، لا يكون لها علاقة بالعبارة الأصلية».

«هذا يعني أن الاستماع ليس تسجيلاً»، قال رون، مركزاً بقوة على كلّ كلمة ينطقها، «الاستماع عملية إبداعية، لذلك فإن الادّعاء التحليلي بأن التحليل النفسي هو علم يثير حنقي دائماً. فلا يمكن أن يكون علماً، لأن العلم يتطلب قياساً دقيقاً للبيانات الخارجية الموثوقة. وهذا غير ممكن في العلاج النفسي، لأن الاستماع شيء إبداعي - وعقل المعالج يُحرِّف المعنى عندما يقيسه».

فقال إرنست مبتهجاً: «نعرف أننا جميعنا نخطئ، إلّا إذا كنا أغبياء بما يكفي لنؤمن بالإدراك النقي الذي لا تشوبه شائبة». فمنذ أن قرأ هذه العبارة في مكان ما منذ بضعة أسابيع، كان متشوقاً لأن يستخدمها في حديثه.

لم يكن الدكتور فيرنر الذي لا يتراجع أبداً في أي جدال منزعجاً من وابل أسئلة طلابه، وأجاب بثقة: «لا يعميكم الهدف الزائف المتمثل في الهوية المطلقة بين أفكار المتحدّث وتصورات المستمع. إن أفضل ما يمكننا أن نأمله هو التقريب»، ثم سأل: «لكن أخبروني، هل يوجد أحد هنا، حتى الثنائي المتمردّين»، وأمأ برأسه نحو رون وإرنست، «يشكّ في أن الفرد المندمج جيداً يُرجَّح أن يفهم بدقة نية المتحدّث أكثر من، لنقل، فرد مصاب بالبارانويا يقرأ دلائل وجود خطر شخصي في كل تواصل؟ أنا شخصياً أعتقد أننا نقلل من قدر أنفسنا بهذا الرثاء واللطم على صدورنا لعدم قدرتنا على معرفة الآخر تماماً أو إعادة تشكيل ماضي الآخر. لقد قادك هذا التواضع يا دكتور لاش إلى ممارسة مريبة تتمثل في التركيز بالكامل على الآن وهنا».

«كيف ذلك؟» سأله إرنست ببرود.

«لأنك، من بين جميع المشاركين، أكثرهم تشككاً وريبة حول التذكّر الدقيق وعملية إعادة بناء ماضي المريضة بكامله. وأرى أنك تحمل الأمر إلى درجة تربك مريضتك. نعم، لا شك في أن الماضي مراوغ ومضلل ولا ريب أنه

يتغيّر وفق مزاج المريض، ومما لا شك فيه أن معتقداتنا النظرية تؤثّر على ما يتذكّره المرء، لكنّي ما زلت أعتقد أنه يوجد تحت كل ذلك معنى مبطّناً صحيحاً، إجابة حقيقية على السؤال: «هل ضربني أخي عندما كنت في الثالثة من عمري؟»

فردّ إرنست: «إن المعنى المبطّن الصحيح وهم قديم، فلا توجد إجابة صحيحة على هذا السؤال. لأن سياقه - سواء ضربك عمداً أم على سبيل المزاح أم ربّت عليك أم وجه إليك لكمة قاضية - يضيع إلى الأبد».

«صحيح»، قاطعه رون، «أم هل ضربك دفاعاً عن النفس، أم رداً على ضربك له قبل لحظة؟ أم دفاعاً عن أختك؟ أم لأن أمك عاقبته منذ قليل على شيء فعلته أنت؟»

وكرر إرنست: «لا يوجد معنى مبطّن صحيح. إن ذلك ما هو إلّا تفسير، كما عرفه نيتشه منذ قرن».

«ألسنا ننحرف عن هدف هذه الجلسة؟» قاطعت باربرا، إحدى المرأتين الأعضاء في المجموعة، «فعندما نظرتُ آخر مرة كان عنوان الحلقة الانتقال المقابل»، والتفتت إلى الدكتور فيرنر، وأضافت، «أود أن أدلي بتعليق حول هذه العملية. إذ يفعل إرنست كما يفترض أن نفعله تماماً في هذه الحلقة الدراسية - نقل مشاعره العميقة تجاه مريضته - ثم يُنتقد لأنه فعل ذلك. كيف ذلك؟»

«صحيح، صحيح»، قال الدكتور ويرنر، وقد أظهر

البريق في عينيه الزرقاوين أنه يستمتع بهذه المناقشة، مشهد الأشقاء البالغين الذين أوقفوا تنافسهم واتحدّوا في حملة مشتركة لقتل الأب. في حقيقة الأمر، لقد أحبّ ذلك. بالله، قال لنفسه، تخيّل فقط. مجموعة فرويد البدائية حية وهائجة هنا في شارع سكرامنتو! فكّر للحظة أن يقدّم هذا التفسير للمجموعة، لكنّه فكّر ملياً، وقال لنفسه إن الأطفال ليسوا مستعدين لذلك بعد. ربما في وقت لاحق.

فأجابها: «لكن ضعي في اعتبارك أنني لم أكن أنتقد مشاعر الدكتور لاش تجاه السيدة ميرنا. فمن هو ذاك المعالج على وجه الأرض الذي لم تنتابه أفكار حول مريض مزعج؟ لا، فأنا لا أنتقد فكرته، وإنما أنتقد فقط عدم قدرته على الاحتفاظ بمشاعره لنفسه».

أثار ذلك جولة أخرى من الاحتجاجات. فدافع بعضهم عن قرار إرنست في التعبير عن مشاعره علناً، وانتقد آخرون الدكتور فيرنر لأنه لم يتمكن من بناء بيئة من الثقة في الحلقة. فقد كانوا يريدون أن يشعروا بالأمان فيها. ومن المؤكد أنهم لم يرغبوا في تجنب الانتقادات حول أسلوبهم العلاجي، لاسيما عندما يستند النقد إلى نهج تحليلي تقليدي غير مناسب لبيئتهم السريرية الحالية.

ثم أشار إرنست أخيراً إلى أن المناقشة لم تعد مثمرة وحثّ المجموعة على العودة إلى موضوع «الانتقال المقابل». ثم تحدّث بعض الأعضاء عن مرضى مشابهين استنزفوا

قدراتهم وأصابوهم بالملل، لكن تعليق باربرا أثار اهتمام إرنست.

فقالت: «هذه ليست مثل أي مريض مقاوم آخر. إنك تقول إنها تتعامل معك كما لم يتعامل معك أحد آخر، وأنك لم تبدِ عدم احترام تجاه أي مريض قبل الآن».

فأجاب إرنست: «هذا صحيح، ولست متأكداً ما هو السبب»، وأضاف، «أشياء عديدة فيها تثير حنقي. إذ يثير غضبي تذكيرها الدائم بالمبلغ الذي تدفعه لي. إنها تحاول دائماً أن تحوّل العلاج إلى صفقة تجارية».

«أليست صفقة تجارية؟» قاطعه الدكتور فيرنر، «منذ متى؟ إنك تقدّم لها خدمة، وهي تقدّم لك شيكاً مقابل ذلك. تبدو لي أنها صفقة تجارية».

فقال إرنست: «حسناً، إن دفع ضريبة العشور التي يدفعها أبناء الرعية لا يجعل خدمة الكنيسة عملاً تجارياً».

«أوه، نعم، إنها كذلك»، أصرّ الدكتور فيرنر، «لكن الظروف هنا أكثر تهذيباً ومخفيّة. اقرأ العبارة اللطيفة المكتوبة بحروف صغيرة جداً في نهاية كتاب الصلاة في الكنيسة: لا عشور، لا صلاة».

فقال إرنست: «اختزال تحليلي نموذجي. كلّ شيء يُختزل إلى أدنى مستوى. أنا لا أقبل ذلك. فالعلاج ليس تجارة، وأنا لست تاجراً. وهذا ليس سبب وجودي في هذه

المهنة. لو كانت النقود هي هدفي الأول، لكنت قد اتجهت إلى مجال آخر كالمحاماة، أو الاستثمار المصرفي، أو حتى إلى أحد الاختصاصات الطبية الغنية مثل طب العيون أو الأشعة. إني أرى العلاج النفسي شيئاً آخر، اسميّه فعل محبّة. لقد جندّتُ نفسي لحياة من الخدمة، تصادف أنني أتقاضى أيضاً أجراً مقابل ذلك، أما هذه المريضة فهي تظلّ تصفعني على وجهي بالنقود».

«إنك تعطي وتعطي»، قال الدكتور فيرنر بصوته الجهوري الأكثر مهنية الذي بدا أنه بدأ يلين، «لكنها لا تعطي شيئا في المقابل».

فهزّ إرنست رأسه، وقال: «صحيح. إنها لا تعطي شيئاً في المقابل».

فكرر الدكتور فيرنر، «إنك تعطي وتعطي. إنك تعطيها أفضل ما يوجد لديك، وهي لا تكّف عن القول: أعطني شيئاً مفيداً».

فقال إرنست بمزيد من الهدوء: «هذا ما أفعله تماماً».

دار هذا الحديث بسلاسة كبيرة إلى درجة أن أحداً من أعضاء المجموعة، وربما حتى الدكتور فيرنر نفسه، لم يدرك تحوّله إلى صوته المهني المغري - أو كما بدت حماسة إرنست للاستكانة في دفء العلاج المريح.

قالت باربرا: «قلت إن فيها شيئاً من أمك».

«لم أحصل منها على أشياء جيدة كثيرة».

«هل يؤثر شبحها على مشاعرك تجاه ميرنا؟»

«كان الأمر مختلفاً مع أمي. فقد كنت أبتعد عنها. كنت أشعر بالحرج منها. لم أكن أحبّ أن أفكر بأنها هي التي أنجبتني. عندما كنت صغيراً - ربما في الثامنة أو التاسعة من عمري - كنت أشعر بالاختناق عندما كانت أمي تقترب مني كثيراً. أذكر أنني قلت للمحلل النفساني إن أمّي كانت 'تمتص كلّ الأكسجين الموجود في الغرفة'، وأصبحت هذه العبارة شعاراً، فكرة رئيسية في تحليلي: فقد دأب محللي على تكرارها مرات ومرات. كنت أنظر إلى أمّي وأقول في نفسي، يجب أن أحبّها لأنها أمّي، لكن لو كانت غريبة فإني سأكره كلّ شيء فيها».

فقال الدكتور فيرنر: «إذاً، أصبحنا نعرف الآن شيئاً مهماً عن 'الانتقال المقابل' المتعلق بك. فعلى الرغم من أنك تدعو مريضتك لأن تقترب منك، فإنك ترسل لها في الوقت نفسه رسالة بدون قصد منك 'بألّا تقترب كثيراً.' لأنها ستتطفل عليك كثيراً، وتمتص كلّ الأكسجين. ومما لا شك فيه، فهي تدرك الرسالة الثانية هذه وتستوعبك. مرة أخرى، دعوني أكرر، لا يمكننا أن نخفي هذه المشاعر عن المرضى. سأقولها مرة أخرى: لا يمكننا أن نخفي هذه المشاعر عن المرضى. هذا هو درس اليوم. لا يمكنني أن أؤكد على هذه النقطة بقوة أكثر. لا يمكن لأي معالج يتمتع بخبرة أن يشكّ بوجود تعاطف لاواعي».

ثم قالت باربرا: «يوجد أيضاً كثير من التناقض في مشاعرك الجنسية تجاهها. لقد فوجئتُ ببردة فعلك تجاه ثدييها - شوق واشمئزاز في الوقت نفسه - تحبّ أن ترى أزرار بلوزتها تتفجر، ومع ذلك فإنها تثير في نفسك ذكريات غير مستحبة عن أمك».

«نعم»، أضاف توم، صديق آخر من أصدقاء إرنست المقربين، «ثم تخجل من نفسك، وتبدأ تتساءل إن كنت تحدّق في ثدييها من دون أن تشعر. يحدث لي ذلك أحياناً».

«وقد اقترن انجذابك الجنسي لها بالرغبة في الابتعاد عنها؟ ما رأيك في ذلك؟» سألته باربرا.

فأجاب إرنست: «لا شك أنه يوجد في مخيّلتي مهبل بدائي مسنن قاتم، لكن ما يزال هناك شيء في هذه المريضة يثير الخوف في نفسي».

قبل أن يخلد إلى النوم، تساءل إرنست مرة أخرى عما إذا كان عليه أن يتوقف عن رؤية ميرنا، وقال لنفسه، ربما تحتاج إلى معالجة نفسية أنثى. قد تكون مشاعري السلبية عميقة جداً، وراسخة جداً. لكن عندما أثار هذا السؤال في المجموعة الدراسية، قال له الجميع، بمن فيهم الدكتور فيرنر: «لا، تابع عملك معها»، وقد شعروا أن مشاكل ميرنا الرئيسية هي مع الرجال ومن الأفضل أن يعالجها معالج ذكر. يا للأسف قال إرنست لنفسه: كان يريد أن يتركها فعلاً.

ثم تساءل، وماذا عن تلك الجلسة الغريبة اليوم؟ مع أن

ميرنا كانت بغيضة كما هي دائماً في معظم النواحي، بما في ذلك إشارتها إلى أتعابه، فقد اعترفت ميرنا على الأقل بوجوده في الغرفة. فقد تحدّته، وسألته إن كان معجباً بها، ووبختّه على تعليقه الساخر حول القميص. إنه شيء مرهق، لكن على الأقل، حدث شيء مختلف، شيء حقيقي.

في طريقها إلى الجلسة التالية، استمعت ميرنا مرة أخرى إلى كلمات الدكتور لاش البغيضة في الشريط، ثم استمعت إلى شريط الجلسة الأخيرة. ليس سيئاً، قالت لنفسها - وأحبّت الطريقة التي تصرّفت بها في الجلسة الأخيرة. استمتعت بأنها جعلت ذلك الحقير يعمل لقاء نقوده. يا له من شيء رائع أنه كان حانقاً من انتقاداتها اللاذعة بشأن أتعابه: وقالت لنفسها إنها ستظل تذكّره بالنقود في كلّ جلسة. ما يزال الطريق طويلاً.

بدأت ميرنا الجلسة بالقول: «البارحة في العمل، كنت جالسة في دورة المياه وسمعت بعض الفتيات عند المغسلة يتحدّثن عني».

«أوه؟ ماذا سمعت؟» كان إرنست يحبّ دائماً دراما سماع آخرين يتحدثون عنه.

«أشياء لم تعجبني. قلن إنني مهووسة بكسب المال. وأنني لا أتحدّث عن شيء آخر، ولا توجد لديَّ اهتمامات أخرى. وأنني مملة ومن الصعب أن أكون مع أحد».

«أوه، هذا فظيع. يا له من شيء مؤلم».

«نعم، شعرت بخيانة شخص كنت أظن أنه يهتم بي. شعرت بأن ركلة وجهت إلى بطني».

«خيانة؟ ما نوع العلاقة بينكن؟»

«حسناً، كنَّ يتظاهرن بأنهن يحببنني، ويبدين اهتماماً بي، وأنهن صديقاتي».

«وماذا عن الآخرين معك في المكتب؟ كيف يشعرون تجاهك؟»

«إن كنت لا تمانع يا دكتور لاش، فقد كنت أفكّر بمَ كنت تقوله بشأن البقاء هنا في هذا المكتب. كما تعرف، التركيز على علاقتنا. أريد أن أحاول ذلك».

«تماماً»، لاحت نظرة مليئة بالدهشة على وجه إرنست. لم يصدّق أذنيه.

«دعني أسألك»، قالت ميرنا وهي تلّف رجلاً على رجل مُصدرة صوت حفيف جواربها، «هل تشعر بهذه الطريقة تجاهي؟»

«أي طريقة؟» سأل إرنست متفاجئاً.

«ما قلته الآن. هل تجدني ضيّقة الأفق؟ مملّة؟ رفقتي صعبة؟»

«لا أشعر أبداً بأي طريقة تجاهك أو تجاه أحد. الأمر يختلف».

«حسناً، لنقل بشكل عام»، قالت ميرنا التي كان من الواضح أن شيئاً لن يردعها.

أحسّ إرنست أن فمه أصبح جافاً. حاول أن يبتلع ريقه خلسة، وقال: «حسناً، دعيني أصيغها بهذه الطريقة. عندما تتجنبينني، عندما تتحدثين وتكررين أشياء معينة - مثل خيارات الأسهم الخاصة بك، أو خلافك الدائم مع مديرك في العمل - عندها أشعر بأن تواصلي معك أصبح أقل .أقل تفاعلاً هو المصطلح الأفضل».

«أقل تفاعلاً؟ أليست هذه عبارة مختصرة لكلمة مملة؟»

«آه، لا، أقصد أن كونك مملة في المواقف الاجتماعية لا علاقة لها بحالة العلاج. فالمريض - أقصد أنتِ - لا تأتي إلى هنا لتسليني. إني أركّز على الطريقة التي يتفاعل فيها مريضي معي ومع الآخرين لكي...»

فقاطعته وقالت: «لكن من المؤكد أنك تجد بعض المرضى مملين».

«حسناً»، قال إرنست وسحب منديلاً ورقياً من العلبة الموجودة على المنضدة الجانبية، وعصرها بين راحتيه، «إني أفحص مشاعري طوال الوقت، وإذا كنت... آه... أقل تفاعلاً...»

«تشعر بالملل، تقصد؟»

«بطريقة ما. فإذا شعرت... أنني بعيد عن المريض، فإني

لا أرى ذلك حكماً، وإنما أرى ذلك أنها معطيات، وأحاول أن أعرف ما الذي يحدث بيننا».

لم تفلت محاولة إرنست لتجفيف كفيه من انتباه ميرنا. جيد، قالت لنفسها. ساعة تعرّق بـ 150 دولاراً. «واليوم؟ هل تشعر أنني مملّة اليوم؟»

«الآن؟ يمكنني أن أقول بكل تأكيد إنك لست مملّة أو يصعب التواجد معك اليوم. أشعر بالمشاركة. أشعر بشيء من التهديد. أحاول أن أبقى منفتحاً لا دفاعياً. قولي لي الآن، كيف تشعرين».

«أشعر بأنني على ما يرام اليوم».

«على ما يرام؟ هل يمكنك أن تكوني أكثر غموضاً؟»

«ماذا؟»

«آسف يا ميرنا. محاولة سيئة لممازحتك. أحاول أن أقول إنني أشعر بأنك مراوغة ولا تبوحين بمَ تشعرين».

عندما انتهت فترة الجلسة ونهضت لتغادر، قالت ميرنا: «يمكنني أن أخبرك شيئاً آخر أشعر به».

«نعم؟»

«أنا قلقة بعض الشيء لأنني أضغط عليك كثيراً. أجعلك تعمل كثيراً».

«وماذا في ذلك؟ ما الضير في أن أعمل كثيراً؟»

«لا أريد أن ترفع المبلغ».

«أراكِ الأسبوع المقبل يا ميرنا».

أمضى إرنست ذلك المساء في القراءة لكنه كان مرهقاً، مشغول البال. ومع أنه رأى ثمانية مرضى في ذلك اليوم، فقد أمضى وقتاً في التفكير في ميرنا أطول من المرضى السبعة مجتمعين.

في ذلك المساء، شعرت ميرنا بأنها مفعمة بكل طاقتها. وبعد أن تصفّحت مواقع خدمات المواعدة على الإنترنت، تسللت إلى غرف الدردشة المخصصة للعزّاب، هاتفت أختها التي لم تكلّمها منذ بضعة أشهر ودار بينهما حديث طويل ومرضٍ.

عندما غطّت ميرنا في النوم أخيراً، حلمت بأنها تحمل حقيبة وتحدّق من النافذة. ثم جاءت سيارة أجرة غريبة - سيارة أجرة مرحة تتقافز مثل أفلام الكرتون، وكُتب على بابها «شركة تاكسي فرويد (Freud)». وبعد لحظات، تغيّرت الحروف وأصبحت «شركة تاكسي الاحتيال (Fraud)».

على الرغم من مشاعرها المكلومة وعدم ثقتها بإرنست، أصبح العلاج مثيراً للاهتمام أكثر بالنسبة لميرنا، حتى أنها أصبحت تجد نفسها تترقب الجلسة التالية عندما تكون في عملها.

قالت لنفسها لقد نجحت الحيلة بأنها سمعت حديثاً

يدور عنها في دورة المياه وقررت أن تستمر في اختلاق حيل تمكّنها من استخدام بعض الكلام الذي سمعته في الشريط الذي يسجّله في كل جلسة. وفي الأسبوع القادم، سيكون الموضوع حول «التأفف والتذمّر».

«قالت لي أختي ذات يوم على الهاتف»، قالت له بشكل مراوغ، «إن والديَّ كانا يدعوانني عندما كنت صغيرة 'الآنسة متذمّرة.' وقد أثّر عليَّ ذلك بشكل ما. قلتَ إنني يجب أن أحاول أن أستخدم هذا المكان الآمن في مكتبك هنا لاستكشف أشياء لا يمكنني أن أتحدّث عنها في أي مكان آخر».

هزّ إرنست رأسه بقوة.

«لذلك كنت أتساءل إن كنت ترى أنني أتذمّر كثيراً».

«ماذا تقصدين بقولك 'أتذمّر' يا ميرنا؟»

«حسناً، كما تعرف - أشتكي، أتحدّث بصوت متذمّر، أتكلّم بطريقة تجعل الناس يريدون الابتعاد عني. هل أنا كذلك؟»

«ما رأيكِ أنتِ يا ميرنا؟»

«لا أظن ذلك. ما رأيك أنت؟»

لم يكن بوسع إرنست أن يماطل إلى ما لا نهاية، أو أن يكذب، أو أن يقول الحقيقة. «إذا كنتِ تقصدين بكلمة 'أتذمّر' أنكِ تميلين إلى الشكوى من موقفك بشكل متكرر وبشكل غير منتج، إذاً، نعم، لقد سمعتك تفعلين ذلك».

«أرجو أن تعطيني مثالاً على ذلك».

بعد أن قرر أنه حان الوقت ليعلّق على ذلك، قال إرنست: «أعدك بأن أجيب على ذلك، لكن دعيني أقول شيئاً أولاً يا ميرنا. فقد فوجئت بالتغيير الذي طرأ عليك في الأسابيع الماضية. لقد حدث ذلك بسرعة كبيرة. هل تدركين ذلك؟»

«تغيير كيف؟»

«كيف؟ في كلّ شيء تقريباً. انظري إلى ما تفعلينه، فقد أصبحتِ صريحة ومركّزة ومتحدّية. كما تقولين، أصبحت تتركينه في الغرفة. إنك تتحدثين عما يجري بيننا».

«وهل هذا شيء جيد؟»

«هذا عظيم يا ميرنا. أنا مسرور لرؤية ذلك. لكي أكون صادقاً معك، مرّت أوقات في الماضي شعرت فيها أنك لا تكادين تلحظين وجودي معك في الغرفة. وعندما أقول إنه شيء عظيم، فأنا أقصد أنك تسيرين في الاتجاه الصحيح. لكنك لا تزالين تبدين - كيف يمكنني أن أقولها؟ أحادية الجانب إلى درجة كبيرة - حسناً، لاذعة، كما لو كنتِ غاضبة مني طوال الوقت. هل أنا مخطئ؟

«أنا لست غاضبة منك، أشعر فقط بالإحباط من حياتي كلّها. لكنك قلت إنك ستعطيني أمثلة على تذمّري».

هذه المرأة التي كانت بطيئة جداً تجاهه، أصبحت فجأة

سريعة جداً. كان على إرنست أن يركّز كلّ اهتمامه على حديثهما.

«ليس سريعاً جداً. فأنا لا أقتنع بهذه الكلمة يا ميرنا. أشعر أنك تحاولين أن توسميني بها بشكل متكرر، وسأعطيك مثالاً على ذلك: مشاعرك تجاه مديرك التنفيذي. كيف أنه غير كفؤ، وكيف أنه ينبغي أن يجعل الشركة أصغر حجماً، وكيف أنه يجب أن يطرد العمال غير الأكفاء، وكيف أن طيبته ستكلفك أموالا كبيرة في خيارات أسهمك - هذا ما أقصده. لقد ناقشتِ هذا الأمر مرات كثيرة، ساعة بعد ساعة. مثل تعليقاتك حول مشهد المواعدة، تعرفين ما الذي أقصده. فخلال تلك الساعات أصبحت أشعر أنني أقل تفاعلاً معك وأقل فائدة أيضاً».

«لكن هذه هي الأشياء التي تشغل بالي. إنك تطلب مني أن أشاركك بم أفكّر فيه».

«صحيح يا ميرنا. أعرف أنها معضلة، لكن ليس الأمر ما الذي تقولينه، وإنما كيف تقولينه. لكنّي لا أريد أن أستطرد وأبتعد عن فكرتي السابقة. إن مجرد حقيقة أننا نتحدّث بهذه الصراحة يدعم ما قلته منذ قليل - أنك تغيرتِ، وأصبحتِ أفضل وأكثر جدّية في العلاج».

«حان الوقت لنتوقف اليوم، لكن دعينا نحاول أن نواصل من هنا الأسبوع القادم. أوه، نعم، ها هي فاتورة الشهر الماضي».

«هممم»، همهمت ميرنا وقد رفعت ساقها عن ساقها الأخرى وحرصت على أن تُصدر حفيفاً قوياً، وتفحّصت الفاتورة التي أعطاها لها قبل أن تضعها في حقيبتها، «يا له من شيء مخيب للأمل».

«ماذا تقصدين؟»

«ما تزال الساعة بمائة وخمسين. ألا يوجد خصم لأنني أصبحت مريضة أفضل؟»

في الأسبوع التالي، بينما كانت ميرنا تستمع مرة أخرى إلى ما أملاه إرنست في الشريط وهي في طريقها لحضور جلسة العلاج، قررت أن توجّه دفة الحديث إلى تعليقاته حول مظهرها الجسدي وجاذبيتها الجنسية. لم يكن ذلك أمراً صعباً.

بدأت بالقول: «في الأسبوع الماضي، قلت إننا يجب أن نواصل من حيث توقفنا».

«حسناً. من أين نبدأ؟»

«في نهاية جلسة الأسبوع الماضي، كنت تتحدّث عن تذمّري من مشهد العزّاب...»

«مهلاً! تظلين تستشهدين بكلامي كما لو كنت أنا الذي قال إنك تتذمّرين. لم تكن هذه كلمتي أنا - أكرر، لم تكن كلمتي. قلت شيئاً عن تعليقاتك المُدَاوِرة أو المكررة».

بالطبع كانت ميرنا تعرف أكثر. فهو الذي استخدم كلمة

«تذمّر»: فقد سمعته يستخدمها في الشريط. لكنها متحمسة للمضي قدماً، تركت كذبته الصغيرة.

«كنت تقول إنك مللت من حديثي عن مشهد العزّاب. كيف يمكنني أن أتعامل معه إذا لم أتحدّث عنه؟»

«بالتأكيد يجب أن تتحدّثي عن المخاوف الرئيسية في حياتك. وكما قلت، الطريقة التي تتحدثين عنها».

«ماذا تقصد بـ «كيف»؟

«حسناً، لم يكن يبدو أنك تتحدثين إليّ. كنت أشعر بأنني خارج الدائرة. تكررين نفس الأشياء مرة بعد أخرى: النسبة غير العادلة، ومشهد سوق اللحوم، وإلقاء نظرة لا تتجاوز عشر ثوانٍ إلى حانات العزّاب، وعدم موضوعية مواقع خدمات الزواج على الإنترنت. وكلّما قلت ذلك، تقولينها كما لو أنك تقولينها لأول مرة، كما لو أنك لم تفكّري قط في أن تسألي نفسك إن كنتِ قد قلت ذلك من قبل أو كيف يمكن أن أعتبر تكرارك هذا مرات كثيرة».

صمت. أطرقت ميرنا رأسها وراحت تحدّق في الأرض.

«ما هو شعورك إزاء ما قلته؟»

«إني أفكّر فيه. يبدو مرّاً بعض الشيء. آسفة لأنني لم أكن متجاوبة أكثر».

«ميرنا، أنا لا أطلق حكماً عليك. من الجيد أن المشكلة قد أثيرت، ومن الجيد أنني أعطيتك رأيي. بهذه الطريقة نتعلم».

«من الصعب أن تفكّر في الآخرين عندما تشعر بأنك وقعت في فخ، تشعر أنك تدور في حلقة مفرغة».

«ستبقين في الحلقة المفرغة ما دمت تعتقدين أن الخطأ يقع دائماً على شخص آخر. مديرك التنفيذي غير الكفء مثلاً، أو أن مشهد موقع المواعدة أشبه بغابة، أو أن الذين يعملون في مجال التسويق حمقى. إني لا أقول إن هذه الأشياء غير صحيحة، وإنما أقول» - وضع إرنست كل ما لديه، مؤكداً على كل كلمة بقوة - «لا أستطيع أن أساعدك بها». الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أساعدك فيها على كسر الحلقة المفرغة هي أن تركزي على كل شيء في داخلك الذي قد يؤدي إلى بدء هذه الأحداث أو أن يفاقمها».

«عندما أذهب إلى تجمّع للعزّاب، أجد عشر نساء لكلّ رجل»، قالت ميرنا بتردد أكثر، وبدأ البخار ينبعث من كلماتها، «وتريد أن أركز على مسؤوليتي إزاء ذلك؟»

«انتظري. توقفي يا ميرنا. ها قد عدنا مرة أخرى إلى ذلك الحيّز. انصتي إليّ. اتفق معك - فالمواعدة ليست سهلة. اسمعيني: أتفق معك. لكن عملنا يكمن في مساعدتك على إحداث تغييرات في نفسك يمكنها أن تجعل حالتك أفضل. انظري، سأقولها بصراحة. إنك امرأة ذكية وجذابة، جذابة جداً. ولو لم تكوني مقيَّدة بمشاعر مزعجة - مثل الاستياء والغضب والخوف والمنافسة - فلن تجدي صعوبة في أن تلتقي برجل مناسب».

فوجئت ميرنا بصراحة الدكتور لاش، مع أنها كانت تعرف أنها يجب أن تبقى وتجيب على النقطة التي أثارها، فقد أصرت على مواصلة مخططها، وقالت: «لم تقل من قبل إنني جذابة».

«ألا تعتبرين نفسك جذابة؟»

«أحياناً نعم، وأحياناً لا. لكنّي لا أحصل على تأكيد كبير من الرجال. يمكنني أن أستفيد من بعض التعليقات المباشرة منك».

لبث إرنست صامتاً. ما الذي سيقوله؟ عارفاً أنه سيتعين عليه أن يكرر كلماته في الاجتماع المقبل مع المعالجين الآخرين الذي سيُعقد بعد بضعة أسابيع جعله يصمت قليلاً، ثم أضاف: «لديَّ إحساس بأنه إذا لم يكن الرجال يستجيبون لك، فإن ذلك ليس بسبب مظهرك الجسدي».

«لو كنت عازباً، هل كنت ستستجيب لمظهري الجسدي؟»

«نفس السؤال. لقد أجبت على ذلك للتو. قلت منذ دقيقة إنك امرأة جذابة. إذن، أخبريني، ما الذي تسألينه حقاً الآن؟»

«لا، لقد سألت سؤالاً مختلفاً. تقول إنني جذابة، لكنك لم تقل إن كنت ستستجيبَ لجاذبيتي أم لا».

«أستجيب؟»

«دكتور لاش، إنك تدور حول الموضوع. أظن أنك تعرف ما الذي أقصده. لو كنت قد التقيت بي لا كمريضة، وإنما في أحد لقاءات العزّاب، ماذا كنت ستفعل؟ هل ستتفحصني في عشر ثوانٍ وتبتعد؟ أم تغازلني، أو ربما تحاول أن تقيم معي علاقة عابرة لليلة واحدة، وتذهب بعد ذلك؟»

«هل يمكننا أن نلقي نظرة على ما جرى بيننا اليوم؟ إنك ترغمينني على أن أجيب على أسئلة صعبة. لماذا؟ ما الذي تسعين إليه؟ ما الذي يدور في خلدك يا ميرنا؟»

«لكن، ألا أفعل ما كنت قد قلت لي إنني يجب أن أفعله يا دكتور لاش؟ أن نتحدث عن علاقتنا، عن هنا والآن؟»

«أنا موافق. لا شك أن الأمور قد تغيّرت هنا - نحو الأفضل. أنا سعيد للطريقة التي نعمل بها، وآمل أن تكوني سعيدة أيضاً».

صمت. رفضت ميرنا أن تواجه نظرات إرنست.

«آمل أن تكوني سعيدة بذلك أيضاً»، قال إرنست مرة أخرى.

هزّت ميرنا رأسها هزّة خفيفة.

«أترين؟ إيماءتك، تلك الإيماءة المجهرية، تلك الإيماءة الجنينية! ثلاثة ملليمترات في أحسن الأحوال. هذا

ما أقصده. لا أكاد أراها. يبدو كما لو أنك تريدين أن تعطيني أقل قدر ممكن. هذا ما يحيّرني. يبدو لي أنك تسألين بشكل رئيسي، ولا تتحدثين، عن علاقتنا».

«لكنك قلت - وقلت ذلك أكثر من مرة - إن أول مرحلة في التغيير هي الحصول على تعليقات».

«الحصول على تعليقات واستيعابها. صحيح. لكن في الساعات القليلة الماضية، كنت تجمعين تعليقات - في صيغة سؤال وجواب. أقصد أجيبك، فتنتقلين إلى سؤال آخر».

«بدلاً من؟»

«بدلاً من أشياء كثيرة. على سبيل المثال، بدلاً من التوجّه إلى الداخل للنظر في معنى التعليقات ومناقشتها واستيعابها. كيف تبدو، سواء أكانت صحيحة أم لا، ما الذي أثارته في داخلك، كيف كنت تشعرين عندما قلت لك ذلك».

«حسناً، حسناً. لكي أكون صادقة معك، فقد فوجئت عندما سمعت أنك تراني جذابة. إنك لا تتصرف بهذه الطريقة تجاهي».

«أظن أنك جذابة، لكن هنا، في هذا المكتب، أنا مهتم أكثر بلقاء أعمق معك: مع جوهرك، مع - أعرف أن ذلك يبدو مبتذلاً - لكن مع روحك».

«ربما ينبغي ألّا ألحّ» - شعرت ميرنا بالطاقة تخرج من سؤالها - «لكن مظهري الجسدي مهم بالنسبة لي، وما زلت

أشعر بالفضول لأعرف كيف تراني - ما السمات التي تجذبك في مظهري؟ والسؤال الآخر ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أننا التقينا في أجواء اجتماعية وليست مهنية؟

إني أُصلب، همهم إرنست لنفسه. هذا أسوأ كابوس يحدث له حول «الآن وهنا». لقد استنفد كلّ خياراته. كان يخشى دائماً أن يُحاصر ذات يوم بهذه الطريقة. بالطبع، فإن المعالج النموذجي لن يجيب على هذا السؤال، لكنه سيعكسه ويعيده إليها ويستكشف كل الآثار التي تنطوي عليه: لماذا تسألين هذا السؤال؟ ولماذا الآن؟ وما هي التخيّلات الكامنة وراءه؟ كيف تريد أن أجيب؟

لكن لم يكن هذا الخيار متاحاً لإرنست. فبعد أن أرسى منهجه العلاجي على أساس المشاركة الحقيقية، لم يعد بمقدوره أن يتخلى عنه الآن ويعود إلى المنهج التقليدي. لا يوجد شيء يستطيع أن يفعله الآن إلّا أن يتمسّك بنزاهته، ويغوص في بركة الحقيقة الباردة.

«جسدياً، أنتِ جذابة بجميع الأوجه - وجهك جميل، شعرك لامع رائع، وقوامك رائع...»

«هل تقصد بقوامي ثدييَّ؟» قاطعته ميرنا، وقد قوّست ظهرها قليلاً.

«نعم، كل شيء - مشيتك - اعتناءك بجسدك - رشاقتك - كلّ شيء».

«يبدو أحياناً أنك تحدق في ثدييَّ - أو في أزرار بلوزتي». اعترت ميرنا مسحة من الشفقة، وأضافت: «رجال كثيرون يفعلون ذلك».

فقال إرنست: «إن كنتُ قد فعلتُ ذلك، فإني لم أدرك ذلك». كان مرتبكاً جداً إلى درجة أنه لم يتمكن من أن يفعل ما يعرف أنه يجب أن يفعله - أن يشجعها على أن تعبّر بعمق عن مشاعرها إزاء مظهرها، بما في ذلك ثدياها - وحاول أن يلوذ إلى مكان آمن، فقال: «لكن كما قلت، فإني أراك امرأة جذابة».

«هل هذا يعني أنك قد تراودني عن نفسي - أقصد في هذه الحالة الافتراضية؟»

«حسناً، أنا لست في عالم العزّاب - كنت على علاقة منذ فترة - لكن إذا عدت بنفسي إلى تلك الفترة، فإني أقول إنك ستجتازين كلّ نقاط التفتيش الجسدية لديَّ. لكن بعض الأشياء الأخرى التي ناقشناها ستجعلني أتوقف قليلاً».

«مثل؟»

«كما يحدث هنا الآن يا ميرنا. اسمعي جيداً إلى ما سأقوله. إنك تجمعين وتخزنين. إنك تراكمين معلومات مني، لكنك لا تعطيني شيئاً بالمقابل. أظن أنك تحاولين أن تتواصلي معي الآن بطريقة مختلفة، لكني لا أعتبر ذلك مشاركة. حتى أنني لا أشعر أنك تتواصلين معي كشخص - بل يبدو أنك تعتبرينني بنك بيانات تسحبين منه».

«هل تقصد أنني لا أتواصل معك بسبب تذمّري؟»

«لا ، لم أقل ذلك. انتهى وقتنا اليوم يا ميرنا ، ويجب أن نتوقف هنا ، لكن عندما تشغلين شريط هذه الجلسة، أريد أن تستمعي بدقة إلى ما قلته لك منذ دقيقة حول تواصلك معي. أظن أن هذا هو أهم شيء قلته لك على الإطلاق».

بعد انتهاء الجلسة، لم تُضع ميرنا وقتاً ووضعت الكاسيت في المسجلة كما طلب منها إرنست. استمعت باهتمام عندما بدأ يقول: «أقول إنك ستجتازين كلّ نقاط التفتيش الجسدية لديَّ».

«لكن بعض الأشياء الأخرى التي ناقشناها ستجعلني أتوقف قليلاً. استمعي جيداً إلى ما سأقوله. إنك تجمعين وتخزنين. إنك تراكمين المعلومات مني، لكنك لا تعطيني شيئاً بالمقابل... حتى أنني لا أشعر أنك تتواصلين معي كشخص - بل يبدو كأنك تعتبرينني بنك بيانات تسحبين منه... عندما تشغلّين شريط هذه الجلسة، أريد أن تستمعي بدقة إلى ما قلته لك... أظن أن هذا هو أهم شيء قلته لك على الإطلاق».

عندما بدّلت الشريط، استمعت ميرنا إلى ما قاله عن الانتقال المقابل مرة أخرى. أصابت العبارات الهدف:

> «إنها لن تتواصل معي، ولن تعترف بذلك - وهي تصرّ على أن الأمر غير مهم. كم مرة يجب أن أشرح لماذا من المهم أن تنظر إلى علاقتنا؟... إنها تفعل كلّ ما

«هل تقصد أنني لا أتواصل معك بسبب تذمّري؟»

«لا، لم أقل ذلك. انتهى وقتنا اليوم يا ميرنا، ويجب أن نتوقف هنا، لكن عندما تشغلين شريط هذه الجلسة، أريد أن تستمعي بدقة إلى ما قلته لك منذ دقيقة حول تواصلك معي. أظن أن هذا هو أهم شيء قلته لك على الإطلاق».

بعد انتهاء الجلسة، لم تُضع ميرنا وقتاً ووضعت الكاسيت في المسجلة كما طلب منها إرنست. استمعت باهتمام عندما بدأ يقول: «أقول إنك ستجتازين كلّ نقاط التفتيش الجسدية لديَّ».

«لكن بعض الأشياء الأخرى التي ناقشناها ستجعلني أتوقف قليلاً. استمعي جيداً إلى ما سأقوله. إنك تجمعين وتخزنين. إنك تراكمين المعلومات مني، لكنك لا تعطيني شيئاً بالمقابل... حتى أنني لا أشعر أنك تتواصلين معي كشخص - بل يبدو كأنك تعتبرينني بنك بيانات تسحبين منه... عندما تشغلّين شريط هذه الجلسة، أريد أن تستمعي بدقة إلى ما قلته لك... أظن أن هذا هو أهم شيء قلته لك على الإطلاق».

عندما بدّلت الشريط، استمعت ميرنا إلى ما قاله عن الانتقال المقابل مرة أخرى. أصابت العبارات الهدف:

«إنها لن تتواصل معي، ولن تعترف بذلك - وهي تصرّ على أن الأمر غير مهم. كم مرة يجب أن أشرح لماذا من المهم أن تنظر إلى علاقتنا؟... إنها تفعل كلّ ما

بوسعها للقضاء على أي ذرة من التقارب بيننا. لا ترى أي شيء أفعله جيداً بما يكفي... لا توجد رقة... شديدة التركيز على ذاتها... لا تستسلم».

قالت لنفسها، لعل الدكتور لاش على حق، فأنا لم أفكّر فيه وفي حياته وتجربته قط، لكن يمكنني أن أغيّر ذلك. اليوم. الآن، وأنا أقود سيارتي إلى البيت.

لكنها لم تستطع أن تواصل التركيز لأكثر من دقيقة أو دقيقتين، ولكي تهدّئ عقلها، لجأت إلى طريقة مفيدة تعمل على تهدئة العقل تعلّمتها منذ بضع سنوات عندما كانت في رحلة تأمل في مدينة بيغ سور أثناء عطلة نهاية الأسبوع (كانت في معظم النواحي الأخرى عملية احتيال). فأبقت جزءاً من عقلها يركّز على الطريق السريع، وتخيّلت في جزئه الآخر مكنسة تكنس كل فكرة شاردة تخطر في بالها. وعندما فعلت ذلك، لم تعد تركّز إلّا على تنفسها، وعلى استنشاق الهواء البارد وزفير الهواء الذي أصبح دافئاً في عش رئتيها.

جيد. هدأ عقلها الآن، وتركت وجه الدكتور لاش يظهر أمامها، مبتسماً ومنتبهاً في البداية، ثم عابساً ومتجهماً. في الأسابيع العديدة الماضية، منذ أن سمعت التسجيل على الشريط، اهتزت مشاعرها تجاهه بعنف. وقالت لنفسها يجب أن أقول له إنه مثابر. فقد وضعت الرجل المسكين في مواقف صعبة منذ أسابيع. جعلته ينضح عرقاً. قيّدته مرة بعد أخرى بكلماته. جعلته يتألم. معلقاً هناك. لكنه لم يستسلم. إنه ليس

رجلاً مخادعاً: لا يتسلل خلسة، ولا يلّف ويدور، ولا يحاول أن يكذب ليخلّص نفسه كما كنت أفعل. لكن ربما كان هناك قليل من الكذب، مثل إنكار أنه قال «تذمّر»، لكن ربما كان يحاول أن يريحني من الألم فقط.

أفاقت ميرنا من حلم يقظتها في الوقت المناسب وانعطفت إلى الطريق السريع 380 ثم عادت وانزلقت بسهولة إلى مخيّلتها. أتساءل ماذا يفعل دكتور لاش الآن؟ يسجّل شريطاً؟ يدوّن ملاحظات عن جلستنا؟ يضعها في أحد دروج مكتبه؟ أم أنه جالس إلى طاولة مكتبه ويفكّر بي في هذه اللحظة بالذات. طاولة المكتب تلك. طاولة مكتب أبي. هل يفكّر أبي بي الآن؟ ربما ما يزال في مكان ما، وربما يراقبني الآن. لا ، فقد استحال أبي تراباً. جمجمة عارية تلمع. كومة من التراب. وكلّ أفكاره عنّي - تراب أيضاً. وذكرياته، وحبّه، وكراهيته، وإحباطه - كلّها تراب. لا، حتى أقل من تراب، ليست سوى ومضات كهرومغناطيسية اختفت منذ زمن طويل، ولم يعد لها أثر. أعرف أنه لا بد أن أبي كان يحبّني - كان يقول للجميع إنه يحبّني - قال ذلك للعمة إيلين، والعمة ماريا، والعم جو - لكنه لم يستطع أن يقولها لي. كم كنت أتمنى أن أسمع منه هذه الكلمات.

توقفت ميرنا على جانب الطريق السريع، في بقعة تطلّ على منظر يمتد فوق الوادي من سان خوسيه على طول الطريق إلى سان فرانسيسكو. رفعت عينيها إلى الأعلى من وراء زجاج السيارة الأمامي. ما أجمل السماء اليوم، قالت

لنفسها، سماء رحبة. الكلمات - أي كلمات يمكن أن تصفها؟ جارفة، مهيبة، طبقات السحب، شرائط سحب شفافة. لا، بل شفيفة، أفضل - أحبّ هذه الكلمة .شفيفة - شرائط سحب شفيفة. أو ربما ستاراً من السحب المحزَّزة - سحب تشبه رمالاً بيضاء كالزبدة تتموّج بأمواج الريح اللطيفة؟ جميل - جميل. أحب ذلك.

تناولت قلماً وكتبت هذه العبارات على ظهر إيصال مصبغة للتنظيف الجاف وردي اللون وجدته في صندوق التابلوة. شغلّت السيارة، لكنها عادت وأطفأت المحرك، وبدأت تفكّر.

لكن لنفترض أن أبي قال لي هذه الكلمات؟ «ميرنا، أنا أحبّك - ميرنا، إني فخور بك - أحبّك - أحبّك - ميرنا، أنتِ أفضل - أفضل ابنة أنجبها رجل»، وماذا بعد؟ فهو تراب. الكلمات تتحلّل أسرع من الأدمغة.

وماذا لو لم يقلها قط؟ هل قالها له أحد قط؟ والداه؟ أبداً. القصص التي سمعتها عنهما - ذلك الأب الذي أدمن على شرب ويسكي البوربون ومات شاحباً وصامتاً، وأمّه التي تزوجت مرتين من مدمني كحول آخرين. و أنا؟ هل قلت له قط هذه الكلمات؟ هل قلتها لأحد؟

عندنا سرت رجفة في جسد ميرنا، اقتلعت نفسها من حلم اليقظة. كم أن هذه الأفكار لا تشبهها. اللغة، البحث عن كلمات جميلة. وذكريات والدها؟ كان ذلك غريباً أيضاً:

فقلما زارها في مخيلتها. وأين كان عزمها لتركّز على الدكتور لاش؟

حاولت مرة أخرى. للحظة تخيّلته وهو جالس إلى طاولة مكتبه، ثم حلّت مكانها صورة أخرى من الماضي. في وقت متأخر من الليل. كان من المفروض أن تكون قد نامت منذ فترة طويلة. تمشي على رؤوس أصابعها في الردهة. شقّ من الضوء يتسلل من تحت باب غرفة والديها. أصوات ناعمة وحميمة. تناهى إليها اسمها. «ميرنا.» لا بد أنهما مستلقيان تحت البطانية السميكة الناعمة. يتحدّثان حديثاً حميماً. يتحدثان عنها. تمددت وضغطت خدّها على الأرضية الحمراء الباردة، وحاولت أن ترى شيئاً من تحت الباب، وتسمع كلمات والديها السرّية عنها.

والآن، قالت لنفسها وهي تنظر إلى المُسجّلة، لقد التقطتُ السرّ؛ إني أمتلك الكلمات. تلك الكلمات التي قيلت في نهاية الجلسة – ماذا كانت مرة أخرى؟ ألقمت الشريط، ولفّته لبضع ثوان، واستمعت:

«... ميرنا. استمعي جيداً إلى ما سأقوله. إنك تجمعين وتخزنين. إنك تراكمين المعلومات مني، لكنك لا تعطيني شيئاً بالمقابل... حتى أنني لا أشعر أنك تتواصلين معي كشخص – بل يبدو كأنك تعتبرينني بنك بيانات تسحبين منه...»

أسحب من «بنك بيانات». هزّت رأسها. ربما كان محقاً.

شغلّت سيارتها، وعادت إلى الطريق السريع الجنوبي 101.

في بداية الجلسة التالية، جلست ميرنا صامتة. حاول إرنست، نافد الصبر كعادته، أن يحثّها على أن تتكلم: «إلى أين ذهبت أفكارك في الدقائق القليلة الماضية؟»

«أظن أنني أتساءل كيف ستبدأ الجلسة».

«ماذا تفضّلين يا ميرنا؟ لو حقق جنيّ أمنيتك، كيف تريدين أن أبدأ؟ ما هي الجملة أو السؤال المثالي؟

«يمكنك أن تقول: مرحباً يا ميرنا، أنا سعيد جداً برؤيتك».

«مرحباً يا ميرنا، أنا سعيد جداً برؤيتك اليوم»، كرر إرنست ما قالته على الفور، مخفياً دهشته من ردة فعل ميرنا. ففي الجلسات السابقة معها، كانت هذه المناورات الافتتاحية الذكية تفشل دائماً، وقد ألقى سؤاله الآن دون أن يحدوه أمل كبير في أن ينجح. يا لها من معجزة أنها أصبحت جريئة جداً، وهو سعيد جداً لرؤيتها - حتى أن هذه معجزة أكبر.

«شكراً لك. هذا لطف منك، مع أنك لم تقلها كما يجب».

«هه؟»

فقالت ميرنا: «لقد أضفت كلمة. كلمة اليوم».

«وتداعيات ذلك...؟»

«تذكّر يا دكتور لاش كيف كنت تقول لي دائماً: 'السؤال ليس سؤالاً إذا كنتِ تعرفين الجواب'».

«صحيح، سايريني. تذكّري يا ميرنا، في بعض الأحيان يكون لدى المعالج امتيازات خاصة في الكلام».

«حسناً، يبدو لي أن كلمة اليوم تعني أنك لست سعيداً برؤيتي في معظم الأحيان».

قال إرنست لنفسه هل كنت أعتبر ميرنا متخلّفة في التعامل مع الآخرين؟

فقال مبتسماً: «تابعي. لماذا لا أريد أن أراك؟»

ترددت. فلم يكن هذا هو الاتجاه الذي أرادت أن تسلكه في هذه الساعة.

«حاولي. حاولي أن تجيبي على هذا السؤال يا ميرنا. لماذا تظنين أنني لست سعيداً برؤيتك دائماً؟ اتركي العنان لتخاطر الأفكار في نفسك. قولي أي شيء يخطر في بالك».

ساد صمت. أحست بالكلمات تتحرك، تتجمع. حاولت أن تنتقي كلماتها، تحتويها، لكن توجد كلمات كثيرة، وبدأت تتدفق كلها في عقلها بسرعة.

«لماذا لستَ سعيداً برؤيتي؟» انفجرت قائلة، «لماذا؟ أعرف لماذا. لأنني فظة وسوقية وذوقي سيء» - لا أريد أن أفعل ذلك، قالت لنفسها، لكنها لم تستطع أن تتوقف، يجب أن تفقأ الدُمَّلَة، تنظّف المسافة التي تفصل بينهما - «ولأنني

جامدة وضيّقة الأفق ولا أقول شيئاً جميلاً أو شاعرياً أبداً». يكفي، يكفي، قالت لنفسها وهي تحاول أن تُطبق على أسنانها وتقفل فكيها. لكن الكلمات بدأت تتدفق الآن بقوة لم تستطع مقاومتها، فتقيأتها: «وأنا لست لينة العريكة، والرجال يريديون الابتعاد عني - عندي زوايا حادة كثيرة، المرفقين، الركبتين - وأنا جاحدة جداً، وألوّث علاقتنا عندما أتحدث عن الفاتورة، و... و...» توقفت لحظة ثم أنهت كلامها بملاحظة غريبة: «وثدياي كبيران جداً». مرهقة، غاصت في كرسيها. لقد قيل كلّ شيء.

صُعق إرنست. الآن هو الذي جلس معقود اللسان. فهذه الكلمات - كلماته. من أين جاءت؟ نظر إلى ميرنا التي كانت منحنية، مسندة رأسها بين يديها. كيف يمكنه أن يجيبها؟ بدأ رأسه يسبح بالأفكار. كان لديه دافع شرير ليقول لها: «ثدياك ليسا كبيرين جداً»، لكن شكراً لله أنه لم يقلها. ليس هذا وقت المزاح. كان يعرف أنه يجب أن يأخذ كلمات ميرنا بأكبر قدر ممكن من الجدية والاحترام. تعلّق بسترة النجاة التي يلجأ إليها المعالجون دائماً في أشد العواصف عتياً في أعالي البحار: التعليق على العملية، وتداعيات العلاقة، وكلام المريضة وليس على محتواه.

فقال بهدوء: «كلماتك مليئة بالمشاعر يا ميرنا. يبدو أنك كنت تريدين أن تقوليها منذ فترة طويلة».

فقالت ميرنا «أظن ذلك»، وأخذت نفساً عميقاً،

«للكلمات حياتها الخاصة بها. وقد أرادت أن تخرج».

«لديك قدر كبير من الغضب تجاهي، وربما تجاهنا كلينا».

«كلانا؟ منك ومني؟ ربما كان ذلك صحيحاً. لكن الحصول على أقل. ربما لهذا السبب استطعت أن أقول هذه الأشياء اليوم».

«من الجيد أنك أصبحت تثقين بي أكثر».

«في الحقيقة كنت أريد أن أتحدّث عن أشياء أخرى اليوم».

«مثل؟» قفز إرنست إلى الفكرة - أي شيء ليغيّر مسار الحديث.

بينما صمتت ميرنا لتلتقط أنفاسها، فكّر في بداهتها غير المألوفة، تدفق كلماتها المرعبة. من المدهش أنها فهمت أشياء كثيرة عنه. كيف عرفت؟ لا يوجد إلّا احتمال واحد: التعاطف اللاواعي. كما قال الدكتور فيرنر تماماً. إذاً فإن فيرنر كان محقاً طوال الوقت. لماذا لم أتعلّم منه؟ يا لغبائي. كيف صاغها فيرنر؟ إنني فتى متمرد على التقاليد أريد أن أحطّم الأيقونات؟ حسناً، ربما حان الوقت لأن أتخلى عن بعض تساؤلاتي الصبيانية وكشف زيف المعالجين القدامى - فليس كل ما يقولونه هراء. لن أشك مرة أخرى بقوة التعاطف اللاواعي. ربما كان هذا النوع من التجربة هي التي دفعت فرويد لأن يأخذ فكرة التواصل بالتخاطر بجدية.

«إلى أين تسرح أفكارك يا ميرنا؟» قال لها أخيراً.

«لديَّ أشياء كثيرة أريد أن أقولها. لست متأكدة من أين أبدأ. ها هنا حلم حلمت به الليلة الماضية»، قالت ورفعت دفتراً مجعداً، «انظر، لقد كتبته، هذه أول مرة».

«إنك تأخذين عملنا بجدية أكثر».

«يجب أن أحصل على ما يساوي المائة والخمسين. أُووبس»، غطّت فمها بيديها، «لم أقصد أن أقول ذلك - أنا آسفة - أرجو أن تضغط على مفتاح الحذف».

«ضغطتُ على مفتاح الحذف. لقد أمسكتِ نفسك، هذا رائع. لعلك شعرت بالارتباك من مجاملتي لك».

هزّت ميرنا رأسها، لكنها أسرعت وقرأت حلمها من دفتر ملاحظاتها:

> ذهبتُ من أجل ترميم أنفي. عندما أزالوا الضمادات، بدا أنفي في حالة جيدة، لكن الجلد بدا مجعداً أو مشدوداً وظل فمي مفتوحاً في شكل فجوة كبيرة تحتل نصف وجهي. لوزتاي مرئيتان، ضخمتان، متورمتان، ملتهبتان، قرمزيتان. ثم جاء طبيب وقد أحاط به نمبوس. فأصبح بإمكاني فجأة أن أغلق فمي. سألني بعض الأسئلة، لكنني لم أجبه لأنني لم أشأ أن أفتح فمي ويرى تلك الفجوة الكبيرة.

«نمبوس؟» سألها إرنست عندما أنهت كلامها.

«كما تعرف، إشعاع، نور مقدّس، هالة».

«آه، صحيح. نعم نمبوس. إذن يا ميرنا، ما هي أفكارك حول الحلم؟»

«أظن أنني أعرف ما ستقوله عن ذلك».

«ابقي مع تجربتك. حاولي التداعي الحرّ لأفكارك. قولي ما الذي يخطر ببالك فوراً وأنت تفكرين بالحلم؟

«الفجوة الكبيرة التي في وجهي».

«ما الذي يتبادر إلى ذهنك عندما تفكرين فيها؟»

«جوفاء، سحيقة، بعيدة الغور، سوداء كالحبر. أكثر؟»

«تابعي».

«عملاقة، واسعة، هائلة، وحشية، تارتارية».

«تاتارية؟»

«أي الجحيم - أو الهاوية في قعر جهنم حيث يتجمع التيتان (العمالقة)».

«صحيح. إنها كلمة غريبة ومثيرة للاهتمام. هممم، لكن لنعد إلى الحلم. تقولين إن هناك شيئاً لا تريدين أن يراه الأطباء، وأظن أنني هو الطبيب؟»

«يصعب الخلاف على ذلك. لا أريد أن ترى الفجوة الكبيرة، هذا الفراغ».

«وإذا فتحتِ فمك فإني سأراه. لذلك فإنك تحرسين نفسك، وتحرسين كلماتك. أما زلت ترين الحلم يا ميرنا؟ أما يزال حيوياً؟»

هزّت رأسها.

«استمري في النظر إليه، أي جزء منه يلفت انتباهك الآن؟»

«اللوزتان - ففيهما طاقة كبيرة».

«انظري إليهما. ماذا ترين؟ ما الذي يتبادر إلى ذهنك؟»

«إنهما حارتان، حارقتان».

«تابعي».

«منفجرتان، متورمتان، متهيجتان، متضخمتان، منتفختان، ممتلئتان...».

«منتفختان، ممتلئتان»؟ وتلك الكلمة الأخرى - 'تاتاريتان' يا ميرنا؟»

«كنت أتصفّح قاموس المترادفات هذا الأسبوع».

«حسناً، أود أن أسمع المزيد عن ذلك، أما الآن، دعينا نبقى مع الحلم. هاتان اللوزتان... تظهران إذا فتحت فمك. مثل الفجوة تماماً. وهما على وشك أن تنفجرا. وماذا سيخرج منهما؟».

«صديد، شيء قبيح، بغيض، بشع، مقزز، مقرف، بغيض، زنخ...».

«مزيد من تصفّح معجم المترادفات؟»

هزت ميرنا رأسها.

«إذاً يوحي الحلم بأنك ترين طبيباً - أنا - وأن عملنا يكشف عن أشياء لا تريدين أن تُرى، أو أنك لا تريدن أن أراها - فراغ شاسع، ولوزتان على وشك أن تنفجرا وينطلق منهما شيء كريه. بشكل ما، تجعلني اللوزتان الحمراوان الملتهبتان أفكّر في الدقائق القليلة الماضية عندما انفجرت منك كلّ تلك الكلمات».

هزّت رأسها مرة أخرى.

«إني سعيد لأنك ذكرتِ هذا الحلم»، قال إرنست، «إنه دليل على ثقتك بي وبما نفعله معاً. إنه عمل جيد، عمل حقيقي وجيد»، صمت قليلاً، ثم أردف، «الآن هل يمكننا أن نتحدث عن معجم المترادفات؟»

وصفت ميرنا النهاية النارية لمسيرتها الشعرية عندما كانت طفلة ورغبتها المتزايدة في كتابة قصيدة، وقالت: «عندما كتبت حلمي هذا الصباح، كنت أعرف أنك ستسألني عن الفجوة واللوزتين، لذلك بحثت عن كلمات غريبة».

«يبدو أنك تريدين مني شيئاً».

«الاهتمام، على ما أظن. لم أعد أريد أن أكون مملّة بعد الآن».

«هذه كلمتك أنتِ، وليست كلمتي. أنا لم أقلها قط».

«لكني ما زلت مقتنعة بأنك تشعر هكذا تجاهي».

«أريد أن أعود إلى ذلك، لكن دعينا أولاً ننظر إلى شيء آخر في الحلم: الهالة المحيطة بالطبيب».

«النمبوس - نعم، كان ذلك شيئاً غريباً. أظن أنني وضعتك الآن في فئة الرجل الطيب».

«إذاً أصبحت تفكرين بي بشكل أفضل، وربما تريدين أن تكوني أقرب إليَّ، لكن المعضلة هي أننا إذا اقتربنا كثيراً، فقد أكتشف أشياء مخجلة عنك: ربما فراغ في داخلك، وربما شيء آخر - غضب متفجر، كراهية الذات». نظر الى ساعته، وقال: «أنا آسف لأننا يجب أن نتوقف الآن. لقد مرّ الوقت بسرعة. مرة أخرى، كان عمل اليوم شاقاً وجيداً. كان من الجيد أن أكون معك».

استمر العمل الشاق، وتوالت ساعات العلاج المتواصلة الواحدة تلو الأخرى. أسبوعاً تلو أسبوع، حتى وصل إرنست وميرنا إلى مستويات جديدة من الثقة. فلم تجازف بنفسها قط بهذا القدر. وشعر إرنست بالفخر لكونه شاهداً على تحولها. ومن هذه التجارب، أصبح إرنست معالجاً نفسياً. وبعد أربعة عشر أسبوعاً من آخر اجتماع قدّم فيه ميرنا في الحلقة الدراسية «الانتقال المقابل»، جلس إلى طاولة مكتبه، بيده الميكروفون، وقدّم إيضاحاً آخر عنها.

«أنا الدكتور لاش أُملي ملاحظات من أجل الحلقة

الدراسية الانتقال المقابل. ففي الأسابيع الأربعة عشر الماضية، شهدت مريضتي وعملية العلاج تغيّراً مذهلاً. يبدو كما لو أنني أستطيع أن أقسّم العلاج إلى مرحلتين: قبل تعليقي غير الحكيم وغير المناسب حول القميص وبعده.

«غادرت ميرنا مكتبي منذ بضع دقائق فقط، وأدركت أنني دُهشت لأن الساعة مضت بسرعة. وشعرت بالأسف لأنها ذهبت. شيء مدهش. كانت تُشعرني بالملل، لكنها أصبحت الآن مفعمة بالحيوية. لم أسمع منها تأففاً أو تذمراً منذ أسابيع. نمزح كثيراً - إنها حادة إلى درجة أنه يصعب عليَّ مجاراتها - أصبحت منفتحة، متأملة، تروي أحلاماً مثيرة للاهتمام، لا بل بدأت تستخدم كلمات غريبة ومثيرة للاهتمام. لم أعد أسمع مناجاة: وأصبحت تدرك وجودي في الغرفة، وأضحت عمليتنا تفاعلية بشكل متناغم. وإني أتطلّع لرؤيتها مثل أي مريضة أخرى، وربما أكثر.

«إن سؤال الأربعة والستين دولاراً هو: كيف أطلق التعليق على القميص كلّ هذا التحوّل فيها؟ كيف يمكن إعادة بناء وتفسير أحداث الأسابيع الأربعة عشر الماضية؟

«كان الدكتور فيرنر متيقناً من أن التعليق حول القميص كان خطأً فادحاً، وأنه سيؤدي إلى تمزّق التحالف العلاجي. كان مخطئاً تماماً في ذلك. فقد تبين أن الصدع الطائش الذي سببته بدون تفكير مني هو الحدث المحوري في العلاج.

«لكنه كان محقاً - أوه، محقاً تماماً - حول قدرة المريضة على التناغم مع أسلوب الانتقال المقابل الذي يتبعه المعالج. فقد استوعبت تقريباً كل شعور وصفته في حديثي الأخير، وبدقة غير مألوفة. يكفي أنها جعلت مني ميلاني كلاين. فلم تُغفل شيئاً. أذهلتني في كلّ شيء. لا يوجد تعليق واحد كنت قد ذكرته هنا في المجموعة في الجلسة الأخيرة عنها لم تذكره لي بوضوح. ربما كان هناك شيء من الصحة في التخاطر النفسي. ماذا لو فشل البحث في تكرار النتائج الإيجابية؟ إن أمراً رائعاً كهذا يوضح ببساطة عدم صلة البحث التجريبي.

«لماذا هي أفضل؟ ماذا يمكن أن يكون التعليق على القميص سوى دعوة للاستيقاظ؟ لقد أظهرت لي هذه الحالة أن هناك مكاناً للصدق القاسي الذي اعتاد سينانون على أن يطلق عليه اسم «الحبّ القاسي»، لكن يجب على المعالج أن يدعمه، ويجب أن يبقى حاضراً ويظلّ صادقًا مع المريض. إن ذلك يتطلب علاقة يجب أن تكون راسخة تمكّن المعالج والمريض من التغلب على العاصفة التي تلي ذلك. وفي هذه الأيام المتوترة يتطلب الأمر شجاعة. عندما قدّمت ميرنا في الاجتماع الأخير، وصف أحدكم - أظن باربرا - التعليق على القميص بأنه «علاج بالصدمة»، وأنا أوافق على ما قالته: فهذا ما حدث تماماً. فقد غيّر ميرنا جذرياً، وفي فترة ما بعد الصدمة، بدأت أحبها أكثر. لقد أُعجبت بالطريقة التي كانت تجلس فيها هناك وتصرّ على تقديم تعليقات مباشرة.

لديها شجاعة كبيرة. لا بد أنها أحست بإعجابي المتزايد بها. إذ يحبّ الناس أنفسهم عندما يرون صورة محببة لأنفسهم منعكسة في عينيّ شخص يهتمون به».

بينما كان إرنست يُملي ملاحظاته، قادت ميرنا سيارتها إلى المنزل وهي تفكّر أيضاً بجلسات العلاج الأخيرة. «عمل جيد وقوي»، وصفه الدكتور لاش، وهو كذلك. كانت فخورة بنفسها. ففي الأسابيع القليلة الماضية، فتحت نفسها كما لم تفتحها من قبل. لقد جازفت كثيراً. بثت وناقشت كل جانب من جوانب علاقتها بالدكتور لاش. طبعاً، ماعدا شيء واحد: فهي لم تبح له قط بأنها كانت تستمع إلى تسجيلاته.

لم لا؟ في البداية، كان ذلك ببساطة لتستمتع بتعذيبه بكلماته هو. صدقاً، كانت تستمتع بإزعاجه بما تعرفه سرّاً من معلومات. عندما كان متعجرفاً، مغروراً بنفسه كثيراً، وواثقاً من معرفته المتفوقة، كانت تجد متعة بتخيّل وجهه عندما تقول له الحقيقة.

لكن الأمور تغيّرت. ففي الأسابيع القليلة الماضية، عندما بدأت تزداد قرباً منه، تلاشت معظم تلك المتعة. وأصبح السرّ عبئاً، نتوءاً مزعجاً أرادت أن تتخلّص منه، حتى أنها تدربت على أن تعترف به. فقد دخلت مكتبه أكثر من مرة وأخذت نفساً عميقاً، تنوي أن تخبره بكلّ شيء. لكنها لم تفعل ذلك، جزئياً للإحراج الذي ستشعر به لأنها أخفت عنه ذلك لفترة طويلة، وجزئياً بدافع الاهتمام الحقيقي. كان

الدكتور لاش صريحاً ومباشراً: فلم ينكر أي شيء واجهته به - لا شيء تقريباً. لقد كرس كل جهده لتحسين حالتها. فلماذا تُحرج الرجل المسكين الآن؟ لماذا تسبب له الألم؟ كان ذلك الجزء المتعلق بحرصها عليه. لكن ما يزال هناك سبب آخر. فقد أحبّت أن تكون الساحرة، وأحبّت الإثارة التي تحدثها معرفتها السرّية.

لقد عبّر ولعها بالأسرار عن نفسه بطريقة لا يمكن التنبؤ بها تماماً. وبوجود معجم المترادفات تحت يدها، أمضت معظم أمسياتها في كتابة قصائد مليئة بموضوعات الخداع والسرّية والطاولات القابلة للطي والمقصورات المخفية. وأتاح لها الإنترنت المنفذ المثالي، ونشرت العديد من قصائدها في غرفة الدردشة على موقع *singlepoet.com.* (الشاعر العازب).

أحدّق إلى الأعلى

إلى حواف المقصورات المغلقة التي تشبه قرص العسل

مملوءة برحيق الأسرار.

عندما أكبر

ستصبح لديَّ غرفتي الخاصة،

وأملؤها بأسرار البالغين.

لاح في الأفق السرّ الذي لم تبح به لأبيها قط. شعرت

بوجوده كما لم تشعر بوجوده من قبل. بجسده النحيف المحني، وأدواته الطبية، وطاولة مكتبه ذات الدروج المليئة بالأسرار الذي كان يجذبها كثيراً، وحاولت أن تعبّر عن ذلك في قصيدة:

غاب حضوره بكتفيه المحدودبين

الآن وإلى الأبد،

وسماعته الطبية المكسوة بنسيج العنكبوت،

وكرسيه الياقوتيّ بجلده المتشقق،

ودروج طاولة مكتبه المليئة بالأسرار

وبرائحة مرضى أموات أعزاء

يثرثرون في الظلام

حتى تسكتهم شمس الصباح

التي تخترق التراب

وتضيء طاولة المكتب الخشبي،

مثل مرج كان يحمل ذات يوم

أقداماً راقصة

وأضحى الآن أخضر متكاسلاً

لكنه ما يزال يتذكّر

ثنايا ذلك الزمن.

لم تُطلع ميرنا الدكتور لاش على هذه القصائد. كانت لديها أشياء كثيرة تريد أن تتحدّث عنها في جلساتها العلاجية، وبدا الشعر عديم الصلة. بالإضافة إلى أن قصائدها قد تثير أسئلة حول موضوع السرّية، وقد تؤدي مباشرة إلى سرّ الشريط الذي أملاه في الشريط. في بعض الأحيان، كان ينتابها القلق بأن حجبها المعلومات عنه قد يدّق إسفيناً بينهما، لكنها كانت تؤكد لنفسها إنها تستطيع أن تتغلب على ذلك.

ولم تكن أيضاً بحاجة إلى موافقة الدكتور لاش على قصائدها. فقد لاقت ترحيباً كبيراً في مكان آخر. فقد كانت غرفة الدردشة على موقع singlepoet.com على الإنترنت مليئة بالشعراء الذكور.

أصبحت الحياة مثيرة. فلم تعد تعمل وقتاً إضافياً في مكتبها في وادي السيليكون. وفي الليل، بدأت ميرنا تهرع إلى بيتها لتفتح صندوق الإيميل المليء برسائل امتداح قصائدها والثناء على صراحتها المنعشة. ربما كانت متسرعة في رفض العلاقات عن طريق الإيميل لأنها علاقات غير شخصية. ربما كان العكس هو الصحيح. ربما كانت الصداقات الإلكترونية - لأنها لا تعتمد على سمات جسدية عميقة - أكثر أصالة وتعقيداً.

لم ينس الخاطبون الإلكترونيون الذين كانوا يشيدون

بقصائدها ويثنون عليها أن يضعوا ملفاتهم الشخصية وأرقام هواتفهم. ازداد تقديرها لذاتها. وأصبحت تقرأ وتعيد قراءة رسائل المعجبين بها، وجمعت رسائل المديح، والملفات الشخصية، وأرقام الهواتف، والمعلومات. تذكّرت بشكل خافت نصيحة الدكتور لاش بأنها تسحب من بنك البيانات، لكنها تحبّ أن تجمّع. فوضعت مقياساً دقيقاً لتصنيف الخاطبين يزن إمكانية الكسب، وخيارات الأسهم، والتأثير العام، وجودة القصائد بالإضافة إلى السمات والخصائص الشخصية كالانفتاح والكرم والقدرة على التعبير. وقد طلب منها العديد من الذين يتواجدون في غرفة الدردشة الخاصة بالشعراء العزّاب اللقاء بها وجهاً لوجه - لتناول قهوة إسبرسو بعد الظهر في مقهى وادي السيليكون، أو للتنزّه، أو لتناول طعام الغداء أو العشاء.

لم يحن الوقت بعد، فما تزال تريد مزيداً من المعلومات. لكن قريباً.

6

لعنة القطة الهنغارية

«لكن قل لي يا هالستون لماذا تريد أن نتوقف عن العلاج؟ يبدو لي أننا بدأنا منذ فترة قصيرة. لم نلتق سوى ثلاث مرات؟» قال إرنست لاش وهو يقلّب صفحات دفتر مواعيده، «نعم، صحيح. هذا لقاؤنا الرابع».

منتظراً الردّ بفارغ الصبر، راح إرنست يحدّق بربطة عنق مريضه الرمادية المزركشة وسترته الرمادية ذات الستة أزرار، وحاول أن يتذكّر متى رأى آخر مرة مريضاً يرتدي بدلة رسمية من ثلاث قطع أو يضع ربطة عنق بيسلي.

«أرجوك لا تفهم الأمر بشكل خاطئ يا دكتور»، قال هالستون، «الأمر لا يتعلق بك. تجري أشياء كثيرة غير متوقعة. يصعب عليَّ أن آتي إلى هنا في منتصف النهار - الأمر أصعب بكثير مما كنت أتوقع... فهو يسبب لي مزيداً من التوتر... إنها مفارقة لأن الهدف من رؤيتك، في نهاية المطاف، هو التخفيف من حدة التوتر... والنقود للعلاج، لا أستطيع أن أنكر أنها أحد العوامل... فأنا أمرّ حالياً بضائقة مالية: أدفع نفقة الطفل... ثلاثة آلاف شهرياً... وسيبدأ أكبر

أبنائي الدراسة في جامعة برينستون في الخريف... ثلاثون ألفاً في السنة... إنك تعرف كيف تسير الأمور. كنت قد فكّرت في أن ألغي الجلسة اليوم، لكنني قلت في نفسي إنني يجب أن آتي وأحضر آخر جلسة.

من ثلم قشري عميق تسلل فجأة أحد تعابير أمّه باللغة اليديشية، ردده إرنست لنفسه: «*Geh Gesunter Heit*». (اذهب وأنت بصحة جيدة)، التي تشبه قول «رحمكم الله» بعد أن يعطس أحدهم. لكن «*Geh Gesunter Heit*». كما كانت أمّه تستخدم هذه العبارة بسخرية وإهانة أكثر من كونها «ترحمّاً» وهي تقصد: «اذهب وابق بعيداً»، أو «أرجو من الله أن يمرّ وقت طويل قبل أن أراك مرة أخرى».

نعم، هذا صحيح، قال إرنست لنفسه، فلن أمانع إذا ذهب هالستون ولم يعد. لا يمكنني أن أبدي اهتماماً بهذا الرجل. ألقى إرنست نظرة فاحصة على مريضه، نظرة جانبية لأن هالستون لم يكن ينظر في عينيه مباشرة. له وجه طويل حزين، وبشرة سوداء، من ترينيداد، أحد أحفاد العبيد الهاربين. وإذا كان لدى هالستون أي نوع من الألق، فقد انطفأ منذ زمن طويل. فهو يخلو من أي بريق، لا ترى سوى مجموعة من ظلال اللون الرمادي: شعر أشيب رمادي، لحية صغيرة مشذبة بأناقة شديدة تتخللها خطوط رمادية، عيناه صوّانيتان، يرتدي بدلة رمادية، وجوارب رمادية داكنة، وله عقل رمادي مغلق. لا يوجد أي أثر لأي لون أو حيوية في عقل أو جسد هالستون.

«*Geh Gesunter Heit*». اذهب ولا تعد. أليس هذا ما يأمله إرنست؟ «جلسة أخيرة»، قال هالستون. همممم، قال إرنست لنفسه، فيها جرس جميل. يمكنني أن أعيش مع ذلك. فهو مشغول كثيراً الآن، وجدول جلساته مزدحم. فقد عادت ميغان، مريضته السابقة التي لم يرها منذ بضع سنوات، والتي حاولت أن تنتحر قبل أسبوعين، وهي في أمسّ الحاجة إليه. زمن أجل الحفاظ على سلامتها وخروجها من المستشفى، كان عليه أن يراها ما لا يقل عن ثلاث ساعات في الأسبوع.

هيه استيقظ! نخز نفسه. فأنت معالج نفساني، وقد جاء هذا الرجل إليك يطلب مساعدتك، والتزمت بأن تساعده. إنك لا تحبّه كثيراً؟ فهو لا يُسلّيك كثيراً؟ شخص ممل، بارد؟ بطيء، وتوجد عصا مكنسة في مؤخرته؟ عظيم، هذه معلومات جيدة. استخدمها. إذا كنت تشعر تجاهه بهذه الطريقة، فلا بد أن معظم الناس الآخرين يشعرون نحوه بهذه الطريقة أيضاً. تذكّر السبب الرئيسي الذي جاء من أجله، إحساس عميق بالغربة.

كان من الواضح أن هالستون يشعر بالتوتر بسبب الانسلاخ الثقافي. فقد كان يعيش في بريطانيا العظمى منذ أن كان في التاسعة من عمره، وقد جاء مؤخراً إلى الولايات المتحدة وكاليفورنيا ويشغل منصب مدير إداري في أحد البنوك البريطانية. لكن إرنست يرى أن الانسلاخ الثقافي ما هو إلّا جزء من القصة - فهناك شيء سحيق حول هذا الرجل.

حسناً، حسناً، قال إرنست لنفسه، لن أقول، حتى أنني لن أفكر حتى، «*Geh Gesunter Heit*». عاد إلى عمله، مختاراً كلماته بعناية لكي يُشرك هالستون. «حسناً، يمكنني بالتأكيد أن أفهم أنك تريد أن تخفّف من حدة التوتر في حياتك، لا زيادته بإضافة مزيد من الضغوط المتعلقة بالوقت والنقود. هذا شيء منطقي. لكن كما تعرف، هناك شيء في قرارك يحيّرني.

«نعم، وهو...؟»

«حسناً، كنت واضحاً تماماً بشأن الوقت المطلوب والأتعاب قبل أن نبدأ الجلسة. فلا توجد مفاجآت حقيقية. أليس كذلك؟»

هزّ هالستون رأسه وقال: «لا يمكنني أن أختلف معك في هذا الأمر. دكتور، كلامك صحيح تماماً».

«إذن يبدو من المنطقي التفكير بأن هناك أشياء أكثر من ضغوط النقود والوقت. شيء يتعلق بك وبي؟ هل من الممكن أن تشعر براحة أكبر لو أنك رأيت معالجاً أسود البشرة؟

«لا يا دكتور. لا علاقة لذلك بحالتي. الشجرة الخاطئة، كما تقولون أنتم الأمريكيون. الاختلاف العرقي ليس مشكلة. تذكّر أنني أمضيت عدة سنوات في مدرسة إيتون وست سنوات أخرى في كلية الاقتصاد في لندن. كان هناك عدد قليل جداً من السود. أؤكد لك إنني لا أمانع باستشارة معالج أسود البشرة».

قرر إرنست أن يمنحه فرصة أخيرة لكي لا يتهم نفسه بأنه لم يفِ بالتزاماته المهنية.

«حسنا يا هالستون، دعني أطرح المسألة بطريقة أخرى. إني أتفهم الأسباب التي ذكرتها. أنها أسباب منطقية، ولا عيب فيها. لنفترض أنها أسباب كافية لكي تتوقف. يمكنني أن أحترم قرارك هذا. لكن قبل أن ننهي عملنا اليوم، أتساءل إن كان بإمكانك أن تمعن التفكير في سؤال آخر».

رفع هالستون عينيه بحذر، وهزّ رأسه هزة طفيفة نحو إرنست لكي يكمل.

«سؤالي هو: هل يمكن أن تكون هناك أسباب أخرى؟ فقد عرفت العديد من المرضى - وكذلك جميع المعالجين النفسيين - الذين تركوا العلاج لأسباب غير عقلانية تماماً. إذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لك، فهل يمكنك أن تعبّر عن أي من هذه الأسباب؟

صمت هالستون قليلاً وأغمض عينيه. كاد إرنست أن يسمع صوت أسطوانات الإدراك الرمادية تتحرك. هل سيغتنم هالستون الفرصة؟ أراهن على ذلك، قال إرنست لنفسه. رأى هالستون يفتح فمه، شقّ فقط، كما لو أنه يريد أن يقول شيئاً، لكن لم تخرج من فمه أي كلمة.

«إني لا أتحدّث عن أي شيء كبير يا هالستون. لكن حتى عن شيء ضئيل، أو لمحة من أسباب أخرى؟

«ربما»، غامر هالستون قائلاً، «العلاج لا يناسبني ولا كاليفورنيا أيضاً».

جلس المريض والمعالج ينظر أحدهما إلى الآخر: إرنست ينظر إلى أظافر هالستون المشذبة تماماً وسترته الرمادية ذات الأزرار الستة، وبدا أن هالستون ينظر إلى شارب طبيبه المعالج غير المشذّب وكنزته البيضاء ذات الياقة العالية.

قرر إرنست أن يجازف ويخمّن السبب.

«كاليفورنيا متحررة وفضفاضة جداً؟ هل تفضّل الرسميات اللندنية؟»

كادت إيماءة هالستون تكون مفعمة بالحيوية.

«وماذا عن هذه الغرفة؟»

«نعم، هنا أيضا».

«على سبيل المثال؟»

«لا أقصد الإساءة يا دكتور، لكنني معتاد على مزيد من الاحترافية عندما أرى طبيباً».

«احترافية؟» شعر إرنست بطاقة حيوية تعتمل في داخله. أخيراً، ها قد بدأ شيء يحدث.

«أفضّل أن أستشير طبيباً يقدّم تشخيصًا متميّزاً ويصف علاجاً مفيداً».

«وما هي تجربتك هنا؟»

«لا أقصد أي إساءة يا دكتور لاش».

«لا توجد إساءة يا هالستون. مهمتك الوحيدة هنا أن تعبّر عن رأيك بمطلق الحرية».

«الأشياء هنا - كيف يمكنني أن أقولها؟ - غير رسمية إلى درجة كبيرة - الكلفة مرفوعة تماماً هنا أيضاً - مثل رغبتك في أن يخاطب أحدنا الآخر باسمه الأول».

«وهل ترى أن هذا الطابع غير الرسمي يُعد إنكاراً لعلاقتنا المهنية؟»

«تماماً. إن ذلك يجعلني لا أشعر بالارتياح. أشعر أننا نتعثّر كما لو أننا سنقع فوق الإجابة معاً».

لعبها إرنست بمهارة. لا يوجد شيء يخسره. من المرجح أن هالستون قد ذهب في جميع الأحوال. وقال إرنست في نفسه ربما أعطيه شيئاً يمكن أن يستخدمه في علاجه التالي.

فقال: «إني أتفهم تفضيلك لأدوار أكثر رسمية، وأقدّر استعدادك للتعبير عن مشاعرك حول العمل معي. دعني أحاول أن أفعل نفس الشيء وأشاطرك تجربتي في العمل معك».

حظي إرنست الآن باهتمام هالستون الكامل. قلة من المرضى لا يبالون بتوقع سماع تعليقات من طبيبهم المعالج.

«إن أحد مشاعري الرئيسية إحباط معين - أظن أنه يتعلق بأنك بخيل تافه».

«بخيل؟»

«بخيل - الكلمة - شحيح. فأنت لا تعطيني كثيراً. فعندما أطرح عليك سؤالاً، ترسل لي برقية مقتضبة. أي أنك تعطيني أقل عدد ممكن من الكلمات، وأقل عدد من التفاصيل الوصفية، وأقل عدد ممكن من الإيحاءات الشخصية. ولهذا السبب بالذات حاولت أن أقيم بيننا علاقة حميمية أكثر. يعتمد منهجي في العلاج على مشاركة مرضاي مشاعرهم العميقة معي. ومن تجربتي، فإن الأدوار الرسمية تؤدي إلى إبطاء هذه العملية، وهذا هو السبب - السبب الوحيد - الذي يدفعني إلى استبعادها. ولهذا السبب أيضاً فإني أطلب منك غالباً أن تقول لي ما هي مشاعرك تجاهي».

«كل ما تقوله معقول تماماً، وأنا متأكد من أنك تعرف ما الذي تفعله. لكن ليس بيدي. إن ثقافة كاليفورنيا المنفتحة تزعجني كثيراً. هكذا نشأت».

«سؤال حول ذلك. هل أنت راضٍ بما هو أنت؟»

«راضٍ؟» بدا هالستون مرتبكاً.

«حسناً، عندما تقول هكذا نشأت وهكذا أنت، أظن أنك تقول أيضاً أن هذه هي الطريقة التي اخترت أن تكونها.

لذلك فإني أسألك، هل أنت راضٍ عن هذا الاختيار؟ بالابتعاد عن الناس، وعدم الاختلاط بهم؟

فكرر قائلاً: «لست متأكداً من أنه خيار يا دكتور. هذه هي طبيعتي -تكويني في أعماقي».

فكّر إرنست في بديلين اثنين. فإما أن يحاول إقناع هالستون بمسؤوليته إزاء ابتعاده عن الناس أو أن يبدأ تحقيقاً رئيسياً أخيراً في حلقة حاسمة محددة من أسلوب هالستون في الابتعاد عن الآخرين، فاختار البديل الثاني.

«حسناً، دعني أعود إلى البداية، إلى الليلة التي دخلت فيها قسم الطوارئ. دعني أروي لك جانبي من القصة. في حوالي الساعة الرابعة صباحاً، تلقيتُ مكالمة من طبيب قسم الطوارئ وصف لي مريضاً بأنه في حالة ذعر شديد لأنه رأى كابوساً. فطلبت من الطبيب أن يبدأ بإعطائك دواء لإزالة الذعر، ورتبت لمقابلتك بعد ساعتين، عند الساعة السادسة. وعندما التقينا لم تتمكن من تذكّر الكابوس ولا أي شيء مما حدث الليلة السابقة. بمعنى آخر، لم يكن لديَّ محتوى، ولم يكن لديَّ شيء يمكنني أن أبدأ به عملي».

«هذا ما حدث. كان كل شيء في ذلك المساء إعتام تام».

«لذلك حاولت أن أعمل شيئاً، وأنا أتفق معك - لقد أحرزنا تقدماً بسيطاً. لكن خلال الساعات الثلاث التي أمضيناها معاً، أدهشني ابتعادك بشكل عام عن الآخرين،

وعني، وربما عن نفسك. أعتقد أن هذا البعد، وعدم شعورك بالارتياح من منهجي في معالجته، هو العامل الرئيسي الذي يحفزّ رغبتك على إنهاء العلاج.

«دعني أبدي لك ملاحظة ثانية: فقد أدهشني عدم فضولك تجاه نفسك. أشعر أنني يجب أن أشبع فضولنا كلينا، وأنني يجب أن أتحمّل عبء عملنا بأكمله وحدي».

«أنا لا أتعمّد أن أخفي عنك شيئاً يا دكتور. لماذا أفعل ذلك عمداً؟ طبيعتي هكذا»، كرر هالستون ذلك بأسلوبه الخشبي.

«لنحاول مرة أخيرة يا هالستون. سايرني هذه المرة. أريد أن تستعرض لي مرة أخرى أحداث اليوم الذي سبق المساء الذي رأيت فيه الكابوس. لنتفحّصه بدقة أسنان المشط».

«كما قلت لك، كان يوماً عادياً في البنك، ورأيت في تلك الليلة كابوساً فظيعاً، نسيته - نقلي إلى قسم الطوارئ...»

«لا، لا، لقد تحدثنا عن ذلك. لنجرّب منهجاً آخر. أخرج دفتر مواعيدك. لنرى». نظر إرنست في دفتر مواعيده، وقال: «كانت أول جلسة لنا في 9 أيار (مايو). راجع مواعيدك في اليوم الذي سبقه. ابدأ من صباح يوم 8 أيار».

أخرج هالستون دفتر مواعيده الأسبوعي، وقلب الصفحة إلى 8 أيار. رمش عينيه، وقال: «ميل فالي، لماذا كنتُ في

ميل فالي بحق السماء؟ آه، صحيح - أختي. أتذكّر الآن. لم أذهب إلى البنك في صباح ذلك اليوم. كنت أجري تحقيقاً في ميل فالي».

«ماذا تقصد بـأنك كنت تجري تحقيقاً؟»

«تعيش أختي في ميامي، وقد نقلتها شركتها إلى منطقة باي إيريا. كانت تفكر في شراء منزل في ميل فالي، واقترحت أن أقوم باستكشاف المدينة من أجلها - تعرف كيف تكون زحمة المرور في الصباح، ومواقف السيارات، والتسوّق، وأفضل المناطق السكنية».

«جيد. بداية ممتازة. والآن قل لي ما الذي جرى بقية اليوم».

«كل شيء ضبابي وغامض بشكل غريب - شيء غريب تقريباً. لا أستطيع أن أتذكّر أي شيء».

«إنك تعيش في سان فرانسيسكو، هل تتذكّر أنك قدت سيارتك إلى ميل فالي عبر جسر البوابة الذهبية؟ في أي ساعة؟»

«أظن كان ذلك في الصباح الباكر. قبل أن تزدحم حركة المرور. ربما الساعة السابعة».

«ثم ماذا؟ هل تناولت طعام الإفطار في البيت؟ أم في ميل فالي؟ حاول أن تصوّرها لي. دع عقلك يعود بحرية تامة إلى ذلك الصباح. أغمض عينيك إذا كان ذلك يساعدك».

أغمض هالستون عينيه. وبعد صمت دام ثلاث أو أربع دقائق، تساءل إرنست إن كان قد غطّ في النوم، فحثّه بصوت ناعم: «هالستون؟ هالستون؟ لا تتحرك، ابق حيث أنت، لكن حاول أن تفكّر بصوت عالٍ. ما الذي تراه في ذهنك؟»

«دكتور» - فتح هالستون عينيه ببطء - «هل حدّثتك عن أرتميس قبل الآن؟»

«أرتميس؟ الإلهة اليونانية ؟ لا ، لم تقل لي عنها ولا كلمة واحدة».

«دكتور»، قال هالستون وهو يرمش بعينيه ويهزّ رأسه كما لو كان يريد أن ينظفّه من شيء عالق فيه، «إني مضطرب قليلاً. لقد انتابتني للتو تجربة غريبة، كما لو أن صدعاً ظهر فجأة في دماغي وجعل كل الأحداث الغريبة التي جرت في ذلك اليوم تتدفق. لا أريد أن تظن أنني تعمّدت أن أخفي عنك هذه».

«اطمئن يا هالستون. أنا معك. بدأت تتحدّث عن أرتميس».

«حسناً، إني أرتب الأمور في رأسي، من الأفضل أن أبدأ من بداية ذلك اليوم اللعين، اليوم قبل أن أُنقل إلى قسم الطوارئ».

كان إرنست يحبّ القصص، فجلس مسنداً ظهره إلى الكرسي ممتلئاً بالترقب. كان لديه شعور قوي بأن هذا الرجل

الذي أمضى معه ثلاث ساعات مليئة بالحيرة، سيكشف له الآن عن مفتاح اللغز.

«حسناً يا دكتور، إنك تعرف أنني رجل عازب منذ ثلاث سنوات تقريباً، وأنا حذر قليلاً - لا، بل أكثر من قليل - من إقامة علاقة أخرى. قلت لك إن زوجتي السابقة ألحقت بي ضرراً نفسياً ومادياً كبيراً؟»

هزّ إرنست رأسه، ونظرة إلى ساعة الحائط. اللعنة، لم يبق من الوقت سوى خمس عشرة دقيقة. يجب أن يحثّ هالستون على أن يسرع إذا أراد أن يسمع هذه القصة. «وماذا عن أرتميس هذه؟»

«حسناً، نعم، لنعد إلى صلب الموضوع، شكراً. إنه أمر مضحك، لكن سؤالك عن وجبة الإفطار في صباح ذلك اليوم هو الذي أثار فيَّ شيئاً. بدأت تتضح الآن - توقفت لأتناول طعام الإفطار في مقهى في وسط بلدة ميل فالي، وجلست إلى طاولة كبيرة فارغة تتسع لأربعة أشخاص. ثم امتلأ المقهى بالزبائن، فجاءت امرأة وسألتني إن كان بإمكانها أن تجلس إلى طاولتي. رفعت عينيَّ إليها، وأعترف أنني أحببت كثيراً ما رأيته.

«كيف؟»

«امرأة بالغة الجمال، ذات ملامح رائعة، ترتسم على وجهها ابتسامة جذابة. أظن أنها تقارب عمري، في حوالي الأربعين، لكن لها جسد ممشوق، يشبه جسد فتاة مراهقة.

جسد، كما تقولون في الأفلام الأمريكية يمكن للمرء أن يموت من أجله».

عندما حدّق إرنست في هالستون، رأى هالستون شخصاً مختلفاً، مليئاً بالحيوية، وشعر بأنه بدأ يحبّه.

«أخبرني».

«عشرة على عشرة، تشبه الممثلة بو ديريك. خصر ضامر وصدر عامر رائع. يفضّل كثير من أصدقائي البريطانيين النساء الخنثويات، أما أنا فإني أعترف وأقرّ بذنبي بأنني مهووس بالثدي الكبير - ولا، يا دكتور، لا أريد أن أغيّر ذلك».

ابتسم إرنست يطمئنه. لم يكن تغيير عشق هالستون - أو عشقه هو - للأثداء مدرجاً في جدول أعماله.

«و...؟»

«حسناً، بدأنا نتحدّث. كان اسمها غريباً - أرتميس - وكانت تبدو... ماذا يمكنني أن أقول؟ حسناً... مختلفة، من نوع عصر جديد. لم تظهر طوال حياتي في البنك الذي أعمل فيه زبونة تشبهها. تصوّر أنها دهنت أفوكادو على شريحة البَيغل، ثم أخرجت من محفظتها عبوات بلاستيكية فيها بهارات وذرت فوقها ملح البحر وبذور اليقطين. أما الثوب الذي كانت ترتديه، فهو من أرقى المحلات في شارع كينغز روود في لندن - بلوزة موشاة بأزهار، وتنورة أرجوانية طويلة مزدانة بأزهار، وخول خصرها حزام من الحبل وسلاسل ذهبية فيها كمية كبيرة من الخرز. بدت أشبه بوردة متفتحة.

«لكنها»، تابع قائلاً، بدأت قصته تتدفق بقوة أكبر، «في الواقع، كانت امرأة متواضعة، على درجة عالية من الثقافة، ذربة اللسان. نشأت بيننا صداقة على الفور، وتحدّثنا طويلاً، حتى جاءت النادلة لتجهز الطاولة لطعام الغداء. لقد فُتنت بها ودعوتها لنتناول الغداء معاً مع أنه كان عندي موعد غداء عمل هام. لا داعي لأن أقول لك يا دكتور إن ذلك لم يكن من طبعي. في الواقع، كان معظم ما فعلته يخالف طبيعتي».

«ماذا تقصد يا هالستون؟»

«أشعر بالغرابة عندما أقول ذلك لأنني أعتبر هذا المكتب معقلاً للعقلانية، لكن كان هناك شيء غريب جداً يتعلق بأرتميس - كائن فضائي غريب ليس مصطلحاً قوياً لوصفها - بدا كما لو كنت تحت تأثير تعويذة. دعني أتابع. عندما قالت لي إنها لا تستطيع أن تتناول طعام الغداء معي لأن لديها التزاماً مسبقاً، سألتها: «وماذا عن العشاء هذه الليلة؟» - مرة أخرى حتى من دون أن أدقق في دفتر مواعيدي - فقالت: «بالتأكيد»، ودعتني لأن أتناول العشاء معها في بيتها، وقالت إنها تقيم وحدها، وستعدّ حساء فطر الشانتيريل الذي قطفته البارحة من الغابة في جبل تامالبايس.

«وهل ذهبت لتناول العشاء؟»

«هل ذهبت لتناول العشاء؟ بكل تأكيد. كانت واحدة من أعظم الأمسيات في حياتي. صمت قليلاً، وراح يهزّ رأسه كما فعل عندما عادت إليه ذاكرته، ثم تابع: «كان وجودي

معها شيئاً استثنائياً، رائعاً. فقد تدفق كلّ شيء بشكل طبيعي. عشاء أسطوري - يا لها من طاهية ماهرة. وكنت قد أحضرت معي أفخر نوع نبيذ في كاليفورنيا، كابيرنيه ستاغ ليب، وبعد أن تناولنا الحلوى بعد العشاء، كعكة فاكهة بريطانية فاخرة - أراها لأول مرة في هذا البلد - أحضرت قليلاً من الماريجوانا. تردّدت، لكنّي قلت في نفسي: 'عندما تكون في كاليفورنيا، عش كما يعيش سكان كاليفورنيا'، وأخذت أول نَفَسٍ في حياتي. ارتسمت على وجهه نظرة مرتبكة، وصمت هالستون.

«و...؟» حثثت إرنست.

«ثم، بعد أن رفعنا الأطباق عن الطاولة، بدأتُ أشعر بوهج دافئ وممتع». توقف آخر، وهزة رأس أخرى.

«و...؟»

«كان ذلك عندما حدث أغرب شيء في حياتي - فقد سألتني إن كنت أريد أن أرافقها إلى السرير. هكذا، بهذه البساطة، كما لو كان أمراً واقعاً. كانت طبيعية جداً، مهيبة جداً، ناضجة جداً. لم يكن هناك شيء من تلك الميلودراما الأمريكية النموذجية التي أكرهها «هل ستفعل أم لا؟»

يا إلهي، قال إرنست في نفسه. يا لها من امرأة؛ يا لها من أمسية. يا له من رجل محظوظ. ثم نظر مرة أخرى إلى الساعة، وقال يحث هالستون على أن يسرع: «قلت إنها واحدة من أعظم الأمسيات في حياتك، لكن إلى درجة؟»

«نعم. كان الجنس نشوة خالصة. لا يمكن وصفه. بعكس ما كنت أتخيّله طوال حياتي».

«ماذا تقصد لا يمكن وصفه خارق؟»

«ما يزال كل شيء ضبابياً بعض الشيء، لكنني أتذكر أنها كانت تلعقني مثل قطة صغيرة، كل سنتيمتر مربع في جسدي، من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ، حتى تفتّحت كلّ مسامات جسدي، ورحت أتوسل المزيد، وأحسست بخدر لذيذ، وأنا أستجيب للمساتها، للسانها، أجرع من رائحتها ودفئها». صمت، ثم قال: «أشعر بالحرج قليلاً من قول كلّ ذلك يا دكتور».

«هالستون، إنك تفعل تماماً ما يجب أن تفعله هنا. حاول أن تواصل كلامك».

«حسناً، ظلت المتعة تتصاعد بشكل لولبي. أقول لك لم يكن ذلك شيئاً دنيوياً. لقد اشتعل رأس... ماذا تقول؟... عضوي، وازداد لهيباً، حتى بلغتُ رعشة الجماع المتوهجة، ثم، أظن أنني غبت عن الوعي».

كان إرنست مذهولاً. هل هذا هو نفس الرجل المملّ المكبوت الذي أمضى معه تلك الساعات المملة؟

«ثم ماذا حدث يا هالستون؟»

«آه، كانت تلك نقطة التحول، عندما تغيّر كل شيء. فقد كان الشيء التالي الذي عرفته أنني وجدت نفسي في

مكان آخر. أدرك الآن أنه لا بد أن كل ذلك كان حلماً، لكنه كان حقيقياً جداً في ذلك الوقت إلى درجة أنه كان بإمكاني أن ألمس كل شيء يجري فيه وأحسّه وأشمّه. لكنه خبا وتلاشى، لكنني أتذكّر أن قطة عملاقة أخذت تطاردني في غابة - قطة منزلية بحجم وشقّ، لكنها شديدة السواد يوجد قناع أبيض حول عينيها الحمراوين المتلألئتين، ولها ذيل سميك وقوي، وأنياب ضخمة، ومخالب حادة مثل موسى الحلاقة. راحت تطاردني، ورأيت من بعيد امرأة عارية تقف في وسط بحيرة. كانت المرأة تشبه أرتميس. قفزت إلى البحيرة ورحت أخوض في الماء نحوها أطلب منها أن تساعدني. وعندما اقتربت منها اكتشفت أنها لم تكن أرتميس، وإنما روبوت له ثديان ضخمان يتدفق منهما حليب. وعندما اقتربت أكثر، رأيت أنه لم يكن حليباً، وإنما سائل مشّع متوهج. ثم أدركت بفزع أنني أقف حتى فخذيَّ في سائل يسبّب التآكل، وبدأت قدماي وساقاي تتآكل، فرحت أخوض في الماء بشكل محموم عائداً إلى اليابسة، لكنها ظلت هناك - تهسهس وتنتظرني - تلك القطة اللعينة التي ازداد حجمها - أصبحت كبيرة بحجم أسد. كان ذلك عندما اندفعت خارج السرير ورحت أركض لأنجو بحياتي. ارتديت ثيابي بسرعة وهبطت الدرج بسرعة. كنت ما أزال حافي القدمين عندما شغلّت السيارة. لم أكد أستطيع أن أتنفّس، فاتصلت بطبيبي من هاتف السيارة الذي طلب مني أن أتوجه مباشرة إلى قسم الطوارئ، ثم أحالوني إليك.

«وأرتميس؟»

«أرتميس؟ لا. لن أقترب منها مرة أخرى. إنها سمّ. حتى الآن، من مجرد الحديث عنها بدأ يتملكني ذلك الرعب. أظن أن هذا ما جعلني أدفن كل ذلك بعمق في باطن دماغي». فحص هالستون نبضه بسرعة، وقال: «انظر، بدأ يخفق بسرعة - ثمانية وعشرون نبضة في خمس عشرة ثانية - حوالي مائة واثنتي عشر نبضة».

«لكن كيف كان شعورك عندما هربت فجأة؟»

«لا أعرف. فقد كانت تغط في النوم بعد كل ما حدث».

«إذن نامت بجانبك وعندما استيقظت لم تجدك، وهي لا تعرف السبب الذي جعلك تذهب».

«وستبقى كذلك. أقول لك يا دكتور - كان ذلك الحلم من عالم آخر، من واقع آخر، من الجحيم».

«هالستون، يجب أن نتوقف هنا. لقد تأخرنا كثيراً، لكن من الواضح أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نعمل عليها. من الواضح جداً، مشاعرك تجاه النساء - تمارس الحبّ مع امرأة، ثم ترى تلك القطة التي تجسّد الخطر والعقاب، فتتركها وتذهب من دون أن تترك لها كلمة تفسّر ذهابك، ثم الثديان اللذان يعدان بالحنان لكنهما، بدلاً من أن يمنحا الحنان، ينفثان سمّاً. قل لي أين أنت من رغبتك في التوقف عن العلاج؟

«من الواضح حتى بالنسبة لي يا دكتور أن هناك أشياء كثيرة يجب استكشافها. هل نفس الوقت متاح الأسبوع المقبل؟»

«نعم. لقد أنجزنا عملاً جيداً اليوم. يسعدني يا هالستون، ويشرفني أنك وثقت بي لتتذكّر وتكشف لي عن هذه الحادثة الرائعة والمخيفة برمتها».

بعد ساعتين، بينما كان يسير باتجاه مطعم جاسمين، وهو مطعم فيتنامي يقع في شارع كليمنت يتناول فيه طعام الغداء في معظم الأحيان، وجد إرنست وقتاً ليفكّر في ما قاله هالستون. بصورة عامة، كان راضياً عن الطريقة التي تعامل بها مع رغبة هالستون لإنهاء جلساته العلاجية. ومع أن جدوله كان مليئاً، لم يشأ أن يدع مريضه يذهب. كان هالستون يسعى لأن يصل إلى شيء مهم، وكان إرنست يعرف أن أساليبه المنهجية، لكن ليست العدوانية، المُبالغ فيها، هي التي أنقذت الموقف اليوم.

إن الشيء المثير للاهتمام، قال إرنست لنفسه، كيف أن عدد المرضى الذين ينهون علاجهم قبل الأوان بدأوا يقلّون كثيراً، مع اكتسابه مزيداً من الخبرة. كم كان يشعر بالخوف، عندما كان معالجاً شاباً، أن يُنهي أحدهم علاجه، وكان يأخذ كل شيء على محمل شخصي، ويعتبر أن كل مريض يغادر العلاج قبل انتهائه بمثابة هزيمة شخصية له، ودليل على

عدم كفاءته، ووصمة عار أمام الآخرين. وشعر بالامتنان لمارشال الذي أشرف عليه وعلّمه أن ردة الفعل هذه تعني عدم الكفاءة. عندما يكون لدى المعالجين قدر كبير من الأنانية والغرور ويهيمنون على قرار المريض، عندما يحتاجون إلى أن يبقى المريض في العلاج، عندها يفقدون كفاءتهم: ويبدأون بالتملق والإغراء، ويعطون المرضى ما يريدون - أي شيء حتى يعودوا في الأسبوع القادم.

كان إرنست سعيداً أيضاً لأنه دعم هالستون وأثنى عليه بدلاً من أن يعبّر عن أي شكوك حول صحة القصّة الدرامية لتلك لأمسية التي أمضاها مع أرتميس. لم يكن إرنست متأكداً كيف يمكنه أن يقيّم ما سمعه. بالطبع، كان يعرف عن عودة الذكريات المكبوتة بشكل مفاجئ، لكن لم تكن لديه خبرة شخصية كبيرة بمثل هذه الظواهر في عمله السريري. وعلى الرغم من شيوعها نسبياً في حالات اضطراب ما بعد الصدمة، ناهيك عن تصوير هوليوود لأساليب العلاج، كان ذلك نادر الحدوث في العلاج النفسي اليومي الذي يجريه إرنست يومياً.

لكن دوافع تهنئة إرنست الذاتية مضت بسرعة بالإضافة إلى جميع أفكاره حول هالستون. إن ما لفت انتباهه حقاً هي أرتميس. فكلما فكّر في الأمر، ازداد رعباً من سلوك هالستون تجاهها. أي وحش يمكنه أن يمارس الحب، حباً رائعاً، مع امرأة ثم يتخلّى عنها من دون أن يفسّر لها سبب مغادرته، أو أن يترك لها رسالة، أو يكلّمها على الهاتف؟ إنه شيء لا يتقبله العقل.

شعر إرنست بالتعاطف مع أرتميس. كان يعرف كيف سيكون شعورها تجاهه. ففي أحد الأيام، منذ خمسة عشر عاماً، رتب موعداً في عطلة نهاية الأسبوع مع ميرنا، صديقة قديمة، في فندق في نيويورك. أمضيا ليلة جميلة معاً، أو هكذا خُيّل إلى إرنست. وفي الصباح، خرج لقضاء أمر مهم، وعندما عاد وبيده باقة أزهار كبيرة ليعبّر عن امتنانه لها، لم يجدها. فقد غادرت الفندق ولم تترك أثراً. حزمت حقائبها وهربت، ولم تترك له حتى رسالة، ولم تردّ على مكالماته الهاتفية أو على رسائله اللاحقة. لم يجد إرنست تفسيراً لمغادرتها المفاجئة. شعر بأنه مّدَّمر، ولم يتمكن العلاج النفسي من إزالة ألمه بالكامل، وحتى الآن، بعد مضي كلّ هذه السنوات، ما زالت ذكرى ذلك تؤلمه. وكان أكثر ما أثار غضب إرنست عدم معرفته سبب ذهابها بتلك الطريقة. أما أرتميس المسكينة: فقد أعطت الكثير لهالستون، وجازفت بنفسها، وفي النهاية عاملها بطريقة بشعة.

في الأيام القليلة التالية، لم يعد إرنست يفكّر في هالستون كثيراً، وإنما أصبح تفكيره مركّزاً على أرتميس التي تحولت في مخيلته إلى إلهة - جميلة، معطاءة، حنونة، لكنها مجروحة الخاطر - وقال في نفسه إن أرتميس امرأة تستحق التبجيل والتكريم والاعتزاز: وبدت له أن فكرة إهانة امرأة مثلها ليست إنسانية. فلا بد أنها تشعر بعذاب شديد لأنها لم تعرف ما الذي حدث، وكم عليها أن تتذكّر تلك الليلة، تحاول أن تفهم ما الذي قالته، وما الذي فعلته حتى هرب

هالستون، وأدرك إرنست أنه في وضع متميّز يمكّنه من مساعدتها. بالإضافة إلى هالستون، أنا الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقة ما جرى في تلك الليلة.

في أحيان كثيرة، كانت تغمر إرنست تخيّلات كبيرة بأنه ينقذ الفتيات التعيسات. كان يعرف ذلك. كيف لا يمكنه أن يعرف؟ فقد ذكّره بذلك محلله النفسي، أوليف سميث، والمشرف عليه، مارشال سترايدر، كثيراً. وقد لعبت تخيّلاته المنقذة دوراً في علاقاته الشخصية حيث كان يتجاهل غالباً إشارات التحذير لعدم وجود انسجام واضح في ما يفعله.

بطبيعة الحال، بينما كان إرنست يفكّر في إنقاذ أرتميس، كانت تتبادر إلى ذهنه أصوات محلله النفسي والمشرف عليه اللذين كان إرنست يستمع إلى انتقاداتهما ويقبلها - لكن إلى حد معين. وكان يعتقد في أعماقه أن تركيزه الشديد جعله يصبح معالجاً أفضل، وإنساناً أفضل. بالطبع، يجب إنقاذ النساء. إنها حقيقة بديهية تطورية، استراتيجية تقبع في جيناتنا من أجل بقاء النوع. كم كان خائفاً منذ فترة طويلة عندما اكتشف، في دروس التشريح المقارن، أن القطة التي كان يقوم بتشريحها حبلى تحمل في رحمها خمسة أجنة صغيرة جداً. وكان يكره أيضاً الكافيار، ربما لأنه لا يمكن الحصول عليه إلّا بذبح سمك الحفش الحامل ونهبه. أما الشيء المرعب، فقد كانت سياسة الإبادة النازية التي نقلت الرعب إلى النساء اللاتي يؤوين «بذور سارة».

ولم يشكّ إرنست قط في قراره بإقناع هالستون لأن يصحّح الخطأ الذي ارتكبه. «فكّر في الشعور الذي لا بد أنه انتابها،» سأل مريضه مراراً في الجلسات اللاحقة - حتى أجابه هالستون بغضب: «دكتور، أنا المريض وليست هي». أو أن يحثّ إرنست هالستون على أن يتبع حكمة الخطوتين الثامنة والتاسعة في برنامج التعافي المكوّن من اثنتي عشرة خطوة: اكتب قائمة بأسماء جميع الأشخاص الذين آذيتهم، وأصلح الضرر الذي لحق بهم كلما استطعت. لكن كل حججه، مهما صاغها بمهارة، لم تتمكن من زحزحة هالستون عن موقفه الذي بدا مستغرقاً في ذاته وقاسياً إلى درجة لا يمكن تصورها. وفي أحد الأيام، وبخّ إرنست لأنه يفتقر إلى المشاعر المرهفة، وقال له: «ألا ترى أنك تبالغ في إضفاء الطابع الرومانسي على هذا اللقاء العابر لليلة واحدة؟ فهذا أسلوبها في الحياة. فأنا لست أول رجل قابلته، وربما لن أكون أخر رجل. أؤكد لك يا دكتور أن بإمكان هذه السيدة أن تتدبر أمورها بنفسها».

تساءل إرنست إن كان هالستون قد تمسك بموقفه بدافع الحقد المطلق. لعله أحسّ بتورط معالجه النفسي بشكل زائد مع أرتميس وأنه ينتقم برفض جميع نصائح إرنست تلقائياً. لكن، في جميع الأحوال، بدأ إرنست يدرك أن هالستون لن يُصلح خطأه مع أرتميس، لذلك يجب عليه، هو إرنست، أن يضطلع بهذه المهمة. وعلى نحو غريب، وعلى الرغم من برنامجه المزدحم، لم يمانع في أن يأخذ هذه المهمة على

عاتقه التي اعتبرها ذلك ضرورة أخلاقية، وبدأ ينظر إليها لا باعتبارها حجر رحى وإنما رسالة يجب أن يؤديها. ومن الغريب أيضاً أن إرنست الذي يجلل ذاته إلى درجة كبيرة، ويُخضع كلّ نزوة من نزواته، وكلّ قرار من قراراته لفحص دقيق ومضجر، لم يشكك قط في دوافعه. وأدرك أنه يؤدي مهمة غير تقليدية وغير مشروعة - فمن هو ذلك المعالج الذي يأخذ على عاتقه إصلاح الأخطاء الشخصية التي يرتكبها مريضه؟

وعلى الرغم من إدراك إرنست بسرّية وحساسية مهمته، كانت الخطوات الأولى التي اتخذها خرقاء ومكشوفة: «هالستون، للمرة الأخيرة. دعنا نراجع لقاءك بأرتميس ونوع التواصل الذي أقمته معها».

«ليس مرة أخرى؟ كما قلت لك، كنت في مقهى عندما...»

«لا، حاول أن ترسم المشهد بحيوية ودقة كبيرة. صف لي المقهى. الزمن؟ موقع المقهى؟»

«حدث ذلك في بلدة ميل فالي، في الساعة الثامنة صباحاً تقريباً، في أحد تلك الأماكن المبتكرة الجذابة في كاليفورنيا - مكتبة ومقهى في آن معاً».

«ما اسمه؟» حثّ إرنست هالستون عندما صمت قليلاً، «صف لي كل شيء عن لقائك معها».

«دكتور، إني لا أفهم. لماذا كلّ هذه الأسئلة؟

«سايرني في هذ الأمر يا هالستون. إن رسم المشهد بحيوية ووضوح قد يساعدك على تذكّر جميع المشاعر التي انتابتك».

رداً على احتجاجات هالستون بأنه ليس مهتماً بتذكّر تلك المشاعر، ذكّره إرنست بأن تنمية مشاعر التعاطف هي الخطوة الأولى لتحسين علاقاته مع النساء. لذلك، فإن تذكُّر تجاربه وما يمكن أن تكون أرتميس قد شعرت به سيكون تمريناً قيماً. كان إرنست يعرف أن هذا مبرر واهٍ، لكنه معقول.

بينما استجاب هالستون وبدأ يحكي مطيعاً كلّ تفاصيل ذلك اليوم الحافل بالأحداث، أنصت إرنست باهتمام شديد، لكنه لم يعرف تفاصيل جديدة كثيرة. فقد عرف أن اسم المقهى «مستودع الكتب»، وأن أرتميس تحبّ الأدب - ورأى إرنست أنه ربما تكون هذه المعلومات مفيدة، وقالت لهالستون إنها تعيد حالياً قراءة الروائيين الألمان العظماء - مان وكلايست وبول - وأنها اشترت في ذلك اليوم نسخة من الترجمة الجديدة لكتاب «موزيل الرجل الذي بدون صفات».

ونتيجة شكوك هالستون المتزايدة، خفف إرنست من إلحاحه وأسئلته الكثيرة لكي لا يقول له مريضه في أي لحظة: «انظر، هل تريد عنوانها ورقم هاتفها أيضاً؟»

وهذا طبعاً ما كان إرنست يريده، لأن ذلك سيوفر عليه

وقتاً كثيراً، لكن على الرغم من ذلك، أصبحت لديه الآن معلومات كافية ليبدأ عمله.

بعد عدة أيام، في وقت مبكر من صباح يوم مشرق، انطلق إرنست إلى بلدة ميل فالي. ركن سيارته، ودخل مكتبة «مستودع الكتب». مسح بعينيه المكتبة الطويلة والضيقة التي كانت ذات يوم محطة قطار، ثم تفحّص المقهى المبهج الملحق بها، وعشرات الطاولات الخارجية القابعة تحت شمس الصباح. عندما لم يجد امرأة تشبه أرتميس التي وصفها هالستون، توجه إلى الكاونتر وطلب من النادلة ذات الأنف والشفتين المكتنزتين بَيغل عليها كمية كبيرة من البذور.

«بَيغل مع ماذا؟» سألته.

مسح إرنست بعينيه قائمة الطعام. لا يوجد أفوكادو. هل اختلق هالستون القصة؟ وقرر أخيراً أن يطلب طبقاً آخر من الخيار وكريمة الجبن بالأعشاب والثوم المعمّر.

عندما جلس إلى الطاولة، رآها تدخل إلى المقهى. بلوزة واسعة فضفاضة موشاة بالأزهار، وتنورة طويلة بلون الخوخ - لونه المفضّل - والخرز والسلاسل وكل شيء: لا بد أنها أرتميس. إنها أجمل مما كان يتصوّر. لم يذكر هالستون، أو لعله لم يلاحظ شعرها الذهبي البراق المصفوف على طراز وسط أوروبا، ملتفاً ومثبّتاً بمشبك صدفة سلحفاة في مؤخرة رأسها. ذاب إرنست: جميع عماته الجميلات من فيينا اللاتي كن أول من استثرن دافعه الجنسي عندما كان

مراهقاً، واللاتي كنّ يصففن شعرهن بهذه الطريقة. تأملها بسرعة عندما سجلت طلبها ودفعت عند الكاونتر. يا لها من امرأة - جميلة بجميع المقاييس: عينان زرقاوان فيروزيتان نفّاذتان، شفتان مكتنزتان، ذقن لها غمازة جميلة، طولها يقارب مائة وخمسة وستين سنتمتراً تنتعل صندلاً مسطحاً، لها جسد مثير متموّج ومتناسق تماماً.

جاء الآن الجزء الذي طالما يربك إرنست: كيف يفتح حديثاً مع امرأة؟ أخرج كتاب «الآثم المقدّس» لتوماس مان الذي اشتراه البارحة، وفتحه ووضعه على الطاولة بحيث يكون العنوان ظاهراً بوضوح. ربما تؤدي هذه المناورة إلى فتح حديث معها إذا وقع اختيارها على طاولة قريبة من طاولته. نظر إرنست حوله متوتراً في المقهى نصف الفارغ. طاولات كثيرة شاغرة. عندما مرّت من أمامه، هزّ رأسه، فهزّت أرتميس رأسها رداً على تحيته وهي متجهة إلى طاولة شاغرة، لكن بعد بضع ثوانٍ، يا لها من معجزة - رجعت إليه.

«أوه، الآثم المقدّس»، قالت غير مصدّقة عينيها، «يا لها من مفاجأة».

قَضمة! قَضمة! لكن إرنست لم يكن متأكداً من الطريقة التي يمكنه أن يستدرج فيها طريدته، فقال متلعثماً: «أنا... عفواً». كان مصدوماً - صدمة صياد سمك فاشل مستسلم ذُهل عندما شدّ خيط الصنارة. لقد استخدم الكتاب وسيلة

إغراء مرات لا تعد ولا تحصى لسنوات طويلة لكنه لم يحصل على قَضمة واحدة قط.

«هذا الكتاب»، قالت موضحة، «لماذا، لقد قرأت رواية «الآثم المقدّس» منذ سنوات، لكنني لم أر أحداً آخر يقرأها».

«أوه، أنا أحبّه، وأعود إلى قراءته كل بضع سنوات. أحبّ بعض أعمال مان القصيرة أيضاً وبدأت أعيد قراءة جميع أعماله، وقد بدأتُ بهذا الكتاب».

فقالت أرتميس: «أعدت للتو قراءة «الرأس المتحول»، ثم سألته، «ما هو الكتاب التالي في قائمتك؟»

«سأقرأها بترتيب اهتمامي بها. سيكون العمل التالي رباعية يوسف وإخوته، وربما بعده، فيليكس كرول، لكن»، نهض نصف واقفاً، وأضاف: «ألن تجلسي؟»

«والأخير؟» سألته أرتميس وهي تضع كعكة البَيغل والقهوة على الطاولة، وجلست أمامه.

«الجبل السحري»، أجاب إرنست من دون أن يُغفل أي تفصيل، ولم يبد دهشته الكاملة لأن صيده علق في المصيدة، أو عدم تأكده من الطريقة التي يمكنه أن يجذبها فيها إلى داخل المصيدة. «لم يتقدم به العمر كثيراً - أصبحت أحاديث سيتيمبريني التي لا تنتهي تبدو مملة بالنسبة لي الآن. وفي أسفل القائمة أيضاً، هناك الدكتور فاوست. أظن أن دراسة علم الموسيقى تقنية جداً، وأرى أنها مملة أيضاً».

«أتفق معك تماماً»، قالت أرتميس ومدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت ثمرة أفوكادو سوداء ناضجة وعدة عبوات بلاستيكية صغيرة مليئة بالبذور، «مع أنني لا أتوقف عن الإعجاب بالعلاقة بين نيتشه وليفركون».

«أوه، أنا آسف، لم أعرّفك على نفسي. أخذنا الحديث. اسمي إرنست لاش».

«أنا أرتميس،» قالت، وهي تقشّر ثمرة الأفوكادو، ودهنت نصفها في البَيغل، ثم ذرت فوقها بذوراً متنوعة.

«أرتميس. اسم جميل. كما تعرفين، أصبح الجو دافئاً خارج المقهى. ما رأيك في أن ننتقل إلى طاولة وننضم إلى توأمك؟» أدى إرنست مهمته على أكمل وجه.

«توأمي؟» تساءلت أرتميس وهما ينتقلان إلى طاولة تحت الشمس. «توأمي؟ آه، أبولو! أشعة الشمس الذهبية للأخ أبولو. إنك رجل غير عادي، لقد عشت طوال حياتي مع اسمي، وأنت أول شخص يقول لي ذلك».

فقال إرنست: «لكن كما تعرفين، يجب أن أعترف أنني قد أضع مان جانباً لبعض الوقت حتى أحصل على ترجمة ويلكنز الجديدة لكتاب مان «موزيل الرجل الذي بدون صفات».

«يالها من صدفة.» فتحت أرتميس عينيها على وسعهما، «فأنا أقرأ هذا الكتاب الآن»، ودسّت يدها في حقيبتها مرة أخرى وأخرجت كتاباً، وقالت: «إنه كتاب رائع».

منذ تلك اللحظة، لم ترفع أرتميس عينيها عن إرنست. في الواقع، ثبتت عينيها على شفتيه حتى راح إرنست يمسح شاربه كلّ بضع دقائق لا شعورياً خشية أن تكون قد علق فيه فتات طعام.

«أحبّ أن أعيش في مارين، لكن ليس من السهل أحياناً أن أُجري حديثاً جاداً مع أحد هنا»، قالت وقدّمت له شريحة أفوكادو، «ففي آخر مرة تحدّثت فيها عن هذا الكتاب كانت مع شخص لم يسمع عن موزيل في حياته».

«حسناً، ليس جميع الناس يحبون قراءة موسيل». يا له من أمر مؤسف، قال إرنست لنفسه، إن روحاً مثل أرتميس كان عليها أن تمضي وقتاً بصحبة هالستون الضيّق الأفق.

خلال الساعات الثلاث التالية، استعرضا بسعادة أعمال هاينريش بول وغونتر غراس وهاينريش فون كلايست. عندما اقتربت الظهيرة، نظر إرنست إلى ساعته، وقال لنفسه: يا لها من امرأة غير عادية. ومع أنه ألغى مواعيد جلساته الصباحية، توجد لديه خمس جلسات متتالية اعتباراً من الساعة الواحدة بعد الظهر. بدأ الوقت يمضي بسرعة. يجب أن يلتفت إلى العمل الحقيقي لهذا اليوم.

فقال: «يجب أن أغادر بعد قليل، رغماً عني لأن مرضاي بانتظاري. لا يمكنني أن أقول لك كم استمتعت بحديثنا هذا. لقد جعلتني أنسى نفسي. كنت بحاجة إلى هذا الحديث في هذه المرحلة من حياتي».

«كيف ذلك؟»

«كان وقتاً سيئاً»، قال إرنست وأطلق تنهيدة، آملاً أن تبدو كلماته التي تدرّب عليها عدة مرات الليلة الماضية عفوية، «منذ أسبوعين تقريباً، زرت صديقة قديمة لي. لم أرها منذ سنتين، وأمضينا أربعاً وعشرين ساعة رائعة معاً، أو هكذا خيّل إليّ. وعندما استيقظتُ في الصباح، كانت قد ذهبت. اختفت. لم أجد أثراً لها. أصبحتُ في حالة سيئة منذ ذلك الحين. كان تصرفها سيئاً جداً».

«هذا أمر مروع»، قالت أرتميس التي بدا أنها قلقة أكثر مما كان يأمله إرنست، «وهل كانت مهمة بالنسبة لك؟ هل كنت تأمل في أن تعيد علاقتك معها؟»

«لا»، تذكّر إرنست هالستون وكيف أنه يجب أن تكون مشاعرها تجاهه، «هذا ليس كل شيء تماماً. كانت - حسناً، ماذا يجب أن أقول؟ - أكثر من صديقة، صديقة جنسية. لذلك لست حزيناً لأنني فقدتها. لكن الألم الحقيقي هو أنني لم أعرف سبب ذهابها. هل فعلتُ شيئاً جعلها تهرب؟ هل جرحتُ مشاعرها بطريقة ما؟ هل قلت لها شيئاً؟ هل كنت حبيباً طائشاً؟ هل كنت غير مقبول لها؟ تعرفين ماذا أقصد. إن ذلك يثير أشياء سيئة كثيرة في نفسي».

فقالت وهي تهزّ رأسها بتعاطف: «أنا معك في ذلك. لقد حدث لي ذلك أيضاً، منذ فترة قريبة».

«حقاً؟ من المدهش كم يبدو أن لدينا أشياء مشتركة. ألا

ينبغي أن يحاول أحدنا شفاء الآخر؟ أن نكمل هذا الحديث في وقت آخر، على العشاء الليلة مثلاً؟»

«نعم، لكن ليس في مطعم، فأنا أحبّ الطهي، وقطفتُ البارحة بعض فطر شانتريل وسأعدّ طبق حساء فطر هنغاري. هل يمكنك أن تشاركني العشاء؟»

لم تمرّ ساعات العلاج ببطء شديد كما الآن. ولم يستطع إرنست أن يفكّر في شيء غير أرتميس التي فُتن بها، وأصبح يردد لنفسه: ركّز. ركّز على الجلسة. اكنس هذه المرأة من تفكيرك. لكن أرتميس رفضت أن تُكنس. فقد عشعشت في القشرة الأمامية من دماغه. كان هناك شيء غريب ومغرٍ يتعلق بأرتميس التي ذكرته بالملكة الأفريقية الخالدة التي لا تقاوم في رواية رايدر هاغارد. إنها هي.

لم يفت إرنست أنه كان يفكّر في مفاتن أرتميس أكثر مما كان يفكّر بتخفيف شعورها بالكآبة. إرنست، ركّز انتباهك على أولوياتك، قال يوبخ نفسه. ماذا تفعل؟ فهذا المشروع كله موضع ريبة حتى بدون أي مغامرة جنسية. إنك تطأ طبقة رقيقة من الجليد، تستمد معلوماتك من هالستون لتجد أرتميس، وتجعل نفسك معالجاً متنقلاً غير مدعو وتذهب إلى منزل امرأة غريبة جذابة. إنك مهووس بالعظمة، قال لنفسه محذّراً، وهذا شيء غير أخلاقي وغير مهني. انتبه، انتبه، انتبه.

«حضرة القاضي»، تخيّل صوت المشرف عليه ينبعث

من منصة الشهود، «إن الدكتور لاش طبيب جيد وأخلاقي ما عدا عندما ينجرف أحياناً وراء عاطفته، ويفكّر برأسه الصغير.

لا، لا، لا. قال إرنست معترضاً. إني لا أفعل شيئاً غير أخلاقي. فأنا أنوي أن أقوم بعمل نزيه، عمل خير. فقد تعمّد هالستون، مريضي، أن يجرح مشاعر شخص آخر جرحاً بليغاً، ولا أرى أنه ينوي أن يصلح ما أفسده. وأنا، وأنا فقط من يستطيع معالجة هذا الجرح ويمكنني أن أفعل ذلك بسرعة وكفاءة. ربما كان منزل أرتميس صغيراً وجميلاً مزخرفاً بزخارف رخيصة ومحاطاً بصف كثيف من أشجار العرعر - ربما كان مناسباً لأن يكون في الغابة السوداء في ألمانيا أكثر من مقاطعة مارين. استقبلته أرتميس عند الباب بكأس من عصير الرمان الطازج، واعتذرت لأنها لا تحوي في منزلها مشروبات كحولية، وقالت: «هنا منطقة خالية من المخدرات»، وأضافت، «ماعدا نبات الجانجا، العشبة المقدّسة».

ما إن جلس على الأريكة، كنبة مقلّدة من طراز لويس السادس عشر يكسوها غطاء مطرّز تحملها أرجل رمادية بيضاء أنيقة، عاد إرنست إلى موضوع التخلي والهجران. لكن مع أنه استخدم كلّ مهاراته لإغوائها، سرعان ما أدرك أنه بالغ في تقدير حالة كآبة أرتميس.

نعم، اعترفت بأنها مرّت بنفس التجربة التي مرّ بها إرنست، ولم يكن ذلك سهلاً عليها. لكنها كانت أقل إيلاماً

مما أوحت به: فقد اعترفت بأنها قالت ذلك بدافع التهذيب فقط، لتساعد إرنست على أن يتحدّث عن الصعوبات التي واجهها، وقالت إن رجلاً هجرها منذ فترة ليست بعيدة. ومع أنه ذهب من دون أن يقدّم لها أي تفسير عن سبب مغادرته بهذه الطريقة المفاجئة، فإنها لم تنزعج كثيراً من ذلك، لأن العلاقة بينهما لم تكن علاقة وطيدة، وقالت إنها متيقنة من أنها مشكلته أكبر من مشكلتها بكثير. نظر إرنست إليها بدهشة: فهذه المرأة أكثر اتزاناً مما كان يأمل. بعد أن استرخى قليلاً، خرج رسمياً من كونه معالجاً وبدأ يستمتع بما تبقى من تلك الأمسية.

كانت رواية هالستون الحماسية قد هيأت إرنست للأحداث القادمة. لكن سرعان ما اتضح أن هالستون كان قد قلل من شأن كلّ شيء، لا بل أساء تقديره. فقد كان الحديث مع أرتميس ممتعاً، وكان حساء فطر الشانتيريل معجزة صغيرة، وبقية الأمسية معجزة أكبر بكثير.

شاكاً بأن تكون تجربة هالستون ناجمة عن تناوله ذلك المخدّر، رفض إرنست أن يتناول الماريجوانا بعد العشاء الذي قدّمته له أرتميس. لكن حتى بدون الماريجوانا، بدا أن شيئاً غير عادي، يكاد يكون سريالياً بدأ يعتمل في نفسه. ففي أثناء العشاء، بدأ تدفق دافئ رائع يغمره من قمة رأسه حتى قدميه. مشاعر ممتعة من الماضي تدفقت إلى دماغه، تسللت كلّ منها من بوابة مختلفة. رائحة الخبز (كيتشل) الذي كانت أمّه تخبزه صباح كل يوم أحد، والإحساس بالدفء خلال

الثواني القليلة الأولى بعد أن يبلل سريره، وقبلته الأولى، وأول رعشة جماع انطلقت مثل طلقة مسدس عندما كان يستمني في حوض الحمّام ويتخيّل العمة هارييت وهي تخلع ثيابها؛ وعندما كان يتناول كعكة الآيس كريم الساخنة في محل هوت شوب في شارع جورجيا؛ والخفّة وانعدام الوزن عندما كان يركب تلك السفينة الدوارة في مدينة الملاهي في منتزه غلين إيكو، وعندما كان يلعب الشطرنج ويحرك قطعة الملكة التي يحميها أسقف ماكر، ويقول لأبيه «شاه موت» (كش ملك). كان إحساسه بالاستراق خلسة - الدفء والرطوبة في المنزل - قوياً جداً، وغامراً جداً، حتى لا يكاد يعرف أين هو لبضع لحظات.

«هل تريد أن نذهب إلى غرفة النوم في الطابق العلوي؟» أخرجه صوت أرتميس الناعم من حلم يقظته. إلى أين ذهب؟ تساءل هل يمكن أن يكون هناك شيء في الفطر الذي تناوله منذ قليل؟ هل أريد أن أصعد إلى غرفة النوم؟ إني مستعد لأن أتبع هذه المرأة إلى أي مكان. إنني أشتهيها كما لم أشته امرأة أخرى عرفتها في حياتي. ربما ليس الحشيش أو الفطر وإنما بعض الفيرومونات غير العادية. البصلة الشمّية تتناغم مع رائحة المسك التي تنبعث منها؟

ما إن أصبحا في السرير، حتى بدأت أرتميس تلعقه. بدأ كلّ مسام في جلده يتوهج ويُدغدغ حتى أحس أن جسده كلّه أصبح حاراً إلى درجة كبيرة. كلّ ضربة من لسانها جعلته

يصعد ويصعد حتى انفجر - لا بصوت طلقة حادة انطلقت من مسدس صغير، وإنما بصوت مدفع هاوتزر ضخم. وفي لحظة قصيرة من صفاء الذهن، لاحظ فجأة أن أرتميس قد غفت بجانبه. غمرته المتعة حتى كاد أن ينسى وجودها بجانبه، ولم يبذل جهداً لإمتاعها. وعندما مدّ يده ولمس وجهها، أحسّ أن خديها مبللان بدموع دافقة، ثم غطّ في أعمق نوم عرفه في حياته.

بعد قليل، استيقظ على صوت خربشة. في البداية، لم ير شيئاً في الغرفة الحالكة الظلام. لكنه عرف أن هناك شيئاً على غير ما يرام، شيئاً شنيعاً. شيئاً فشيئاً، عندما انحسر السواد، ضوء أخضر شبحي أضاء الغرفة بشكل مخيف. بدأ قلب إرنست يخفق بقوة، وانسلّ خارج السرير. ارتدى بنطاله بسرعة، وجرى نحو النافذة ليرى مصدر الخربشة. لكن كل ما استطاع أن يراه، يحدّق به، هو انعكاس وجهه. التفتَ ليوقظ أرتميس - لكنها اختفت. ازداد صوت الخربشة والخدش قوة. ثم سمع صوت مواء غريب، صوت يشبه صوت ألف قطة شبقة في موسم السفاد. بدأت الغرفة ترتج، قليلاً في البداية، ثم بمزيد من العنف. ارتفع صوت الخربشة، وازداد خشونة. ثم سمع صوت حصى ترتطم بالأرض، ثم أحجاراً أضخم، ثم تناهى إليه صوت انهيار جليدي صغير. بدا أن الضجيج ينبعث من وراء جدار غرفة النوم. اقترب إرنست من الجدار بحذر شديد، ورأى شقوقاً في الجدار، وقد تقشّر الجص، وراح يتساقط في كومة على السجادة. وسرعان ما أصبح يرى

الألواح الجصية. وبعد لحظات، ظهرت تحتها ألواح هيكل منزل خشبي عارية. صوت تحطم. اخترقها مخلب عملاق مليء بالمخالب.

رأى إرنست ما يكفي، لا بل رأى الكثير. أخذ قميصه وسار نحو الدرج. لكن لم يكن هناك درج ولا جدران ولا منزل. امتدت أمامه مساحة سوداء فسيحة تضيئها النجوم. راح يجري وسرعان ما وجد نفسه في غابة أشجار صنوبر باسقة. عندما سمع هديراً مدوياً، نظر إلى الخلف ورأى قطاً وحشياً بعينين حمراوين ناريتين - يشبه أسداً لكن لونه أسود وأبيض وأضخم حجماً بكثير. بحجم دب، له أسنان مثل سيوف بحجم نمر. أطلق ساقيه للريح. عملياً كان يطير، لكن صوت خبطات أقدام الوحش بدأت ترتفع وتزداد قرباً منه وهو يجري فوق أرض الغابة المكسوة بإبر أشجار الصنوبر. عندما رأى بحيرة، جرى نحوها. قال إرنست لنفسه إن القطط تكره الماء، وراح يخوض في مياه البحيرة. من بعيد، في وسط البحيرة الضبابي، سمع صوت ماء يتدفق. ثم رآها: أرتميس، واقفة لا تتحرّك في وسط البحيرة. يد مرفوعة عالياً مثل تمثال الحرية، وتحتضن باليد الأخرى أحد ثدييها الضخمين الذي بدأ، عندما أشارت إليه، يتدفق منه سيل جارف من الماء أو الحليب. لا، عندما اقترب أكثر، رأى أنه ليس حليباً وإنما سائل شفاف أخضر اللون. ولم يكن جسد أرتميس، وإنما روبوت معدني. ولم يكن يغمر البحيرة ماء، وإنما مادة حمضية، وبدأت قدماه وساقاه تتآكل. فتح فمه وحاول أن

يصرخ بكل ما أوتي من قوة: «ماما، ماما. ساعديني يا أمي» لكنه لم يسمع أي كلمة.

كان الشيء الذي عرفه إرنست بعد ذلك أنه أصبح في سيارته، مرتدياً نصف ثيابه، يضغط بقوة على دواسة البنزين باتجاه شارع مارين درايف مبتعداً عن منزل أرتميس في الغابة السوداء. حاول أن يركّز على ما جرى له، لكن الخوف شلّه. كم مرة كان يعظ مرضاه وطلابه بأن الأزمة لا تمثّل خطراً فقط، وإنما فرصة أيضاً؟ وكم مرة علّمهم أن القلق درب يؤدي إلى البصيرة والحكمة؟ وأن من بين كل الأحلام، فإن الكابوس هو الأكثر تعليماً؟ لكن على الرغم من ذلك، عندما وصل إرنست إلى بيته في راشن هيل، اندفع إلى الباب فوراً، ولم يتوجّه إلى دفتره مباشرة ليسجّل الحلم، وإنما هُرع إلى خزانة الأدوية وتناول قرصيّ أتيفان 2 مليغرام، الدواء القوي المضاد للقلق. لكن الدواء لم يجلب له الراحة أو النوم في تلك الليلة. وفي الصباح، ألغى جدول جلساته لذلك اليوم، وأجّل مواعيد المرضى الأكثر خطورة إلى مساء اليوم التالي.

أمضى فترة الصباح الباكر على الهاتف يتحدّث مع بعض أصدقائه المقربين عن تجربته، وبعد حوالي أربع وعشرين ساعة، بدأت حدة التشنج الرهيبة وضغط القلق في صدره يخفّان. كان التحدّث مع أصدقائه وعملية الاعتراف مفيدة مع أن أحداً منهم لم يفهم حقيقة ما حدث. حتى بول، أعزّ أصدقائه منذ أن كانا طبيبين مقيمين، كان بعيداً عن الواقع: وحاول إقناع إرنست بأن الكابوس نعمة، رسالة

تحذيرية تحذّر إرنست بأن يكون أكثر حذراً ويحترم الحدود المهنية.

فقال له إرنست مدافعاً عن نفسه بقوة: «تذكّر يا بول أن أرتميس ليست صديقة مريضي، ولم أتعمّد أن أستخدم مريضي ليجلب لي نساء، وأن نواياي سليمة المبادئ. ولم يكن هدفي للبحث عنها جسدياً، وإنما ببساطة لإصلاح الضرر الذي أحدثه مريضي لها. ولم أزرها بنية أن أمارس معها الجنس - لكن بدا من المستحيل أن أمنع ذلك من أن يحدث».

فأجابه بول بحزن: «لن يرى محامو الادعاء المسألة بهذا الشكل يا إرنست. إنهم سيفرمون لحمك».

ألقى مارشال، الذي كان يشرف على إرنست جزءاً من المحاضرة التحذيرية التي يلقيها عادة على طلابه: «حتى لو لم ترتكب أي خطأ، لا تضع نفسك في موقف توحي فيه صورة منك بأنك ارتكبت خطأً».

شعر إرنست بالأسف لأنه كلّم مارشال، ولم تعجبه فكرة الصورة، وإنما على العكس، فقد رأى أنه ليس من اللائق أن ننصح الأطفال بأن يتصرّفوا بحذر شديد لتفادي أي ادعاء كاذب قد يشوّه صورتهم في وسائل الإعلام.

في النهاية، لم يكترث إرنست كثيراً بنصيحة أصدقائه. فهم جبناء لا تهمهم سوى المظاهر الخارجية ويخشون من مقاضاتهم بتهمة سوء الممارسة. أما من المنظور الداخلي،

وهو المنظور المهم بالنسبة لإرنست، فقد كان مقتنعاً تماماً بأن تصرفه سليم.

بعد أربع وعشرين ساعة، عندما استعاد إرنست قدرته ورباطة جأشه، عاد إلى عيادته، وبعد أربعة أيام، رأى هالستون الذي قال إنه قرر أخيراً أن يُنهي جلسات العلاج. كان إرنست يعرف أنه خذل هالستون الذي لا بد أنه شعر بعدم قبول إرنست له. لكن شعور إرنست بالذنب لأنه لم يعالجه بطريقة جيدة لم يدم طويلاً، لأنه بعد أن ودّع هالستون بقليل، تجلّت لإرنست رؤيا مذهلة: فخلال الاثنتين وسبعين ساعة الماضية، منذ مكالمته الهاتفية مع بول ومارشال، نسي وجود أرتميس تماماً، ونسي الفطور الذي تناوله معها، وكلّ ما حدث بعد ذلك. ولم تعد تخطر بباله. يا إلهي، قال لنفسه، لقد تصرّفت بتلك الطريقة البغيضة التي تصرّف بها هالستون، وتركتها حتى من دون أن أترك لها كلمة تبرير واحدة، وحتى أنني لم أكلّف نفسي بأن أكلمها على الهاتف أو أراها.

خلال ما تبقى من ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، راودت إرنست نفس الظاهرة الغريبة: فقد حاول مراراً أن يفكّر في أرتميس، لكنه لم يستطع أن يحافظ على تركيزه، وكان عقله يسرح بعيداً بعد بضع لحظات، ويبدأ يفكّر في مواضيع ليست مهمة. وفي وقت متأخر من مساء اليوم التالي، قرر أن يكلمها بالهاتف، وبعد جهد كبير، تمكّن من العثور على رقمها والاتصال بها.

«إرنست! هل هذا أنت حقاً؟»

«طبعاً هذا أنا. لقد تأخرت كثيراً، تأخرت أياماً. لكن ها أنا ذا». صمت إرنست قليلاً لأنه توقع أنها غاضبة، لكن نبرتها اللطيفة فاجأته، ثم أضاف: «يبدو أنك فوجئت بمكالمتي».

«كثيراً. فلم يخطر ببالي أنني سأسمع صوتك مرة أخرى».

«يجب أن أراكِ. «تبدو الأمور غير حقيقية، لكن نبرة صوتك أيقظتني. لدينا أشياء كثيرة يجب أن نفعلها: لديَّ الكثير من الاعتذار، والكثير من التبرير، والكثير من المسامحة».

«طبعاً سأراك. لكن بشرط واحد. من دون تبرير أو مسامحة، لا توجد حاجة إليهما».

«على العشاء غداً؟ الساعة الثامنة؟»

«حسناً. سأعدّ الطعام».

«لا»، تذكّر إرنست شكوكه حول حساء فطر الشانتيريل، «دوري الآن. أنا سأجلب العشاء».

وصل إرنست إلى بيت أرتميس حاملاً وجبات الطعام الجاهزة التي اشتراه من مطعم نانكينغ، وهو مطعم صغير في كيرني، فيه أسوأ ديكور في سان فرانسيسكو، وأفضل طعام صيني. وضع أطباق الطعام المختلفة على الطاولة وهو يعدّد

لأرتميس محتويات الطعام في كل طبق، لكنه فوجئ عندما قالت له إنها نباتية ولن تتمكن من تناول العديد من الأطباق التي جلبها، بما فيها طبق الدجاج مع الخس اللذيذ ولحم البقر مع الفطر. وشكر إرنست ربه بصمت لأنه يوجد طبق من الأرز وبراعم البازلاء المطبوخة على البخار وفطائر نباتية.

«لديَّ بعض الأشياء التي أريد أن أقولها لك، ولا يُعرف عني أنني شخص متحفّظ»، قال لها عندما جلسا إلى طاولتها، «إذ يقول جميع أصدقائي إنني صريح بشكل قهري، لذلك أحذّرك...»

«تذكّر الشروط التي قلتها لك»، قالت أرتميس ووضعت يدها على ذراع إرنست، «لا توجد حاجة للاعتذارات والتبريرات».

«لست متأكداً إن كان بإمكاني أن أنفذّ هذه الشروط يا أرتميس. كما قلت لك في تلك الليلة، فإني آخذ عملي كمعالج بجدية تامة. هكذا أنا، هكذا هي حياتي، ولا يمكنني أن أشغلّها وأوقفها كما أريد، لذلك فإني أشعر بألم شديد للضرر الذي ألحقته بك. لقد تصرّفت بطريقة غير إنسانية. أن نمارس الحبّ - حبّ جميل، حبّ لم أتخيّل أن يكون ممكناً - ثم أغادر من دون أن أقول لك كلمة واحدة. لا يمكنني أن أبرر ذلك - لا يمكنني أن أصف ما حدث بطريقة أخرى - لقد تصرفت بطريقة غير إنسانية. لا بد أن طيشي دمرك. لا بد أنك تساءلت مرات ومرات أي نوع من الرجال أنا، ولماذا عاملتك بهذه الطريقة الدنيئة».

«كنت قد أخبرتك إنني لا أكترث لهذه الأشياء. بالطبع انزعجت، لكنّي أتفهم كلّ ذلك يا إرنست»، وأضافت بنبرة جادة، «أعرف لماذا تركتني في تلك الليلة».

«تعرفين؟» قال إرنست مازحاً عندما وجد سذاجتها ساحرة، «لا أظن أنك تعرفين كما تظنين أنك تعرفين عن تلك الليلة».

فقالت بحزم: «أنا متأكدة من أنني أعرف أكثر بكثير مما تظن».

«أرتميس، لا يمكنك حتى أن تتخيّلي ما الذي حدث لي في تلك الليلة. كيف عرفت؟ لقد تركتك بسبب حلم، رؤية مروعة وشديدة الخصوصية. ما الذي يمكنك أن تعرفي عنها؟»

«أعرف كل شيء يا إرنست. أعرف عن القطة والماء السام والتمثال في وسط البحيرة».

«إنك تثيرين خوفي يا أرتميس»، صاح إرنست، «كان هذا حلمي. فالأحلام مجال خاص، الملاذ الأشدّ خصوصية لكلّ شخص. كيف عرفتي ماذا حلمت؟»

جلست أرتميس ولبثت صامتة، مطرقة رأسها تحدّق في أرضية الغرفة.

«توجد أسئلة عديدة أخرى يا أرتميس. عمق مشاعري في تلك الأمسية - ذلك التوهج السحري، تلك الشهوة التي

لا تقاوم. لم أشأ أن أسلب منك شيئاً ومن سحرك، لكن تلك الشهوة كانت جارفة بشكل غير طبيعي. هل يمكن أن تكون كيميائية؟ ربما بسبب فطر الشانتيريل؟»

أطرقت أرتميس رأسها أكثر.

«وعندما كنا في السرير، لمستُ خدك. لماذا كنت تبكين؟ كان شعوري رائعاً. ظننت أنه كان شعوراً متبادلاً. لماذا الدموع؟ لماذا الألم الذي كان ينتابك؟

«لم أكن أبكي من أجلي يا إرنست، وإنما من أجلك أنت. ولم يكن ذلك بسبب ما حدث بيننا - فقد كان رائعاً بالنسبة لي أيضاً. لا، كنت أبكي من أجل ما كان سيحدث لك».

«سيحدث لي؟ هل جننتُ؟ هذا الأمر يزداد سوءاً يا أرتميس، قولي لي الحقيقة».

«لا أظن أن الحقيقة سوف ترضيك يا إرنست».

«جربيني. ثقي بي».

نهضت أرتميس واقفة، وغادرت الغرفة، ثم عادت بعد قليل وبيدها مجلد من ورق الرقّ. استلّت منه حزمة من الأوراق القديمة التي اصفرّ لونها، ثم قالت وهي ترفعها أمامه: «الحقيقة؟ الحقيقة موجودة هنا، في هذه الرسالة التي كتبتها جدّتي منذ زمن طويل إلى أمّي ماغدة، مؤرخة في 13 حزيران (يونيه) 1931. هل أقرأها لك يا إرنست؟»

هزّ رأسه. وعلى ضوء ثلاث شموع بينما كان الطعام الذي تفوح منه روائح شهية ينتظر في أطباقه، أنصت إرنست إلى قصّة جدّة أرتميس، القصّة وراء حلمه.

> إلى ماغدة، ابنتي العزيزة، في عيد ميلادها السابع عشر، آملة ألّا تكون هذه الرسالة متأخرة جداً أو مبكرة جداً.

لقد آن الأوان لتعرفي الإجابات على الأسئلة المهمة في حياتك. من أين أتينا؟ لماذا اقتُلعت من جذورك مرات عديدة؟ من هو أبوك وأين هو؟ لماذا أرسلتك ولم أبقيك معي؟ يجب أن تعرفي كل شيء عن تاريخ العائلة الذي أكتبه لك هنا، وتنقليه إلى بناتك.

ولدتُ ونشأتُ في يوجيبست التي تبعد عن بودابست بضعة أميال. كان أبي، يانوس، جدّك، يعمل ميكانيكياً في مصنع كبير لتجميع الحافلات. انتقلت إلى بودابست عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، وكان ذلك لأسباب عديدة. أحدها أن بودابست توفر للنساء الشابات مثلي وظائف أفضل، أما السبب الرئيسي، فإني أشعر بالخجل لأن أخبرك ذلك عن أسرتك، وهو أن أبي كان مثل حيوان يفترس طفلته. وقد تحرّش بي مرات كثيرة عندما كنت صغيرة غير قادرة على أن أدافع عن نفسي، وسلبني عذريتي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري. كانت أمّي تعرف ذلك لكنها تظاهرت بأنها لا تعرف ورفضت أن تدافع عني. عندما ذهبت إلى بودابست

عشت مع عمي لازلو، شقيق أبي، والعمة يوليسكا التي رتبت لي عملاً كمساعدة لها في المنزل الذي تعمل فيه طاهية. تعلّمتُ الطهي والخَبزَ، وبعد عدة سنوات، أخذتُ مكان العمة يوليسكا عندما أصيبت بالسل. عندما ماتت العمة يوليسكا في السنة التالية، بدأ العم لازلو يتصرّف كما كان يتصرّف أبي وطلب مني أن أحلّ مكان العمة يوليسكا في السرير. لم أتحمّل ذلك، فانتقلت إلى بيت آخر وعشت وحدي. في كل مكان، كان الرجال مفترسين كالحيوانات. كانوا جميعهم، الخدم الآخرون، وعامل التوصيل، والجزار، يبدون تعليقات بذيئة وينظرون إليّ نظرات شهوانية ويحاولون أن يلمسوا جسدي كلّما مررت بجانبهم، حتى صاحب المنزل حاول أن يضع يده تحت تنورتي.

انتقلت إلى بيت في شارع 23 فاسي أوت في وسط بودابست بالقرب من نهر الدانوب، وعشت وحدي في السنوات العشر التالية. كان الرجال يرمقونني بنظراتهم ويلمسونني حيثما ذهبت، وحميت نفسي وانكفأت على نفسي، وجعلت عالمي أصغر فأصغر. لم أتزوج وعشت حياتي الصغيرة السعيدة مع قطتي سيكا. ثم انتقل وحش، يدعى السيد كوفاكس، إلى الشقة في الطابق العلوي ومعه قطّه، ميرغيس التي تعني باللغة الهنغارية «الغاضب» (لفظت أرتميس الاسم بالطريقة الهنغارية: مير - غيش)، وكان هذا الاسم ينطبق تماماً على ذلك الوحش. كان قطاً شريراً بشعاً، أبيض وأسود اللون جاء من جهنم مباشرة وأرعب قطتي

المسكينة سيكا التي كانت تعود في أحيان كثيرة إلى البيت مليئة بالجروح والدم ينزف منها، وفقدت إحدى عينيها عندما أصيبت بعدوى، وقُطعت نصف إحدى أذنيها.

كان كوفاكس يثير في الرعب، فحصّنت أبواب منزلي في الليل وأغلقت مصاريع النوافذ لأنه كان يتجول خارج المنزل ويتلصص من كلّ شقّ. وكلما التقينا في بهو البناية، كان يحاول أن يرغم نفسه عليَّ، فحرصت على أن أتجنب طريقه لكي لا أصادفه. لكن كلّ ذلك لم يجدِ نفعاً. لم أستطع أن أشتكي لأحد، فقد كان كوفاكس سارجنت في الشرطة. رجل وضيع وجشع. سأخبركِ أي نوع من الرجال هو. في إحدى المرات، وضعت كبريائي جانباً وتوسلت إليه لأن يبقي ميرغيس داخل البيت لمدة ساعة واحدة كل يوم كي تخرج قطتي سيكا بأمان، فقال ساخراً: «لا توجد مشكلة في ميرغيس، فأنا وقطي يشبه أحدنا الآخر. كلانا نريد الشيء نفسه - كسّ هنغاري حلو. نعم، كان سيوافق على أن يُبقي ميرغيس في المنزل مقابل ثمن. وكان الثمن أنا.

كانت الأمور سيئة، لكن كلما دخلت سيكا مرحلة الشبق، ازدادت الأمور سوءاً. فلم يكن كوفاكس يقوم بجولته المعتادة حول نوافذ بيتي ويطرق بابي فقط، وإنما يصبح ميرغيس هائجاً: يصرخ طوال الليل، يموء، يخدش جدار بيتي، ويلقي بنفسه على نوافذ بيتي.

كما لو أن ميرغيس وكوفاكس لم يكونا وباءً كافياً،

كانت بودابست موبوءة أيضاً في ذلك الوقت بجرذان نهر الدانوب الضخمة التي اجتاحت الحيّ الذي أعيش فيه، وكانت تلتهم صناديق البطاطا والجزر المخزنة في القبو، وتذبح الدجاج في الفناء الخلفي. في أحد الأيام، ساعدني صاحب البيت على وضع قفص لاصطياد الجرذان في القبو. في تلك الليلة، سمعتُ صئيلاً شريراً. عندما هبطت الدرج على ضوء الشموع، تملكني الخوف. ماذا سأفعل بالجرذ أو الجرذان التي اصطدتها؟ ثم، بنور الشمعة الوامضة، رأيت القفص، ينظر من بين قضبانه، أكبر وأفظع جرذ رأيته في حياتي، أو أتخيّله في أسوأ أحلامي. صعدت الدرج بسرعة وقررت أن أطلب المساعدة عندما يستيقظ صاحب المنزل. لكن بعد ساعة، مع بزوغ الفجر، جازفتُ وعدتُ إلى القبو لألقي نظرة أخرى. لم يكن جرذاً، وإنما أسوأ بكثير - كان القط ميرغيس. ما إن رآني حتى هسهس وبصق وحاول أن يخدشني عبر قضبان القفص بأنيابه. يا إلهي، يا له من وحش. عرفت ما الذي يجب أن أفعله، فألقيت عليه والسعادة تغمرني إبريقاً مليئاً بالماء. عندما ظل يهسهس، رفعت تنورتي وقفزت من الفرح ثلاث مرات حول القفص.

لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ ما الذي كان يجب أن أفعله مع ميرغيس الذي راح يزعق ويغني أغنية شريرة؟ ثمة شيء في داخلي اتخذ قراراً لا أعرف ما هو. لأول مرة في حياتي، سأتخذ موقفاً. من أجلي، ومن أجل النساء في كل مكان. سأقاوم وأدافع عن نفسي. غطيت القفص ببطانية قديمة،

ورفعته من المقبض، وخرجت به ـ كانت الشوارع ما تزال فارغة، ولم يكن أحد قد استيقظ بعد، وتوجهت إلى محطة القطار. اشتريت تذكرة إلى إزترغوم التي تبعد حوالي ساعة، لكن عندما رأيت أن المسافة ليست بعيدة جداً، قررت أن أقطع الطريق إلى زيجيد التي تبعد حوالي مائتي كيلومتر. عندما نزلت من القطار مشيت بضعة شوارع، ثم توقفت، ورفعت الغطاء عن القفص لأطلق ميرغيس.

عندما نظرت إليه، رمقني بعينيه بوحشية - عينان حادتان مثل شفرة حلاقة - ارتجف جسدي كله. كان ثمة شيء في نظرته المتوحشة، الحاقدة، القاسية، فعرفت حينها، بيقين غريب، أنني أنا وسيكا لن نتحرر منه أبداً. يُعرف أن الحيوانات تعود إلى موطنها حيثما كانت في أنحاء القارة. مهما كانت المسافة التي أخذت ميرغيس إليها بعيدة، فإنه سيعود. سوف يتعقبنا من أقاصي الأرض. فأخذت القفص وسرت بضع ساحات أخرى حتى وصلت إلى نهر الدانوب. مشيت حتى منتصف الجسر، وانتظرت حتى لم يبق هناك أحد، وألقيت القفص في الماء. طفا القفص قليلاً، ثم بدأ يغوص في الماء. وبينما بدأ يغوص في الماء، ظل ميرغيس ينظر إليَّ ويموء ويهسهس. أخيراً جعله نهر الدانوب يهمد، وانتظرت حتى لم أعد أرى فقاعات تتصاعد إلى سطح الماء حتى وصل إلى مثواه الأخير في قعر النهر، فأصبحت في مأمن إلى الأبد من ذلك القط الجهنمي. ثم استقللت القطار وعدت إلى البيت.

في طريق العودة، فكّرت في كوفاكس، وفي انتقامه، وتملكني الرعب. عندما عدت، كانت نوافذه ما تزال مغلقة. كان يعمل في ذلك الوقت في الليل، وكان ينام أثناء النهار في غياب ميرغيس، ولم يعرف التحدي الذي تحديته به. لأول مرة في حياتي شعرت أنني حرة.

لكن لم يدم ذلك طويلاً. ففي تلك الليلة، بعد أن غططت في النوم بساعة أو ساعتين، سمعت ميرغيس يزمجر في الخارج. بالطبع كان ذلك حلماً، لكنه حلم ينبض بالحيوية وملموس كثيراً، وكان واقعياً أكثر من حياتي أثناء اليقظة. سمعت ميرغيس وهو يخربش وفتح ثقباً في جدار غرفة نومي. عندما حدّقت في الجدار الذي بدأ يتمزّق، رأيت مخلبه يمتد إلى غرفة النوم. كان هناك مزيد من الخربشة والحفر وبدأ الجص يتقشّر ويتساقط في غرفتي، ثم اندفع ميرغيس إلى داخل غرفة نومي. كان في البداية قطاً كبيراً، ثم بدأ يكبر حتى أصبح حجمه ضعف حجمه القديم، لا بل ثلاثة أضعاف. كان مبللاً، وما تزال مياه نهر الدانوب القذرة تقطر منه، وبدأ يكلّمني.

تجمّدت كلمات الوحش في عقلي، فهسهس قائلاً: «أنا عجوز أيتها العاهرة القاتلة، وقد عشت حتى الآن ثماني حيوات من حياتي، وبقيت لي حياة واحدة، وأقسم بأنني سأخصصها للانتقام منك. سأسكن في بُعد الحلم، وسأطاردك في أحلامك أنتِ ونسلك إلى الأبد. فقد أبعدتني عن سيكا إلى الأبد، سيكا الفاتنة، عشق حياتي، وسأحرص الآن على

أن تنفصلي إلى الأبد عن أي رجل يُبدي اهتماماً بك. «سأزورهم عندما يكونون معك» - وهنا هسهس برعب شديد - «وسوف أطردهم منك وأبثّ الذعر في نفوسهم حتى لا يعودوا إليك مرة أخرى - سوف ينسون وجودك ذاته».

في البداية اعتراني شعور بالبهجة. قط غبي. فالقطط في نهاية الأمر حيوانات ساذجة رأسها بحجم الدبوس. لا يوجد لدى ميرغيس فهم حقيقي لي. انتقامه الذكي - بأنني لن أكون مع رجل مرتين. هذا ليس انتقاماً وإنما نعمة، نعمة لا يفوقها إلّا منعي من أن أكون مع رجل حتى لمرة واحدة. ألّا ألمس رجلاً أو حتى أراه مرة أخرى، فإن هذه هي الجنة بالنسبة لي.

لكني سرعان ما اكتشفت أن ميرغيس لم يكن ساذجاً - وإنما كان بعيداً كل البعد عن ذلك. فهو يستطيع أن يقرأ الأفكار. إني متيقنة من ذلك. جلس على مؤخرته وداعب شاربه، وحدّق بي بعينيه الحمراوين الضخمتين طويلاً، ثم قال، هذه المرة بصوت إنسان غريب، مثل صوت قاض أو نبي: «إن ما تشعرين به تجاه الرجال سيتغير إلى الأبد. ستعرفين الآن الشهوة. ستصبحين مثل قطة، وعندما تأتي شهوتك كلّ شهر، لا يمكن مقاومة شهوتك. لكنها لن تتحقق أبداً. سوف تمتعين الرجال لكنك لن تستمتعي أبداً، وكلّ رجل تمنحيه المتعة سيهجرك، ولن يعود أو حتى لن يتذكّرك. ستنجبين طفلة، وستعرف هي وطفلتها وطفلة طفلتها ما أشعر به أنا وكوفاكس، وسيكون ذلك إلى الأبد».

«إلى الأبد؟» سألته، «إنه حكم طويل الأمد؟»

فأجاب: «إلى الأبد». «هل توجد جريمة أعظم من جريمة إبعادي عن حبّ حياتي إلى الأبد؟»

غمرني الذعر فجأة، وبدأت أرتجف وأتوسل من أجلك، ابنتي التي لم تولد بعد. «أرجوك عاقبني أنا يا ميرغيس. فأنا أستحق ذلك لما فعلته لك. أستحق حياة بلا حبّ. أما من أجل أطفالي وأطفالهم، فإني أتوسل إليك». وانحنيت أمامه وضغطت جبهتي على الأرض.

«لا يوجد سوى منفذ واحد من أجل بناتك، لكن لا شيء من أجلك».

فسألته: «وما هو ذلك المنفذ؟»

فقال ميرغيس وبدأ يلعق - بلسان أضخم من يدي - مخالبه الوحشية وينظّف وجهه القبيح: «أن تصحّحي الخطأ الذي ارتكبتيه».

«أصحّح الخطأ؟ كيف؟ ماذا يجب أن يفعلن؟» واقتربت منه متوسلة.

لكن ميرغيس أطلق هسهسة ولوّح بمخالبه المكشوفة. وعندما تراجعت، اختفى. كانت تلك المخالب الرهيبة آخر شيء رأيته منه.

هذه هي، يا ماغدة لعنتي. لعنتنا التي قادتني إلى الخراب. فقد تملكتني شهوة جامحة وبدأت أجرى وراء

الرجال. خسرت عملي، ولم يعد أحد يوظفني، وطردني صاحب المنزل. لم تبق لديّ وسيلة للحياة سوى أن أبيع جسدي. وبسبب ميرغيس، لم يعد الرجال الذين ينامون معي مرة يقتربون مني، ولم يحتفظوا بذكريات عني، وإنما ذكرى رعب غامض يرتبط بلقائنا. ولم تمض فترة طويلة حتى بدأ الجميع يكرهونني في بودابست. لم يصدّقني أي طبيب. حتى الطبيب النفسي الشهير ساندور فيرينزي لم يتمكن من مساعدتي. وتحدّث عن مخيلتي المحمومة، مع أنني أقسمت له بأنني أقول الصدق. وطلب مني أن أقدم له دليلاً على ذلك، شاهد، علامة. لكن كيف يمكنني أن أقدّم له دليلاً؟ فلم يكن بوسع أي رجل أحببته أن يتذكّرني أو يتذكّر الحلم. قلت لفيرينزي إن بإمكانه أن يحصل على دليله إذا أمضى معي ليلة واحدة فقط ويرى ذلك بنفسه. كنت قد لجأت إليه بسبب شائعة بأنه يمارس «العلاج بالتقبيل»، لكنه لم يقبل دعوتي. وبعد أن تملكني اليأس، هاجرت أخيراً إلى نيويورك، راجية ألّا يتمكن ميرغيس من عبور الماء.

تعرفين باقي القصة. فقد حملتُ بك بعد سنة. لم أعرف قط من هو والدك. أصبحتِ تعرفين الآن السبب. وأصبحتِ تعرفين الآن السبب الذي جعلني لم أبقيك معي وجعلني أرسلك إلى مدرسة بعيدة. بعد أن عرفتِ ذلك يا ماغدة، يجب أن تقرري ما الذي ستفعلينه عندما تتخرجين. بالطبع يمكنك أن تأتي لزيارتي دائماً في نيويورك. مهما كان قرارك، سأواصل إرسال نقود إليك كلّ شهر. لكنني لا أستطيع أن

أساعدك في الأمور الأخرى. فأنا لا أستطيع حتى أن أساعد نفسي.

«أمك كلارا

طوت أرتميس الرسالة بعناية، وأعادتها إلى مجلد الرقّ، ثم نظرت بحماسة إلى إرنست، وقالت: «أصبحت الآن تعرف جدّتي، وتعرفني».

أُخذ إرنست بهذه القصّة غير العادية التي سمعها للتو، وهبّت عليه نفحة من رائحة التوابل الصينية النفاذة المُسكرة. عندما كانت تقرأ الرسالة، لم يرفع عينيه عن البخار المتصاعد من أطباق الطعام خلسة، ومع أن كان جائعاً، فقد تمالك نفسه وقاوم الطعام. هذا يكفي الآن. مرّر طبق براعم البازلاء إلى أرتميس وغرز عيدان الطعام في لحم البقر بالفطر.

«وماذا عن أمك يا أرتميس؟» سألها إرنست وهو يقضم راضياً فطر الشيتاكي المقرمش قليلاً، لكن اللذيذ.

«ذهبت إلى دير لكنهم طردوها بعد عدة سنوات بسبب تجوالها الليلي. ثم امتهنت مهنة جدّتي. وأرسلتني إلى مدرسة بعيدة، وعندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، انتحرت. جدّتي التي عاشت عشرين سنة بعد موت أمي هي التي أعطتني هذه الرسالة».

«وصفة ميرغيس لإزالة اللعنة - تصحيح الخطأ - هل عرفت يوماً ماذا يعني ذلك؟»

«احتارت جدّتي وأمّي في هذا الأمر لسنوات، لكنهما لم تحلّا اللغز أبداً. استشارت جدّتي طبيباً آخر وهو الدكتور بريل، طبيب نفسي مشهور في نيويورك، لكنه اعتبر أنها منفصلة عن الواقع. وكان تشخيصه لها بأنه ذُهان هستيري، ونصحها بأن تأخذ علاج وير للراحة - استراحة تامة في مصحة لمدة سنة أو سنتين - وبالنظر إلى موارد جدتي المالية وطبيعة لعنة ميرغيس، فمن الواضح أن الدكتور الذكي هو المنفصل عن الواقع».

عندما بدأت أرتميس ترفع الأطباق عن الطاولة، أوقفها إرنست، وقال: «يمكننا أن نفعل ذلك فيما بعد».

«ربما يا إرنست»، قالت أرتميس بصوتها العميق المتوتر، «بعد أن انتهى العشاء الآن، لعلك تريد أن نصعد إلى الطابق العلوي»، ثم أضافت بعد أن صمتت قليلاً: «أصبحت تعرف الآن أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ألّا أسأل هذا السؤال».

«عفواً»، قال إرنست ونهض واقفاً واتجه نحو الباب الخارجي.

«وداعاً إذاً»، قالت أرتميس من وراءه، «أعرف. إني أفهم ذلك تماماً. أرجوك لا داعي لتقديم أعذار والشعور بالذنب».

«ماذا تعرفين يا أرتميس؟» سألها إرنست ونظر إلى الوراء من الباب المفتوح، «إلى أين أنا ذاهب؟»

«إنك ذاهب بأسرع ما يمكنك، ومن يستطيع أن يلومك؟ فأنا أعرف لماذا أنت ذاهب، وأنا أتفهم ذلك يا إرنست».

«كما ترين يا أرتميس، كما قلت لك من قبل، إنك لا تعرفين بقدر ما تظنين أنك تعرفينه. سأذهب إلى سيارتي التي تبعد عشرين قدماً فقط لأُحضر حقيبتي الليلية».

عندما عاد، كانت تستحمّ في الطابق العلوي. نظّف مائدة الطعام، وأغلق علب الطعام المتبقي، ثم صعد الدرج يحمل بيده حقيبته.

أثبتت الساعة التالية في غرفة النوم شيئاً واحداً وهو أن السبب ليس حساء فطر الشانتيريل. جرى كلّ شيء كما جرى من قبل. الشهوة الدافئة العارمة، واللعق كالقطة، وذلك اللسان الحسّي الشهواني، وتلك الأسهم النارية التي بدأت تتصاعد ببطء حتى بلغت ذروتها النارية، والشموع الرومانية المتوهجة، وهدير مدافع الهاوتزر. لبضع لحظات، تراءت لإرنست ذكريات غير عادية: فقد تدفقت في جسده جميع هزّات الجماع السابقة في حياته، وسنوات تشنجات الاستمناء في راحتيْ يديه والمناشف والأحواض، ثم رؤية موكب العاشقات ذوات الصدور العارمة، وأوعية العزاء الجميلة التي فرّغ فيها كلّ هموم حياته. شكر وامتنان عميق، ثم سواد عندما غطّ في نوم الأموات.

استيقظ إرنست على صوت مواء ميرغيس الصاخب. مرة أخرى شعر أن الغرفة تهتزّ، وعاد صوت الخربشة والكشط

على الحائط. بدأ يرتجف من الخوف، لكنه غادر السرير بسرعة، وهزّ رأسه بقوة، وأخذ نَفَساً عميقاً، وبهدوء فتح النافذة على مصراعيها، وانحنى إلى الخارج، وصاح: «من هنا، من هنا، يا ميرغيس. وفرّ مخالبك. النافذة مفتوحة».

حلّ صمت مفاجئ، ثم قفز ميرغيس وراح يمزّق الستائر الكتانية الرقيقة، ثم بدأ يدور حول إرنست وهو يموء ويهسهس، رافعاً رأسه، عيناه الحمراوان متوهجتان، ناشباً مخالبه.

«إني أنتظرك يا ميرغيس. هل يمكنك أن تجلس من فضلك؟» جلس إرنست في كرسي ضخم مصنوع من الخشب الأحمر بجانب منضدة السرير، والظلام يخيمّ على كلّ شيء وراءها. فاختفى السرير وأرتميس والغرفة كلها.

توقف ميرغيس عن الهسهسة. رفع رأسه ونظر إلى إرنست، البصاق يقطر من أنيابه، عضلاته متشنجة.

مدّ إرنست يده إلى حقيبته، وقال وهو يفتح بعض علب الطعام التي جلبها إلى الطابق العلوي: «ألن تأكل شيئاً يا ميرغيس؟»

نظر ميرغيس بحذر إلى أول علبة طعام. «فطر لحم البقر. أنا أكره الفطر. لهذا السبب فهي تعدّها دائماً. حساء فطر الشانتيريل» قال هذه الكلمات الأخيرة في نبرة غنائية ساخرة عالية، ثم كررها: «حساء فطر الشانتيريل! حساء فطر الشانتيريل».

«مهلاً، مهلاً»، قال إرنست بتلك النبرة المهدّئة التي يستخدمها أحياناً في جلسات العلاج، «دعني أنتقي لك قطع لحم البقر. يا إلهي، أنا آسف جداً. كان بإمكاني أن أجلب لك سمك القدّ المشوي، أو بطة بكين، لا بل حتى كرات لحم هونان، أو ربما لحم الخنزير شو ماي، أو دجاج بيغار. أو لحم البقر مينغ. أو...»

«حسناً، حسناً»، زمجر ميرغيس، وأخذ قطع لحم البقر والتهمها كلّها في لقمة واحدة.

تابع إرنست قائلاً بتردد: «أو كان بإمكاني أن أجلب لك مأكولات بحرية، وقريدس مملح، وسلطعون كامل مشوي، و...»

«كان بإمكانك، كان بإمكانك، كان بإمكانك، لكنك لم تفعل، أليس كذلك؟ وحتى لو كنت قد فعلت، فماذا يعني ذلك؟ هل هذا ما تظنه؟ أن أشياء تافهة كهذه يمكن أن تصلح الخطأ؟ وأنني سأرضى ببقايا طعام؟ وأنني لست سوى شهية متوحشة؟»

حدّق ميرغيس وإرنست في أحدهما الآخر للحظة بصمت، ثم أومأ ميرغيس برأسه نحو العلبة التي فيها دجاج مشوي وكزبرة في أكواب الخسّ، وسأله: «وماذا يوجد في هذه؟»

«إنه يُسمّى دجاج رولينغ. إنه لذيذ. هيا، دعني أن أنتقي لك قطع الدجاج».

«لا، اتركها كما هي»، قال ميرغيس وانتزع العلبة من يد إرنست، «أنا أحب الأشياء الخضراء لأنني أتحدّر من عائلة بافارية من أكلة العشب. من الصعب أن تجد عشباً جيداً غير مبلل ببول الكلاب». والتهم ميرغيس الكزبرة والدجاج ثم لعق أكواب الخس ولم يترك فيها شيئاً، ثم قال: «ليست سيئة. إذاً كان بإمكانك أن تجلب وجبة سلطعون مشوي؟»

«أتمنى لو كنت قد جلبتها، لكنني جلبت عدة وجبات من اللحم، ثم اكتشفت أن أرتميس نباتية».

«نباتية؟»

«النباتية هي التي لا تأكل منتجات حيوانية ولا حتى منتجات الألبان».

«لذلك هي غبية وقاتلة عاهرة أيضاً. وأذكّرك مرة أخرى أنك غبي أيضاً إذا كنت تظن أنك تستطيع أن تصلح الخطأ بالتودد إلى معدتي».

«لا، يا ميرغيس، لا أظن ذلك. لكنّي أتفهم تماماً سبب شكوكك بي أو بأي شخص يقترب منك بطريقة ودية. فلم تُعامل معاملة جيدة طوال حياتك».

«حيوات - وليست حياة واحدة. لقد عشت ثماني حيوات، وانتهت كلّ حياة منها، بدون استثناء، بنفس الطريقة - بقسوة وقتل لا يمكن وصفهما. انظر إلى حياتي الأخيرة. لقد قتلتني أرتميس. وضعتني في قفص ورمتني في النهر،

ورأتني أغرق ببطء حتى غطّت مياه نهر الدانوب القذرة أنفي. كان آخر شيء رأيته في تلك الحياة نظرة الانتصار التي كانت ترمقني بها وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة. وهل تعرف ما هي جريمتي؟»

هزّ إرنست رأسه.

«جريمتي هي أنني قط».

«ميرغيس، أنت لست قطاً عادياً. أنت قط فائق الذكاء. أرجو أن أكلمك بصراحة».

زأر ميرغيس الذي كان يلعق أطراف علبة الدجاج المشوي الفارغة، موافقاً.

«يجب أن أقول شيئين اثنين. الأول، طبعاً فأنت تدرك أن أرتميس ليست هي التي أغرقتك وإنما جدّتها كلارا التي ماتت منذ سنوات طويلة. والثاني...»

«بالنسبة لي لها نفس الرائحة، أرتميس هي كلارا في حياة أخرى. ألا تعرف ذلك؟»

بوغت إرنست بهذا الكلام، وشعر أنه يحتاج إلى وقت ليمعن التفكير في هذه الفكرة، أكمل قائلاً: «الثاني، كلارا لم تكن تكره القطط. كانت في الواقع تحب قطة. لم تكن امرأة قاتلة: لقد تصرّفت معك بهذه الطريقة لأنها كانت تحاول أن تنقذ حياة قطتها العزيزة سيكا».

لم يحر جواباً. سمع إرنست صوت تنفّس ميرغيس.

وتساءل هل أنا شديد المواجهة، لا أظهر قدراً كافياً من التعاطف؟ ثم قال بلطف: «لكن، أظن أن هذا لا صلة له بموضوعنا. أظن أننا يجب أن نلتزم بما قلته قبل دقيقة، وهو أن جريمتك الوحيدة هي أنك قط.

«صحيح. لقد فعلت ما فعلته لأنني قط. فالقطط تحمي أرضها، وتهاجم القطط الأخرى وتهددها، وأفضل القطط - تلك المفعمة بصفات القطط - التي لا تدع شيئاً، لا شيء يقف في طريقها عندما تشم رائحة المسك اللطيفة لقطة شبقة. لم أكن أفعل شيئاً أكثر من إرضاء قطتي».

جعل تعليق ميرغيس إرنست يتوقف قليلاً. ألم يكن ميرغيس يطابق مقولة نيتشه التي يفضّلها إرنست: «كن من أنت؟» أليس ميرغيس على حق؟ ألا يحقق ببساطة قدراته القططية؟

بدأ إرنست يقول: «كان هناك فيلسوف مشهور، أي رجل حكيم أو مفكّر...»

«أعرف ما هو الفيلسوف»، قاطعه القط بفظاظة، «في إحدى حيواتي الأولى، عشت في فرايبورغ وكنت أزور منزل مارتن هايدغر في الليل».

«هل تعرف هايدغر؟» سأله إرنست مندهشاً.

«لا، لا. قطة هايدغر، زانثيبي. كانت قطة مثيرة. بالمقارنة مع زانثيبي لم تكن سيكا شيئاً. كان ذلك منذ

حيوات عديدة سابقة، لكنّي أتذكر جيداً ذلك الجيش من المتنمرين التيوتونيّين ذوي الوزن الثقيل الذين كنت أضطر إلى محاربتهم لكي أصل إليها. كان القطط يأتون من ماربورغ عندما تكون زانثيبي شبقة. آه، كم كانت أياماً سعيدة».

«حسناً، دعني أنهي وجهة نظري يا ميرغيس»، حاول إرنست ألّا يدع أفكاره تشتت، «كان الفيلسوف الشهير الذي أفكّر فيه - وهو ألماني أيضاً - يقول غالباً إن على المرء أن يصبح نفسه، وعليه أن يحقق مصيره المقدّر له أو يحقق إمكاناته. أليس هذا ما كنت تفعله بالتحديد؟ كنت تحقق صفاتك القططية الأساسية. أين الجريمة في ذلك؟»

عندما قال إرنست كلماته الأولى، فتح ميرغيس فمه ليحتج، لكنه عاد وأغلقه ببطء عندما أدرك أن إرنست يوافقه الرأي، بدأ ينظّف نفسه بلسانه.

وتابع إرنست قائلاً: «لكن توجد مفارقة إشكالية - تضارب أساسي في المصالح - وهي أن كلارا كانت تفعل تماماً ما الذي كنت تفعله: تصبح نفسها. فقد كانت تعتني بقطتها وتحميها ولم يكن يعنيها أي شيء آخر في العالم. كانت تريد حماية قطتها سيكا والحفاظ على سلامتها. لذلك، كانت تصرفات كلارا كلّها في خدمة تحقيق طبيعتها المحبّة الأساسية».

«همبففف»، همهم ميرغيس ساخراً، «هل تعرف أن كلارا رفضت أن تعاشر سيدي كوفاكس الذي كان رجلاً قوياً

جداً؟ فقط لأن كلارا تكره الرجال، وكانت تفترض أن سيكا أيضاً تكره القطط الذكور. لذلك لا توجد مفارقة. فلم تتصرف كلارا لصالح سيكا، وإنما لصالح أوهامها بما تريده سيكا. صدّقني، عندما كانت سيكا تدخل في مرحلة الشبق، كنت أجدها مثيرة، لكن كلارا امرأة قاسية إلى درجة لا توصف وأبعدت أحدنا عن الآخر».

«لكن كلارا كانت تحرص على حياة قطتها سيكا التي كانت تصاب بجروح خطيرة».

«جروح؟ جروح؟ إنها مجرد خدوش. فالقط يخيف القطة ويخضعها. يصارع القطط الذكور الأخرى بمخالبه. بهذه الطريقة نتودد إلى القطط، هذا هو سلوك القطط. إننا قطط. من هي كلارا، ومن أنت، حتى تحكمان على القطط وتدينهما؟»

تراجع إرنست عن موقفه، وقرر أن ذلك لم يجد نفعاً، فجرّب مساراً آخر، وقال: «ميرغيس، منذ بضع دقائق قلت إن أرتميس وكلارا هما نفس الشيء، لذلك بقيت تطارد كلارا».

«أنفي لا يكذب».

«في إحدى حيواتك الأولى التي متَّ فيها، هل بقيت ميتاً لفترة من الوقت قبل أن تدخل حياة أخرى؟»

«للحظة فقط. ثم ولدتُ في حياة أخرى. لا تسألني كيف. هناك أشياء حتى القطط لا تعرفها».

«ومع ذلك، فأنت متأكد من أنك تعيش حياة واحدة، ثم تتوقف عن الوجود، ثم تدخل حياة أخرى. صحيح؟»

«نعم، نعم، واصل كلامك هذا» زأر ميرغيس، مثل جميع الذين يعيشون الحيوات التسع كلها، لم يكن لديه سوى القليل من الصبر في المناقشات الدلالية التافهة.

«لكن بما أن أرتميس وجدّتها كلارا كانتا تعيشان في نفس الوقت، وتحدّثتا مع بعضهما عدة مرات، فكيف يمكن أن تكون أرتميس وكلارا نفس الشخص في حياة مختلفة؟ هذا غير ممكن. لا أقصد التشكيك في أنفك، لكن ربما كنت تستشعر العلاقة الجينية بين المرأتين».

«فكّر ميرغيس بصمت في تعليق إرنست وواصل تنظيف نفسه، يلعق كفّه الضخم ويفرك وجهه الرطب.

«كنت أفكّر للتو يا ميرغيس، هل من الممكن أنك لا تعرف أن لدينا نحن البشر حياة واحدة فقط؟»

«كيف يمكنك أن تكون متأكداً هكذا؟»

«حسناً، هذا ما نعتقده. وأليس هذا هو الشيء المهم؟»

«ربما لديكم أرواح عديدة وأنتم لا تعرفون ذلك».

«تقول إنك تتذكّر حيواتك الأخرى، في حين نحن لا نتذكرها. فإذا كانت لدينا حيوات جديدة ولا نتذكّر الحيوات القديمة، فإن ذلك يعني أن هذه الحياة - هذه «الأنا» الموجودة، الوعي الموجود هنا الآن - ستهلك وتموت».

«النقطة! النقطة»، زمجر الوحش، «قلها. يا إلهي، كم تتكلّم وتتكلّم وتتكلّم».

«النقطة المهمة هي أن انتقامك كان فعالاً جداً. إنه انتقام قوي. فقد دمّر ما تبقى من حياة كلارا الوحيدة، وعاشت في بؤس شديد، وجريمتها أنها قتلت إحدى حيواتك التسعة فقط. حياتها الوحيدة مقابل واحدة من حيواتك التسع. أظن أن الدَيْن قد سُدِّد عدة مرات. اكتمل انتقامك. أصبح اللوح نظيفاً. لقد صُحِّح الخطأ». مبتهجاً بعباراته المقنعة، استند إرنست إلى ظهر كرسيه.

«لا»، هسهس ميرغيس، وراح يأزر ويضرب الأرض بذيله القوي، «لا، لم يكتمل. لم يكتمل. والخطأ لم يُصحَّح. سيستمر الانتقام ولن يتوقف. بالإضافة إلى أنني أحبّ الطريقة التي تمضي بها هذه الحياة».

لم يتراجع إرنست. أخذ استراحة للحظة أو لحظتين، ثم التقط أنفاسه وبدأ يحاول من منظور آخر.

«إنك تقول إنك تحب الطريقة التي تمضي بها حياتك الآن. هل يمكنك أن تحدثني عن حياتك؟ كيف يبدو يومك النموذجي؟»

بدا أن أسلوب إرنست الهادئ قد أراح ميرغيس الذي لم يعد يجأر، وجلس على وركيه، وأجاب بهدوء، «يومي؟ هادئ. لا أتذكّر أشياء كثيرة من حياتي».

«ماذا تفعل كل يوم؟»

«أنتظر. أنتظر حتى يناديني الحلم».

«وبين الأحلام؟»

«قلت لك. أنتظر».

«أهذا كل شيء؟»

«أنتظر».

«وهذه هي حياتك يا ميرغيس؟ وهل أنت راضٍ؟»

هزّ ميرغيس رأسه، ثم قال وهو يتمدد برشاقة وبدأ ينظّف بطنه: «عندما تفكّر في البديل».

«البديل؟ هل تقصد عدم العيش؟»

«الحياة التاسعة هي الحياة الأخيرة».

«وتريد أن تستمر هذه الحياة الأخيرة إلى الأبد».

«ألا تريد ذلك؟ ألا يريد الجميع ذلك؟»

«ميرغيس، أنا مندهش من التناقض في كلامك».

«القطط كائنات منطقية إلى درجة كبيرة. في بعض الأحيان لا يتم تقدير ذلك بسبب قدرتنا على اتخاذ قرارات سريعة بسرعة البرق».

«هذا هو التناقض. تقول إنك تريد أن تستمر حياتك التاسعة إلى الأبد، لكنك في الحقيقة لا تعيش حياتك

التاسعة. إنك موجود فقط في حالة حيوية معلقة».

«ألا أعيش حياتي التاسعة؟»

«قلتَ ذلك بنفسك: إنك تنتظر. سأقول لك ما الذي يتبادر إلى ذهني. قال أحد علماء النفس المشهورين ذات يوم إن بعض الناس يخشون دَيْن الموت إلى درجة أنهم يرفضون ما تُقرضهم إياه الحياة».

«ماذا يعني ذلك؟» تكلّم بوضوح»، قال ميرغيس الذي توقف عن تنظيف بطنه وجلس على وركيه.

«هذا يعني أنك تبدو شديد الخوف من الموت إلى درجة أنك لا تريد أن تدخل إلى الحياة. يبدو كما لو أنك تخشى أن تعيش الحياة. هل تذكر ماذا علمتني منذ بضع دقائق عن الخصائص الأساسية للقطط؟ قل لي يا ميرغيس أين هي المنطقة التي تدافع عنها الآن؟ أين هم القطط الذكور الذين تتعارك معهم؟ أين هن القطط الإناث الشهوانيات اللاتي يصدرن هريراً واللاتي تُخضعهن؟» سأله إرنست، مشدداً على كلّ كلمة قالها: «ولماذا، تترك بذور حيواناتك المنوية الثمينة تتعفن وتفسد من دون أن تستخدمها؟»

بينما كان إرنست يتكلّم، أطرق ميرغيس برأسه، ثم سأل بشيء من الحزن: «وهل لديك حياة واحدة فقط؟ وإلى أين وصلت بها؟»

«في منتصف الطريق تقريبًا».

«كيف يمكنك أن تتحمّل ذلك؟»

فجأة أحس إرنست بوخزة حزن حادة. مدّ يده وتناول منديلاً من العشاء الصيني، ومسح عينيه به.

«أنا آسف»، قال ميرغيس بلطف غير متوقع، «لأنني سببت لك ألماً».

«لا، أبداً. كنت مستعداً لذلك»، قال إرنست، «إن هذا التحوّل في حديثنا حتمي. سألتني كيف أستطيع أن أتحمّل ذلك؟ حسناً، أولاً وقبل كل شيء، بعدم التفكير فيه. والأكثر من ذلك، فإنني أنساه في بعض الأحيان. في العمر الذي بلغته الآن، لم يعد ذلك صعباً».

«في العمر الذي بلغته الآن؟ ماذا يعني ذلك؟»

«نحن البشر نعيش الحياة في مراحل. عندما نكون أطفالاً صغاراً جداً، نفكّر في الموت كثيراً، حتى أن بعضنا يصبحون مهووسين بالتفكير فيه. ليس من الصعب اكتشاف الموت. بكل بساطة ننظر من حولنا ونرى أشياء ميتة: أوراق الأشجار والزنابق والذباب والخنافس. الحيوانات الأليفة تموت. نأكل الحيوانات الميتة. في بعض الأحيان، نعلم بوفاة أحدهم، وسرعان ما ندرك أن الموت سيطال الجميع: جدّتنا، والدتنا ووالدنا، وحتى نحن أنفسنا. إننا نفكر بذلك وحدنا. يظن آباؤنا ومعلمونا أنه من السيء أن يفكّر الأطفال في الموت، فيلتزمون الصمت بشأنه أو يحكون لنا حكايات خرافية عن السماء والملائكة، ولمّ الشمل الأبدي، والأرواح

الخالدة». صمت إرنست، راجياً أن ينصت إليه ميرغيس باهتمام.

«ثم؟» كان ميرغيس ينصت إليه جيداً.

«إننا نلتزم بذلك. نطرده من عقولنا، أو نتحدّى الموت علناً بمآثر عظيمة من الجرأة، ثم، قبل أن نصبح بالغين بفترة قصيرة، نفكّر فيه كثيراً من جديد. على الرغم من أن البعض لا يستطيعون تحمّله ويرفضون مواصلة الحياة، لكن معظمنا نطمس وعينا بالموت ونشغل أنفسنا في أعمال الكبار: تكوين أسرة، بناء مهنة، النمو الشخصي، حيازة ممتلكات، ممارسة السلطة، الفوز في السباقات. هذا هو المكان الذي أنا فيه الآن في الحياة، وبعد هذه المرحلة، نلج المرحلة الأخيرة من الحياة، حيث يعود الوعي بالموت إلى الظهور مرة أخرى، ويصبح الموت تهديداً واضحاً - في الواقع، وشيكاً. في تلك المرحلة، يصبح لدينا خيار التفكير فيه كثيراً وتحقيق أقصى استفادة من الحياة التي لا تزال أمامنا أو أننا نتظاهر بطرائق مختلفة بأن الموت لن يأتينا أبداً.

«وماذا عنك أنت نفسك؟ هل تتظاهر في نفسك بأن الموت لن يأتي؟»

«لا، لا أستطيع أن أفعل ذلك. بما أنني أتحدّث في عملي كطبيب نفسي إلى أشخاص كثيرين ينتابهم قلق شديد عن الحياة والموت، فلا بد لي أن أواجه هذه الحقيقة طوال الوقت».

«إذن دعني أسألك مرة أخرى» - فقد صوت ميرغيس الذي أصبح الآن ناعماً ومرهقاً، نبرة التهديد فيه - «كيف يمكنك أن تتحمّل ذلك؟ كيف يمكنك أن تستمتع بأي جزء من الحياة، بأي نشاط فيها، والموت يلوح في الأفق أمامك ولا توجد لديك إلّا حياة واحدة؟»

«سأعكس هذا السؤال رأساً على عقب يا ميرغيس. ربما يجعل الموت الحياة أكثر حيوية وأكثر قيمة. إن حقيقة الموت تضفي تأثيراً خاصاً، وتمنح خاصية حلوة مرّة على أنشطة الحياة. نعم، قد يكون صحيحاً أن العيش في بُعد الحلم يمنحك الخلود، لكن حياتك تبدو لي غارقة في الملل. عندما طلبت منك منذ قليل أن تصف لي حياتك، أجبت بجملة واحدة: 'إني أنتظر.' هل هذه حياة؟ هل الانتظار حياة؟ بقيت لديك حياة واحدة يا ميرغيس. لماذا لا تعيشها على أكمل وجه؟

«لا أستطيع، لا أستطيع»، قال ميرغيس وقد أحنى رأسه أكثر، «إن فكرة ألّا يعود لي وجود، أو لا أكون موجوداً بين الأحياء، أو أن الحياة تستمر بدوني، هي - ببساطة فكرة فظيعة جداً».

«لذلك فإن الهدف من اللعنة ليس الانتقام الدائم، أليس كذلك؟ إنك تستخدم اللعنة لتتجنب الوصول إلى نهاية حياتك الأخيرة».

«ببساطة من الفظيع جداً أن ننتهي. ألّا تكون موجوداً».

فقال إرنست وقد مدّ يده وربّت على كفّ ميرغيس الضخم: «لقد تعلّمت في عملي أن الذين يخافون الموت أكثر من غيرهم هم الذين يقتربون منه وفي داخلهم الكثير من حياة لم يعيشوها. من الأفضل أن نستفيد من الحياة كلها، وألّا نترك للموت سوى الثفل، لا شيء سوى قلعة محترقة».

«لا، لا،» أطلق ميرغيس تنهيدة وهو يهزّ رأسه، «إنه أمر فظيع جداً».

«لماذا فظيع جداً؟ لنحلّل الأمر. بدقة شديدة ما هو الشيء المخيف من الموت؟ لقد خبرته أكثر من مرة. قلت إنه كلما انتهت حياتك، توجد فترة قصيرة قبل أن تبدأ الحياة التالية».

«نعم، هذا صحيح».

«ما الذي تتذكّره من تلك اللحظات القصيرة؟»

«لا شيء على الإطلاق».

«لكن أليس هذا هو بيت القصيد، يا ميرغيس؟ إن أكثر ما تخشاه من الموت هو كيف تتخيّل ما الذي يمكن أن تشعر به عندما تموت، وتعرف أنه لم يعد بإمكانك البقاء بين الأحياء. لكن عندما تموت، لا يبقى لديك وعي. فالموت هو انطفاء الوعي».

«هل يفترض أن يكون ذلك شيئاً مطمئناً؟» جأر ميرغيس.

«سألتني كيف يمكنني أن أتحمّل ذلك؟ هذا أحد إجاباتي. فأنا أستمد دائماً راحة كبيرة من مقولة فيلسوف آخر عاش منذ زمن بعيد: 'حيث يكون الموت، لا أكون موجوداً، وحيث أكون، لا يكون الموت موجوداً'».

«هل تختلف هذه عن عبارة 'عندما تموت، فإنك ميت'؟»

«فرق شاسع، ففي الموت لا توجد 'أنت' 'فأنت' و'الموت' لا يمكن أن يتعايش أحدكما مع الآخر».

«أمور ثقيلة، ثقيلة»، قال ميرغيس الذي كاد أن يُسمع صوته، وكاد رأسه يلامس الأرض.

«دعني أحدّثك عن منظور آخر ساعدني يا ميرغيس، شيء تعلّمته من كاتب روسي...»

«هؤلاء الروس، لن يكون ذلك أمراً مبهجاً».

«اسمع. سنوات وقرون وآلاف السنين مرت قبل أن أولد. صحيح؟»

«لا أحد ينكر ذلك»، هزّ ميرغيس رأسه ضجراً.

«وستمضي آلاف السنين بعد موتي. صحيح؟»

هزّ ميرغيس رأسه مرة أخرى.

«لذلك فإني أتصوّر حياتي شرارة تلمع بين بحيرتين واسعتين متطابقتين من العتمة: العتمة قبل أن أولد والعتمة التي ستعقب موتي».

يبدو أن هذا قد أصاب الهدف. فقد كان ميرغيس ينصت باهتمام شديد، أذناه مشنفتان.

«ألا يدهشك يا ميرغيس كم أننا نخاف من العتمة الثانية وكم أننا لا نبالي بالعتمة الأولى؟»

«فجأة وقف ميرغيس وفتح فمه في تثاؤب هائل، أنيابه تلمع قليلاً في ضوء القمر المتسلل عبر النافذة. «أظن أنني يجب أن أمشي بتثاقل»، قال وبدأ يمشي نحو النافذة بتثاقل بطريقة لا تشبه مشية القطط.

«انتظر، يا ميرغيس، هناك أشياء أخرى».

«يكفي لهذا اليوم. أشياء كثيرة يجب التفكير فيها، حتى بالنسبة للقطط. في المرة القادمة، احضر لي السلطعون المشوي، ومزيداً من دجاج العشب الأخضر يا إرنست».

«المرة القادمة؟ ماذا تقصد، يا ميرغيس في المرة القادمة؟ ألم يُصحّح الخطأ؟»

«ربما نعم، وربما لا. قلت لك هناك أشياء كثيرة يجب التفكير فيها دفعة واحدة. سأخرج من هنا».

ارتمى إرنست على كرسيه. فقد شعر بالإنهاك وقد نفد صبره. فلم يعقد جلسة قبل الآن أكثر إرهاقاً للأعصاب وأكثر تعباً من هذه. ورأى الآن أن كل ذلك قد ذهب سدى. وبينما كان إرنست يراقب خطوات ميرغيس المتثاقلة، تمتم في نفسه: «اذهب! اذهب» ثم أضاف: «*Geh Gesunter Heit*» -

تلك العبارة الساخرة التي كانت تقولها أمه باللغة اليديشية.

عند هذه الكلمات، توقف ميرغيس ونظر إلى الوراء، وقال: «سمعتك. أستطيع أن أقرأ العقول».

أوه، قال إرنست لنفسه. لكنه رفع رأسه عالياً وواجه ميرغيس القادم.

«نعم، سمعتك. سمعت «*Geh Gesunter Heit*» وأنا أعرف ماذا تعني - ألا تعرف أنني أجيد التحدث بالألمانية؟ لقد باركتني. على الرغم من أنك لم تظن أنني سأسمع، فقد تمنيّت أن أذهب وأكون بصحة جيدة. لقد تأثرت كثيراً ببركتك لي. نعم، تأثرت كثيراً. أعرف المحنة التي وضعتك فيها. أعرف إلى مدى تريد أن تحرر هذه المرأة - لا من أجلها فقط، وإنما من أجلك أنت أيضاً. لكن حتى بعد الجهد الهائل الذي بذلته، وعدم معرفتك إن كنت قد نجحت في تصحيح الخطأ، كنت حتى ذلك الحين ما تزال تتمتع بالنعمة واللطف المحبّ لتتمنى لي صحة جيدة. قد تكون هذه الهدية الأكثر سخاءً التي تلقيتها على الإطلاق. وداعاً يا صديقي».

«وداعاً يا ميرغيس»، قال إرنست وهو يراقبه وهو يبتعد، وقد أصبح أكثر مرحاً الآن وبدأ يسير مشية قطة رشيقة. تساءل في نفسه: هل هي مخيلتي أم أن ميرغيس أصبح أصغر بشكل ملحوظ؟

«قد نلتقي مرة أخرى»، قال ميرغيس من دون أن يتوقف، «أفكّر في أن أستقر في كاليفورنيا».

«أعدك يا ميرغيس»، قال إرنست وراءه، «سوف تأكل هنا جيداً. سلطعون مشوي وكزبرة - كل ليلة».

حلّ الظلام مرة أخرى. وكان الشيء التالي الذي رآه إرنست وهج الفجر الوردي. قال لنفسه: الآن عرفت معنى «ليلة صعبة هذا اليوم»، وجلس منتصباً في السرير، تمطّى، وراح يتأمل أرتميس النائمة. كان متيقناً من أن ميرغيس سيغادر بُعد الحلم الآن. لكن ماذا عمّا تبقى من لعنة القط؟ لم يُناقش أياً من ذلك. لبضع دقائق فكّر إرنست في إمكانية الارتباط بامرأة قد تكون في أحيان كثيرة، شرسة وشبقة. انسلّ من السرير بهدوء، وارتدى ثيابه، وهبط إلى الطابق الأرضي.

عندما سمعت أرتميس وقع خطواته، نادته: «إرنست، لا! لقد تغيّر شيء ما. أنا حرّة. أعرف ذلك. أشعر بذلك. لا تذهب، أرجوك. يجب ألّا تذهب».

««سأعود وأحضر الفطور. بعد عشر دقائق»، صاح من الباب الخارجي، «أريد أن أجلب بيغل وكريمة الجبنة. رأيت البارحة محلاً يبيع مأكولات جاهزة في الشارع».

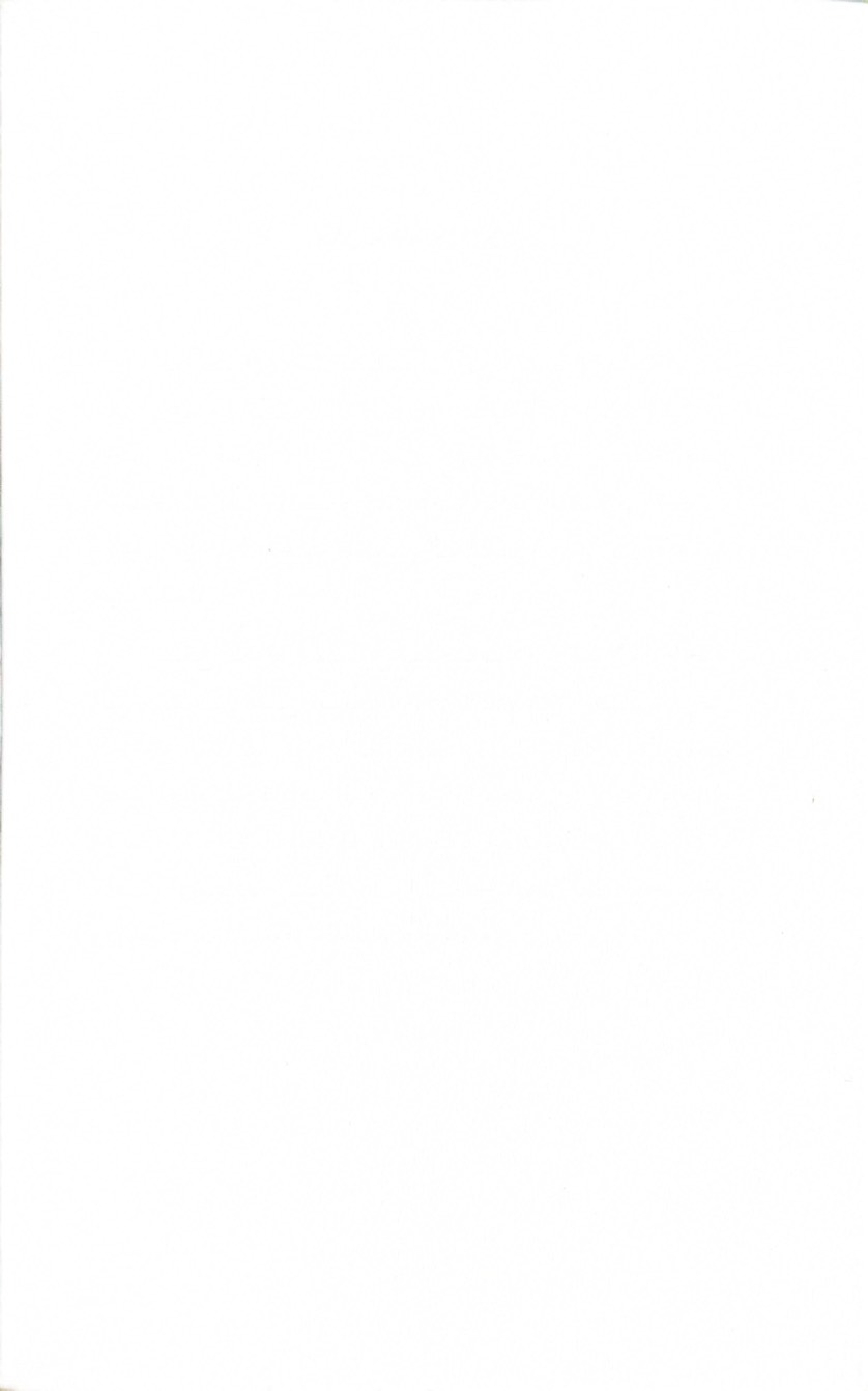
بينما كان يفتح باب سيارته، سمع صوت نافذة غرفة النوم ترتفع، وصوت أرتميس: «إرنست، إرنست، تذكّر أنا نباتية. لا تجلب لي كريمة الجبن. يمكنك أن تجلب لي...»

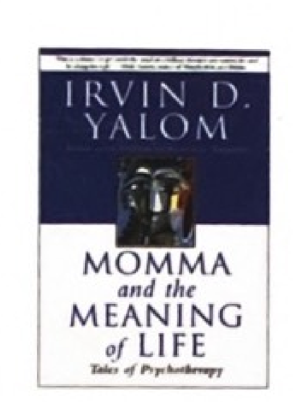
«أعرف... أفوكادو. إنها في قائمتي».

ملاحظة المؤلف

حاولتُ في هذا الكتاب أن أكون راوياً ومعلّماً في آن معاً. وعندما كان هذان الدوران يتضاربان، وكان عليَّ أن أختار بين إقحام تعليق تعليمي مثير للاهتمام والحفاظ على الوتيرة الدرامية للقصة، كنت أضع دائماً القصة في المرتبة الأولى وأحاول تحقيق مهمتي التعليمية من خلال الخطاب غير المباشر.

يمكن للقراء المهتمين بمناقشات أكثر كمالاً، الرجوع إلى صفحتي على الويب: www.yalom.com حيث أعرض المراجع المتعلقة بالأدبيات المهنية ومناقشة عدد من الجوانب الفنية لهذه الحكايات الست: سرّية المريض، والحدود بين الخيال والواقع، والعلاقة العلاجية، والنهج اللا تاريخي هنا والآن، وشفافية المعالج، والمناهج العلاجية الوجودية، وديناميكيات الشعور بالفقدان والفجيعة.





أمّي ومعنى الحياة

"أمّي ومعنى الحياة" مجموعة رائعة واستثنائية من دراسات حالات نفسية مكتوبة بأسلوب جميل. يقدّم لنا يالوم في الحكايات الست من التحليل النفسي التي يرويها، مجموعة من الشخصيات التي لا تُنسى - باولا التي تواجه الموت وتتحداه؛ وماغنوليا، التي يتوق يالوم إلى أن يصبّ أحزانه في حجرها الواسع؛ وإيرين التي تبحث عن الغضب وتغوص فيه؛ والأمّ المحافظة التي لا تريد أن تفارق ابنها وتزور يالوم في أحلامه وتحاول أن تؤثر على أفكاره.

يُظهر إرفين يالوم في هذه الحكايات في العلاج النفسي خبرته الغنية كمعالج، ومعرفته الواسعة بالفلسفة والأدب، وإنسانيته العميقة. وهو يجذب القارئ إلى قصصه وحكاياته بنفس المهارة التي يستخدمها في معالجة مرضاه.

ابن النديم للنشر والتوزيع
51 شارع نهار بلعيد فويدر ـ وهران
هاتف: 03 76 20 661 213 +
فاكس: 88 97 25 41 213 +
ص.ب: 357 السانيا زرباني محمد
وهران ـ الجمهورية الجزائرية
email: nadimedition@yahoo.fr


دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
الإمارات العربية المتحدة ـ مركز الأعمال - مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة - خلوي: 28 28 69 3 961 +
email: rw.culture@yahoo.com
توزيع: دار الروافد الثقافية - الحمراء ـ شارع ليون ـ برج ليون، ط6 - بيروت ـ لبنان ـ ص.ب.113/6058
هاتف: 37 04 74 1 961 +

